عبق الريحان
في
علوم القرآن

د. نوح الفقير

عبق الريحان في علوم القرآن

القرآن الكريم تعريفه: ومصدره وهدايته

القرآن الكريم كتاب الله الخالد، عظيم الفوائد، جليل المقاصد، معجز، تحدى الله سبحانه وتعالى به الانس والجن، فعجزوا عن الاتيان بمثل أقصر سورة منه، فضلاً عن الاتيان بمثله كاملاً، فانتفى بعجزهم أن يكون القرآن بشرياً، وثبت كونه ربانياً، قال سبحانه: {قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفوراً} [1]

لقد صّرف الله سبحانه وتعالى في القرآن من الأمثلة ما يفوق قدرات البشر، من بلاغة، واخبار بالمغيبات، وعلوم كونية، وأرقام دقيقة، وتوجيهات كريمة، وأوامر ونواهٍ، وأخبار، وقصص، ومواعظ وعبر، وغير ذلك مما لا يحويه حصر، ولا يبلغه عدّ، {لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد}[2]، وهو الذي لا تنقضي عجائبه، وهو فوق هذا محفوظ الى يوم الدين، لا تصل اليه أيدي المحرّفين ولا تناله مكائد المبطلين، قال تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[3].

فما هو القرآن الكريم؟ وما هي اسماؤه؟ وما مصدره؟ وكيف نفرق بينه وبين كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم؟ هذا ما سيتبين – بإذن الله تعالى – تالياً:

---

[1] الاسراء ٨٨ – ٨٩.
[2] فصلت ٤٢.
[3] الحجر ٩.

تعريف القرآن لغة واصطلاحاً

إختلفت آراء اللغويين في مسألة اشتقاق لفظ القرآن وعدم اشتقاقه على النحو الآتي:

١ – ذهب الامام الشافعي الى أن لفظ القرآن المعرّف بأل غير مهموز، وغير مشتق، بل مرتجل، وضع علماً على الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، اذ كان يقول رحمه الله: (القرآن اسم، وليس بمهموز، ولم يؤخذ من "قراءة"، ولو أخذ من "قراءة" لكان كل ما قرىء قرآناً، ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوارة والانجيل)[١].

٢ – ذهب آخرون الى أنه مشتق، وهؤلاء جرياً على عادتهم بحثوا في الاصل الاشتقاقي لهذا اللفظ، فاختلفت ارآؤهم، وفيما يلي أشهر أقوالهم[٢].

أ – قال الاشعري[٣]: هو مشتق من قرنت الشيء بالشي، اذا ضممت أحدهما الى الآخر، وسمي به القرآن.

ب – وقال الفراء[٤]: القرآن مشتق من القرائن، لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضاً، وهي قرائن.

ت – وقال اللحياني[٥]: القرآن مهموز، وهو مصدر لقرأت، كالرجحان والغفران، سمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر.

ث – وقال الزجاج[٦]: هو وصف على فعلان، مشتق من القَرء، بمعنى الجمع، ومنه: قرأت الماء في الحوض، أي: جمعته، قال ابو عبيدة[٧]: سمي بذلك لانه جمع السور

---

[١] انظر تعليق الاستاذ أحمد شاكر على (الرسالة) للشافعي ص ١٤ – ١٥، وانظر: تاريخ بغداد ٢/١٢، طبقات الشافعية للعبادي ٢١، غاية النهاية لابن الجزري ١٦٦، البرهان للزركشي ١/٢٧٨.

[٢] انظر تفصيل الأقوال في الاتقان للسيوطي ١/٥٠.

[٣] علي بن اسماعيل الأشعري، أبو الحسن، تنسب اليه الطائفة الاشعرية، توفي سنة ثلاثين وثلاثمائة.

[٤] يحيى بن زياد بن عبدالله الاسلمي، أديب نحوي، يقال: إنه لقب بالفراء لانه كان يحسن تقطيع الفراء وتفصيلها، وقيل: لأنه كان يفري الكلام – توفي سنة سبع ومائتين. انظر: تاريخ بغداد ١٤/١٥٢، بغية الوعاة ٤١١ .

[٥] علي بن حازم اللحياني، وقيل: علي بن المبارك، لغوي مذكور، واللحياني نسبة الى بني لحيان، كان حياً قبل سبع ومائتين، انظر انباه الرواه ٢/٢٥٥، معجم المؤلفين ٧/٥٦.

[٦] ابراهيم بن السري، غلب عليه اسم الزجاج لأنه كان أول حياته يحترف خراطة الزجاج، ثم اشتغل بالعلم توفي سنة احدى عشرة وثلاثمائة، انظر تاريخ بغداد ٦/٨٩، النجوم الزاهرة ٣/٢٠٨.

[٧] معمر بن المثنى البصري، قدم بغداد، وقرأ على هارون الرشيد شيئاً من كتبه، قال النووي: توفي سنة عشر ومائتين. انظر تهذيب الاسماء واللغات ٢/٢٦٠ معجم المؤلفين ١٢/٣٠٩.

بعضها الى بعض، وقال الراغب[١]: لا يقال لكل جمع قرآن، ولا لجمع كل كلام قرآن، وإنما سمي قرآناً لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة[٢].

والظاهر أن لفظ القرآن مهموز، مشتق من قرأ، ومنه قوله تعالى: {إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه}[٣]، فهو مصدر مرادف للقراءة إذ هي: ضم الحروف والكلمات بعضها الى بعض في الترتيل، والقرآن مقروء مضموم، وعلى هذا يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر، وخص بالكتاب المنزل فصار كالعلم الشخصي له، وقد يكون لفظ القرآن مصدراً استعمل بمعنى اسم الفاعل، فيكون القرآن بالاستعمالين السابقين مجموعاً وجامعاً، أما كونه مجموعاً فلأنه مجموع السور والآيات، أو مجموع المعاني السامية، والحقائق العظيمة، والحلول المحكمة لكل مشكلات الانسانية، وصنوف الخير والبر والعدالة، أو لأن الحفظة يحفظونه فهو مجموع[٤]، وأما كونه جامعاً فلأنه جامع لثمرة الكتب، بل لجمعه ثمرة العلوم، كما أشار الى ذلك قوله تعالى: {تبياناً لكل شيء}[٥].

أما ما روي عن الامام الشافعي من كون القرآن غير مهموز فصحيح، إذ هي قراءة صحيحة، قرأ بها قارىء مكة ابن كثير[٦]، واختار السيوطي[٧] هذا الرأي، إذ قال: (والمختار عندي في هذه المسألة ما نص عليه الشافعي) انتهى.

أقول: الظاهر أن القولين في اللغة سواء، ولكن المهموز أشهر وأكثر.

القران اصطلاحا:القرآن الكريم كلام الله تعالى، وكلام الله مع مغايرته لكلام البشر يبقى ضرباً من الكلام، والكلام مصطلح له عند العلماء اطلاقات، وفيه

---

[١] الحسين بن محمد، صاحب المفردات، توفي سنة اثنتين وخمسمائة. انظر الاعلام ٢/٢٥٥،.
[٢] المفردات ٤٠٢.
[٣] القيامه ١٧ — ١٨.
[٤] انظر نكت الانتصار للصيرفي ص ٥٧.
[٥] النحل ٨٩.
[٦] عبدالله بن كثير، الداري، أحد القراء السبعة. انظر غاية النهاية ١/٤٤٣.
[٧] انظر الاتقان في علوم القرآن ١/٥٢.

اختلافات، ومن ثمّ غاير تعريف المتكلمين للقرآن تعريف الفقهاء والاصوليين وعلماء العربية، فانقسموا الى قسمين أساسيين، وقبل الحديث عن تينك القسمين يجدر بنا أن نقف على إطلاقات مصطلح الكلام، إذ يُراد بالكلام البشري شيئان:

الاول : المعنى المصدري وهو التكلم.

والثاني : المعنى الحاصل بالمصدر وهو المتكلم به، قال الزرقاني [1]:

وكل من هذين المعنيين لفظي ونفسي، فالكلام البشري اللفظي بالمعنى المصدري: هو تحريك الانسان للسانه وما يساعده في إخراج الحروف من المخارج، والكلام اللفظي الحاصل بالمصدر: هو تلك الكلمات المنطوقة، التي هي كيفية في الصوت الحسي، وكلا هذين ظاهر لا يحتاج الى توضيح.

وأما الكلام النفسي بالمعنى المصدري فهو تحضير الانسان في نفسه بقوته المتكلمة الباطنة للكلمات التي لم تبرز الى الجوارح، فيتكلم بكلمات متخيلة يرتبها في الذهن بحيث اذا تلفظ بها بصوت حسي كانت طبق كلماته اللفظية.

والكلام النفسي بالمعنى الحاصل بالمصدر: هو تلك الكلمات النفسية والالفاظ الذهنية المترتبة ترتباً ذهنياً منطبقاً عليه الترتب الخارجي.

ومن الكلام البشري النفسي بنوعية قوله تعالى: {فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً}[2] اذ هو كلام نفسي وسماه الله تعالى قولاً.

ولا يخفى أن مصطلح الكلام واحد، وإن اختلف المتكلم، فالقرآن كلام الله، قد يطلق ويراد به الكلام النفسي، وقد يطلق ويراد به الكلام اللفظي، والذين يطلقونه اطلاق الكلام النفسي هم المتكلمون، وأما الذين يطلقونه اطلاق الكلام اللفظي

---

[1] مناهل العرفان ١٥ ــ ١/١٦.

[2] يوسف ٧٧.

فالاصوليون والفقهاء وعلماء العربية وهو الذي يعنينا في هذا المجال، وهؤلاء لما رأوا أنه يتعذر تحديد القرآن الكريم بالتعاريف المنطقية بحيث يكون تعريفه حداً حقيقياً، جامعاً مانعاً عرّفوه بما يقرب معناه الى الاذهان، وبما يميزه عن غيره، فقالوا: القرآن الكريم هو:

(كلام الله المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته، المنقول تواتراً).

محترزات القيود:

الكلام : جنس يشمل كل كلام، واضافته الى الله تخرج كلام غيره من الانس والجن والملائكة وغير ذلك.

المنزل : خرج به الكلام الذي استأثر الله بعلمه، أو الذي أوحاه الى ملائكته، وقد قال سبحانه: {قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا}[1].

على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: قيد خرج به الكلام المنزل على رسل الله من قبل، كالتوراة والانجيل.

المتعبد بتلاوته : خرج به الأحاديث القدسية فانه لا تصح الصلاة بقراءَته فيها.

المنقول تواتراً : يخرج به القراءات غير المتواترة، ومنسوخ التلاوة، فان خرجا بالقيد السابق، كان هذا القيد زيادة في البيان والايضاح، ومثله زيادة (المعجز والمبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس)، وغير ذلك مما يزاد قصد تجلية المعنى وايضاحه.

---

[1] الكهف ١٠٩.

أسماء القرآن الكريم وصفاته

نقل صاحب البرهان عن القاضي أبي المعالي عزيزي بن عبد الملك أنه قال: (إعلم أن الله تعالى سمى القرآن بخمسة وخمسين اسماً)[٢]، ثم عد تلك الاسماء مستشهداً على كل اسم بنص قرآني، ولم يرق ذلك للزرقاني إذ قال: (تجاوز صاحب البرهان حدود التسمية، فبلغ بعدتها خمسة وخمسين، وأسرف غيره في ذلك حتى بلغ بها نيفاً وتسعين، كما ذكره صاحب التبيان[٣]، واعتمد هذا وذاك على اطلاقات واردة في كثير من الآيات والسور، وفاتهما أن يفرقا بين ما جاء من تلك الالفاظ على أنه اسم، وما ورد على أنه وصف، ويتضح ذلك لك على سبيل التمثيل في عدهما من الاسماء لفظ قرآن ولفظ كريم أخذاً من قوله تعالى: {انه لقرآن كريم}[١]، كما عدّا من الاسماء لفظ ذكر ولفظ مبارك، اعتماداً على قوله تعالى: {وهذا ذكر مبارك انزلناه}[٢] على حين أن لفظ قرآن وذكر في الآيتين مقبول كونهما اسمين، أما كريم ومبارك فلا شك انهما وصفان كما ترى، والخطب في ذلك سهل يسير، بيد أنه مسهب طويل)[٣].

والظاهر أن كثرة الاسماء تدل على شرف المسمى، ومن هنا نفهم حرص بعض العلماء على استنباط اسماء كثيرة للقرآن، وتجاوز ذلك الاستنباط الى حد الخلط بين الاسماء والصفات، ومن أشهر أسمائه:

١ – **القرآن**، لقوله تعالى {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم}[٤].

---

[٢] البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/٢٧٣.
[٣] يقصد التبيان في علوم القرآن للشيخ طاهر الجزائري.
[١] الواقعة ٧٧.
[٢] الانبياء ٥٠.
[٣] مناهل العرفان ١/١٥.
[٤] الاسراء ٩.

٢ – **الكتاب**، فقد ورد ذكر هذا الاسم في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين}[٥]، وقوله تعالى: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا}[٦]، ووجه تسمية القرآن كتاباً أن الكتابة ضم الحروف بعضها الى بعض، كما أن القراءة ضم الالفاظ بعضها الى بعض، ولا تنس أن هناك حكمة في إطلاق هذين العلمين (القرآن والكتاب) على كلام الله تعالى ذكرها العلامة محمد عبدالله دراز فقال: (روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالالسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين اشارة الى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً)[٧].

٣ – **الفرقان**، وهو يلي الاسمين السابقين في الشهرة وقد ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} الفرقان ١، وهو مصدر استعمل بمعنى اسم الفاعل، أي أنه كلام فارق بين الحق والباطل أو استعمل بمعنى اسم المفعول، أي: أنه كلام مفروق بعضه عن بعض في النزول أو في السور والآيات.

٤ – **الذكر**، يقول الله سبحانه وتعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[١] وسمي ذكراً لانه يذكّر الناس بربهم، وبالحقائق التي يجب عليهم الايمان بها، قال تعالى: {وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم}[٢].

٥ – **التنزيل**، قال تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين}[٣].

---

[٥] البقرة ٢.

[٦] الكهف ١.

[٧] النبأ العظيم ١٢.

[١] الحجر ٩.

[٢] النحل ٤٤.

[٣] الشعراء ١٩٢.

هذه أشهر اسماء القرآن الكريم، وللقرآن أوصاف أيضاً منها: أنه نور قال تعالى: {يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً}[٤]، ومنها أنه مجيد، يقول الحق عز وجل: {بل هو قرآن مجيد}[٥]، ومنها أنه هدى وبشرى: قال تعالى: {مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين}[٦] الى غير ذلك من الصفات الكثيرة التي وصف الله بها القرآن الكريم.

خلوده وهدايته:

نزل الروح الأمين بالقرآن الكريم على قلب النبي صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، وتحدى الله تعالى بالقرآن البشر ليأتوا بمثل سورة منه فعجزوا، واحتوى كثيراً من الغيبيات والكونيات والاشارات التي لا يسع النبي صلى الله عليه وسلم الأمي الاتيان بمثلها، مما يدل دلالة قاطعة على أن القرآن من عند الله تعالى، وسيأتي – باذن الله – بيان ذلك عند الحديث عن ربانية القرآن الكريم قريباً، والقرآن باقٍ ما بقيت الدنيا، وعلى مر الدهور والعصور يتحدى عوامل الفناء والافناء، إذ تولى الله سبحانه وتعالى حفظه، وتكفل ببقائه فقال تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[٧]، وحفظ القرآن ميزة تميز بها عن سائر الكتب السماوية السابقة، تلك الكتب التي وكلت الى من نزلت عليهم، قال تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء}[١]، ومن ثمّ لا يستغرب تحريفها، وضياع كثير من تشريعاتها وتفصيلاتها، ولقد كان لخلود القرآن الأثر البين في كثير من المجالات، إذ حفظ الله سبحانه وتعالى

[٤] النساء ١٧٤.
[٥] البروج ٢١.
[٦] البقرة ٩٧.
[٧] الحجر ٩.
[١] المائدة ٤٤.

بحفظه الشريعة، وأبقى على الأمة، وحفظ لها لغتها التي هي مناط حضارتها ورفعتها، ولما تقدمت الامم في المجالات العلمية لم تزدد الحقائق القرآنية الا رسوخاً وثباتاً، ولم يسع العلماء الا السجود والانصياع لعظمة الباري، ودقيق صنعته وباهر حكمته، بالاضافة الى معالجة القرآن شتى المشكلات الانسانية في مرافق الحياة كافة علاجاً حكيماً، عزز أسباب خلوده وإعجازه، وسعادة الناس به، ولن يضيق القرآن باتباعه طول الزمان، وبقاء الانسان، مهما تقدم وتعلّم وتطور.

هذا عن خلوده، وأما عن هدايته فهو المشعل المضيء الوقاد، الهادي الى سبيل الرشاد، قال تعالى: {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم}[٢]، وهو تذكرة المتقين، وحق اليقين، أنزله الله تعالى رحمة للعالمين، وشفاء لصدور المؤمنين،ودعاهم للفرح به، واستمطار خيراته فقال سبحانه: {يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدوروهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}[٣]،إن تقرير الهداية القرآنية ثابت في مطلع القرآن الكريم في أول سورة البقرة {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين}[٤]، كما أنه يسطع في ثنايا السور والآيات، حتى فاق عدد الفاظ الهدى باشتقاقاته المئات، فقرن حيناً بالبينات والبشرى والرحمة، اذ قال سبحانه وتعالى: {ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين}[٥]، وقرن حيناً آخر بالبصائر والرحمة، إذ قال سبحانه وتعالى: {هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون}[١]، والحاصل أن الآيات القرآنية متآزرة على اثبات الهداية للقرآن، شهد بذلك القرآن نفسه، وأيده المرسلون، ووقع

[٢] الاسراء ٩.
[٣] يونس ٥٧ — ٥٨.
[٤] البقرة ١-٢.
[٥] النحل ٨٩.
[١] الجاثية ٢٠.

موقع القبول والحب لدى المسلمين من الانس، ولم يتردد الجن لما رأوا الهدى القرآني فسارعوا الى الايمان، وقالوا: {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساًولا رهقاً}[٢]،إن الهداية هدف للقرآن نبيل، ومقصد شريف، وغاية سامية، وفي سبيل تحقيقها انتهج القرآن أساليب نظيفة شتى، من أشهرها:

١ – ترسيخ أسس العقيدة السليمة الصحيحة، التي تحل للانسان أعظم مشكلة تلح على وجدانه، وهي سبب خلقه ومصيره وثمرة عمله، قال سبحانه: {وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون}[٣]، وأرست هذه العقيدة نظرة متميزة للانسان والكون والحياة فليس الكون عدواً للانسان، وليست الطبيعة خصماً له يصارعه ويغالبه، انما هي ممن خلق، وسخر الارض مذللة للانسان، قال تعالى: {هو الذي جعل لكم الارض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه}[٤]، والكون مناط تفكيره وسعيه، كما قرر القرآن العقيدة السليمة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

٢ – شرع من التشريعات ومقومات الاصلاح والصلاح ما يكفل الحياة الكريمة، ويقوم جميع جوانب الانسان المادية والروحية والنفسية والفكرية، فالمتدبر لأحكام القرآن المتتبع لآيات التشريع يجد عطاءً ثراً ثرياً من التشريعات في أبواب المعاملات كافة من بيع وشراء، ونكاح وطلاق، ورهن، وكفالة، ووكالة، وغير ذلك من المعاملات الكفيلة باسعاد البشرية متى التزمت بها، فهو نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعها، دولة ووطناً، خلقاً وقوة، عدالة ورحمة، جهاداً ودعوة، ثقافة وكرامة، قال تعالى: (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون) الجاثية ,٨

٣ – توثيق صلة العبد بربه، واشعاره بأنه قريب منه، يلتجيء اليه مباشرة من غير واسطة، ويقف بين يديه مرات في اليوم والليلة، ويحج البيت إن استطاع اليه سبيلاً،

---

[٢] الجن ١٢.
[٣] الذاريات ٥٦.
[٤] الملك ١٥.

فيرجع وقد غفرت ذنوبه كحاله يوم ولدته أمه، ويصوم رمضان كل عام فيغفر له به ما اقترف من الآثام، وهكذا في كل عبادة من العبادات موسم يستطيع المسلم من خلاله تطهير نفسه وتزكيتها ورفعها واكرامها.

٤ – تشريع نظام أخلاقي شامل لا يتجاهل طبيعة النفس الانسانية بل يسعى بها لتحقيق المثل الاعلى من مكارم الاخلاق مثال ذلك قوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون}[١]، ومثاله أيضاً قوله تعالى: {قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً الا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون}[٢].

هذه أنماط من الاخلاق الايجابية الفاضلة التي دعا اليها القرآن الكريم، وبهذا يظهر أن القرآن الكريم حوى أسس النظام الاجتماعي والاقتصادي والاخلاقي والسياسي، فأقام الأسرة على قواعد متينة من التراحم والتعاون والتكافل، وحقق الكفاية والعدالة والرفاهية وحرم الاستغلال والربا والعدوان، وأرسى قاعدة الدولة التي تقوم على الشورى والعدل والمساواة، وقد أثبتت الايام والتجارب أن دستور القرآن صالح لكل زمان ومكان، وأن أحكامه هي العلاج الناجع لأمراض الحياة[٣] بالاضافة الى أنه شرع من العقوبات الرادعة ما تستقيم به الحياة ويأمن الأحياء.

---

[١] النحل ٩٠.

[٢] الانعام ١٥١ – ١٥٢.

[٣] يراجع في ذلك كتاب لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير لمحمد الصباغ ص ١٣ – ١٤.

ولا يعزبن عن بالك أن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والاعجاز حاكم الناس الى عقولهم، وفتح عيونهم الى الكون، وتحدث عنه حديث العليم بأسراره الخبير بدقائقه، المحيط بعلومه ومعارفه، على حين أن الذي جاء بالقرآن أمي نشأ في أمة أمية، لاصلة لها بتلك العلوم وتدوينها ولا المام لها بكتبها ومباحثها بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ الا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال، فأنى يكون لرجل أمي ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم، قال تعالى: {وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون}[1].

---

[1] العنكبوت ٤٨ ــ ٤٩.

ربانية القرآن:

ثبتت ربانية القرآن الكريم بداية نزول آياته على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لما نزل به الروح الامين، بلسان عربي مبين، تحدى الله عز وجل البشر أن يأتوا بمثله فعجزوا، وهو باق ما بقيت الدنيا وعلى مر الدهور والعصور يتحدى عوامل الفناء والافناء، وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه فقال تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[٢] بخلاف الكتب السماوية السابقة التي وكلت الى من نزلت عليهم قال تعالى: {إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء}[٣].

لقد كان لهذا الخلود الاثر البين في كثير من المجالات اذ حفظ الله سبحانه وتعالى بحفظه الشريعة، وأبقى على الامة، وحفظ لها اللغة التي هي مناط الحضارة والرفعة، إضافة الى معالجة القرآن شتى مشكلات الانسانية في مرافق الحياة كافة علاجاً حكيماً مما عزز في أسباب خلوده واعجازه وسعادة الناس به، كتاباً الهياً بين يدي البشر من أحب أن يكلمه الله فعليه بالقرآن، ينهل من معينه العذب الذي لا ينضب.

أدلة ربانية القرآن:

يدل على ربانية القرآن العظيم أدلة كثيرة اذ تضمن القرآن فيضاً من الشواهد على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وتلقيه الوحي، ومن هذه الأدلة:

---

[٢] الحجر ٩.
[٣] المائدة ٤٤.

١ – بداية نزول القرآن وكيفية استقبال الرسول صلى الله عليه وسلم، له، إذ روى الامام البخاري عن عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين أنها قالت: أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبّب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: ما أنا بقارىء؟ قال: فأخذني فغطني حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء؟ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم}[١] فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق)[٢].

إن التماس النبي صلى الله عليه وسلم الدثار والتزميل مع رجفة الفؤاد واللجوء الى الفراش كل ذلك يشير الى خوف شديد ألمّ به نتيجة مؤثر خارجي فلو كان القرآن من نفسه أتراه يخاف؟ ولكنه الوحي الذي أتاه لأول وهلة بما أفزعه ليروض نفسه على استقبال الزائر المعلم الكريم.

٢ – العتاب الالهي للرسول صلى الله عليه وسلم في بعض مواضع القرآن، فقد كان يأتيه الوحي على غير ما يهوى ويحب، ويأذن له في شي لا يميل اليه، ويعاتبه على فعل مباح كما في أسرى بدر الذين قبل النبي صلى الله عليه وسلم منهم الفداء، فعاتبه

---

[١] العلق ١ – ٣.
[٢] رواه البخاري باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ربه فقال: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)الانفال٦٨، ومثل تلك المعاتبة في سبب نزول {عبس وتولى أن جاءه الاعمى} عبس١ وغيرهما، ولو كانت هذه المعاتبة غير صادرة عن الله تعالى أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلنها لتقرأ على مر الدهور والعصور! إنه لو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات لأن الذي يدقق النظر يجد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا خُير بين أمرين اختار الأقرب الى رحمة قومه وهدايتهم والأبعد عن الغلظة والجفاء واثارة الشبه في دين الله، من غير علم منه ما هو الأرجح في ميزان الحكمة الالهية، فهل هذا من الذنوب التي تستوجب التأنيب؟

٣ – الانذار والتهديد للرسول صلى الله عليه وسلم في بعض الآيات القرآنية لئلا يتقول على الله، كقوله تعالى: {ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين}[١] وقوله سبحانه: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً وإذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا}[٢] إن هذا الاسلوب في الانذار يقرر بلا تردد أن القرآن كلام الله، إذ لا يتسنى لمن يدعى الوحي من البشر أن يهدد نفسه بمثل هذا التهديد.

٤ – انقطاع الوحي لفترات مختلفة، كما في تحويل القبلة، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوق شوقاً للتوجه في الصلاة الى البيت العتيق، وبقي على ذلك ستة عشر شهراً حتى أنزل الله: {قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام}[٣]، ومثله في سورة الكهف اذ سأل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين فوعدهم باخبارهم غداً، فتأخر الوحي خمس

---

[١] الحاقة ٤٤-٤٧.
[٢] الاسراء ٧٤-٧٥.
[٣] البقرة ١٤٤.

عشرة ليلة، حتى أرجف أهل مكة فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نزل قوله تعالى: {ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله}، وغير ذلك من النوازل التي من شأنها أن تحفزه على القول وتلح عليه أن يتكلم ولو كان الامر اليه لوجد له مقالاً ومجالاً ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

٥ – الاخبار عن أمور مغيبة مستقبلية ليس بمقدور أحد أن يعلمها لولا الوحي، كاخباره عن الروم وأنها ستغلب في قوله تعالى: {الم غلبت الروم}[١] وكذا الاخبار عن دخول الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة آمنين قال تعالى: {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين}[٢]، وذلك يوم الحديبية قبل فتح مكة، فهل يسع النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرف هذه الاخبار وغيرها لولا الوحي وصدق الله العظيم تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا}[٣].

٦ – الارقام الدقيقة، إذا القارىء للقرآن يجد فيه ارقاماً طبق الارقام، ففي قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم {ثلاثمائة سنين وازداوا تسعاً} وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية[٤].

إن هذا غيض من فيض دلائل ربانية القرآن، ومن اراد الاستزاده فليتأمل العلوم التي تضمنها القرآن والصفات التي تحلى بها من نزل عليه القرآن، وسيرته الطاهرة، وعدم تناقض أخبار القرآن رغم طول فترة نزوله منجماً وتصدير بعض الآيات والسور بقوله تعالى: {قل} للاشارة الى انه من عند الله، ومن تأمل وجد خيراً كثيراً.

---

[١] الروم ١ – ٢.
[٢] الفتح ٢٧.
[٣] هود ٤٩.
[٤] النبأ العظيم د. محمد عبدالله دراز ٣٨.

مميزات الهداية القرآنية:

تتميز الهداية القرآنية عن غيرها من ألوان الهداية بمزايا عظيمة جليلة فذة، من أشهرها أنها:

أولاً : هداية شاملة عامة لكل البشر، مهما اختلفت أمصارهم وعصورهم ولغاتهم وأساليب حياتهم، ومن ثم جعل الله سبحانه وتعالى العلماء ورثة النبي صلى الله عليه وسلم يبينون هداية القرآن بعد وفاته، ويوضحون معانيه للعوام، عرباً كانوا أو عجماً.

ثانياً : هداية دائمة خالدة، تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظها، ولهذا لم تفترق قراءة المسلم لكتاب الله تعالى في عصرنا، وكذا في كل عصر، عن قراءة الصحابي لكتاب الله في عصر النبوة.

ثالثاً : هداية تامة، شملت جوانب الحياة كافة، ووسعت احتياجات الانسان، وشرعت له من التشريعات ما يسمو بها على سائر المخلوقات.

رابعاً : هداية ناجحة، إذ أثبتت نجاحاً باهراً من عصر النبوة والى يومنا هذا، وكان نجاحها منقطع النظير، وليس له مثيل، يشهد بذلك القاصي والداني، في الوقت الذي فيه عجزت ألوان الهداية الاخرى عن تقديم مثل هذا النموذج الفريد.

هذا قبس من نور أوصاف هداية القرآن، التي يعجز الانسان مهما أوتي من علم أن يبلغ غايتها، فهدايات القرآنية لا منتهى لها، اذ كلمات القرآن لا تنفد، قال تعالى: {قل لو

كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً}[1] وكذلك هداياته.

[1] الكهف ١٠٩.

الفرق بين القرآن والحديث النبوي والحديث القدسي:

سبق في تعريف القرآن الكريم أنه بلفظه ومعناه من عند الله سبحانه وتعالى، فهل الحديث بنوعيه القدسي والنبوي من عند النبي صلى الله عليه وسلم؟ وما الفرق بينهما وبين القرآن الكريم؟

للاجابة على السؤالين السابقين لا بد من الوقوف على معنى الحديث النبوي في اللغة والاصطلاح وكذا الحديث القدسي.

الحديث النبوي لغة واصطلاحاً:

الحديث لغة نقيض القديم، يقال: أخذني ما قَدُمَ وما حَدُثَ والحديث الخبر، يأتي على القليل والكثير، ويجمع على أحاديث على غير قياس، لأن واحد الأحاديث أحدوثه، ثم جعلوه جمعاً للحديث[٢].

وفي القرآن الكريم اطلق الحديث على الكلام الذي يبلغ الانسان من جهة السمع او الوحي قال تعالى: {ومن أصدق من الله حديثاً}[٣]، فسمى القرآن – وهو كلام الوحي – حديثاً، كما اطلق الحديث في القرآن على ما يحدث به الانسان في نومه، كما في سورة يوسف عليه السلام: {وعلمتني من تأويل الأحاديث}[١].

أما في الاصطلاح فالحديث هو:(ما أضيف الى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خَلقي أو خُلقي)،وعلى هذا التعريف لا يدخل الموقوف، وهو ما أضيف الى الصحابي كما لا يدخل المقطوع، وهو ما أضيف الى التابعي، وهو مذهب بعض العلماء[٢] لكن الجمهور ذهبوا الى ان ما أضيف اليهما من الحديث أيضاً، وسووا في الدلالة بين الحديث والخبر، فأضافوا قولي الصحابي والتابعي.

---

[٢] انظر االصحاح للجوهري ١/٢٧٨.
[٣] النساء ٨٧.
[١] يوسف ١٠١.
[٢] نسب هذا القول للكرماني والطيبي انظر منهج النقد في علوم الحديث د. نور الدين العتر ٢٦.

ومثال قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[٣].

مثال الفعل: سئل أنس: كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم[٤].

مثال التقرير: اقراره صلى الله عليه وسلم لمن صلى العصر في الطريق الى بني قريظة، مع أنه أمرهم قائلاً: "لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة"[٥]، ولكن بعضهم أدركه العصر في الطريق فصلى، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ولم يُعنف أحداً، ولو كان باطلاً لأنكره.

مثال الوصف الخُلقي: حديث: (كان رسول الله أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان)[٦].

مثال الوصف الخلقي: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير)[٧].

بين الحديث والسنة:

السنة في اللغة من مادة سنَّ، وتطلق على معانٍ، منها:

١ – جريان الشيء واطراده في سهولة[١]، تقول: سننت الماء على وجهي، إذا ارسلته ارسالاً.

٢ ـ الصقل[٢]، تقول: سنَّ الحديد سناً، وسنَّ الابل، اذا أحسن رعْيتها حتى كأنه صقلها، وسنَّ المنطق، اذا حسَّنه، فكأنه صقله، وهكذا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، أحكامها سهلة مطردة، وهي مما تتكرر وتعاد، لتصقل النفس البشرية، وتهذبها، وتقوم الحياة الانسانية.

---

[٣] رواه مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه بهذا اللفظ. انظر كتاب الزهد رقم ٥٣ حديث رقم ١، والترمذي ٢٣٢٤، وابن ماجه ٤١١٣.

[٤] رواه البخاري كتاب فضائل القرآن رقم ٦٦ باب رقم ٢٩ حديث رقم ٥٠٤٦.

[٥] رواه البخاري، في المغازي حديث رقم ٤١١٩.

[٦] رواه البخاري.

[٧] رواه البخاري في صفة النبي صلى الله عليه وسلم.

[١] معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٦٠.

[٢] لسان العرب لابن منظور، مادة سنَّ

وأما في الاصطلاح فهي: ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلقية من مبدأ بعثته حتى وفاته، وقد تأتي السنة قولاً أو فعلاً من الصحابة باعتبارهم شهود عصر النبوة المقتبسين من مشكاتها، أو من التابعين باعتبارهم شهود عصر الصحابة وأقرب الناس الى عصر النبوة.

إن الحديث – إذن – أعم من السنة من وجوه، أشهرها:

١ – أنه يتناول كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى لو لم يكن عليه العمل، كالمنسوخ، وأخبار الجاهلية التي أخبرنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢ – أنه يتناول صفات النبي صلى الله عليه وسلم الخلقية من حيث لونه وجسمه وشعره وطوله، وصفاته الجبلية من حيث صحته ومرضه وما يميل اليه من الطعام وما لا يرغب فيه وغير ذلك مما لا يقصد بروايته الاتباع.

والخلاصة أن الحديث أعم من السنة، فكل سنة حديث، وليس كل حديث سنة، والسنة هي غاية الحديث وثمرته.

بين القرآن والحديث القدسي:

القدس – بضمتين، واسكان الثاني – هو الطهر([١]) أما نسبة الاحاديث اليها فلأن معناها مضاف الى الله تعالى وحده فان ما أخبر الله به بالالهام أو بالمنام فأخبر عنه النبي بعبارة نفسه هو الحديث القدسي، والقرآن مفضل عليه لأن لفظه منزل أيضا ([٢])

فالحديث القدسي هو: المسند الى الله تعالى، بأن جعل من كلامه سبحانه وتعالى، ولم يقصد الى الاعجاز به، ويسمى الحديث الالهي الرباني ([٣])والفرق بينه وبين الحديث النبوي من وجهين:

الأول: أن الحديث القدسي معناه من عند الله يلقى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكيفية من كيفيات الوحي لا على التعيين، أما الفاظه فمن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم على القول الأصح، ونسبته الى الله نسبة لمضمونه لا نسبة لالفاظه، ولو كان لفظه من عند الله لما وجدنا فرقاً بينه وبين القرآن.

أما الحديث النبوي فقد يكون توفيقياً، أي: مستنبطاً بالاجتهاد، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشير بالرأي، فيقول له بعض الصحابة: أوحي أم رأي يا رسول الله؟ فاذا علم أنه رأي أشار بخلافه، فيعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشورته.

هذا اذا كان الحديث النبوي توفيقياً استنبطه النبي صلى الله عليه وسلم بفهمه لكلام الله تعالى أو بتأمله حقائق الكون واجتهاده، أما اذا كان توقيفياً تلقى مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه فيفترق عن الحديث القدسي من جهة أخرى يوضحها الوجه الثاني.

الثاني: أن الحديث القدسي نسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى، ولم ينسب الحديث النبوي الى ربه، والجميع مرده الى الوحي، قال تعالى: {وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى}([١]).

---

[١] المصباح المنير ٤٩٢.

[٢] الاتحافات السنية في الاحاديث القدسية للشيخ محمد المدني ٣٣٥

[٣] الرسالة المستطرفة للكتاني ٨١، وانظر مقدمة محمد منير الدمشقي على الاتحافات السنية للمناوي ص ٣.

([١]) النجم ٣ — ٤.

وهنا تثور مسألة؛ هي: أن الحديث القدسي مختلف في لفظه؛ هل هو من عند الله أم من عند النبي صلى الله عليه وسلم؟ والقول الأصح أنه من عند رسول الله ، فإن كان من عند النبي صلى الله عليه وسلم فما وجه نسبته الى الله؟

والجواب: أنه يسوغ في العربية ان تنسب الكلام باعتبار مضمونه لا باعتبار الفاظه، فقد حكى لنا القرآن الكريم باللغة العربية كلام أنبياء لم يتكلموا العربية ونسبها اليهم.

بين القرآن والحديث القدسي:

يفترق الحديث القدسي عن القرآن باعتبارت متعددة، منها:

١ – **المصدرية :** اذ القرآن لفظاً ومعنى من عند الله سبحانه وتعالى، نزل به جبريل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، أما الحديث القدسي فلفظه من عند الرسول صلى الله عليه وسلم. ومعناه وحي أوحاه الله تعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم بالالهام او بالمنام او بواسطة يعلمها الله تعالى.

٢ – **التحدي والاعجاز :** فقد وقع بالقرآن التحدي والاعجاز، اذا تحدى الله سبحانه وتعالى به البشر فعجزوا عن الاتيان بمثل سورة منه، اما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي والاعجاز فهو في هذا المجال كالحديث النبوي.

٣ – **التعبد بالتلاوة :** فالقرآن متعبد بتلاوته لا تصح الصلاة الا بقراءة القرآن، لأنها ركن من أركان الصلاة، ومن قرأ حرفاً منه كتب له عشر حسنات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول : "الم" حرف ولكن الف حرف، ولام حرف، وميم حرف)[١]، أما الحديث القدسي فلا تجوز الصلاة بقراءته، وثواب قراءته لا يعادل ثواب قراءة القرآن.

٤ - **التواتر والثبوت :** القرآن الكريم قطعي الورود، متواتر النقل، فالمؤمن اليوم يقرأ القرآن الذي تلقاه النبي صلى الله عليه وسلم من وحي السماء، أما الحديث القدسي فكالاحاديث النبوية، منها قطعي الثبوت متواتر، وأكثرها ظني في ثبوته، كما أن وصفها بالقدسية ليس عنواناً لصحتها وصلاحيتها للقبول.

---

[١] رواه الترمذي في الجامع: كتاب فضائل القرآن حديث رقم ١٩١٠، وانظر سنن الدارمي ٢/٤٢٩ ومجمع الزوائد ٧/١٦٦.

٥ – **الحفظ والصون:** القرآن الكريم محفوظ مصان قال تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[٢]، اما الحديث بنوعيه فلم يسلم من التحريف والوضع.
٦ – **النسبة :** القرآن الكريم ينسب لله تعالى، فهو كلامه، ولا ينسب الى أحد سواه، أما الحديث القدسي فيروى مضافاً الى الله تعالى، فيقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى، وتسمى هذه النسبة نسبة انشاء، وقد يروى مضافاً الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه، وتسمى نسبة
اخبار[٣].
٧ – **الرواية بالمعنى :** لا تجوز قراءة القرآن الا بنصه، ولا تجوز قراءته بالمعنى، أما الحديث القدسي فتجوز روايته بالمعنى لمن كان أهلاً لذلك.
٨ – **باعتبار كفر جاحده:** اذ جاحد القرآن كافر، لأنه قطعي الثبوت، أما جاحد غير المتواتر من الحديث فلا يكفر، لأنه ظني الثبوت.

---
[٢] الحجر ٩.
[٣] مباحث في علوم القرآن للقطان ٢٦.

ظاهرة الوحي

خاطب الله سبحانه وتعالى البشرية بالوحي، وحدثهم بحديث السماء ما شاء، وتتابع الرسل والانبياء في الأرض، ينشرون الفضيلة، وينهون عن الرذيلة، ويوثقون علاقة العبد بخالقه، ويبشرون وينذرون، قال تعالى: {وإن من أمة الا خلا فيها نذير}[١]، وقال سبحانه: {ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً}[٢].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد خاتم الرسل والنبيين، وسمى القرآن ما نُزّل منجماً على قلبه وحياً، ونفى أن يكون عن الهوى ناطقاً، فقال سبحانه: {والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى}[٣].

ومن ثم حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الوحي، وافتخر به، وكان كلما أنكر عليه الناس فعلاً فعله ردد ما أمره الله سبحانه وتعالى به، اذ قال: {قل انما اتبع ما يُوحى اليَّ من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون}[٤]، ولطالما أنكر القرآن الكريم على الناس أن عجبوا الوحي، قال تعالى: {أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين}[٥]، وذلك لأن الوحي ثابت بالأدلة النقلية السمعية والعقلية، وله كيفيات يقينية، وبالوحي تنتفي بشرية القرآن، وتثبت ربانيته، وهو الذي يقرر العلاقة بين الكتب السماوية السابقة على القرآن وبين القرآن.

---

[١] سورة فاطر ٢٤.
[٢] النساء ١٦٤ ـ ١٦٥.
[٣] النجم ١ ـ ٤.
[٤] الاعراف ٢٠٣.
[٥] يونس ٢,

الوحي مطلب فطري وضرورة عقلية:

الوحي ظاهرة غيبية قامت الدلائل القطعية على صحتها، وهو مناط فخر الانبياء، ومنقذ البشرية من الضلال والغواية الى النور والهداية، به السعادة وبدونه الشقاوة، وهو غذاء الروح والفطرة، ومُسير العقل ومنظمه ومقومه، ولا يمكن للبشر الاحتراز عنه، فالحاجة اليه ماسة، يتضح ذلك من خلال النقاط التالية:

١ – تظهر ضرورة الوحي من سمو أهدافه وكريم أغراضه.

٢ – قصور العقل والفطرة وحدهما عن ادراك الحقائق والدقائق وترتيب الشرائع فلا بد من مؤازرة الوحي.

٣ – عقول البشر متفاوته والمصالح متغيرة، فأنى لعقل بشري أن يصل الى ترتيب حياة غير أهل زمانه وقد اختلفت الأهواء واعتراها التغيير والتطوير؟

٤ – تنظيم علاقة المخلوق بالخالق يستلزم معرفة ما يرضى الخالق وما يريد من عبده المخلوق، وذلك لا يكون الا بالوحي، فهو الذي يرشده الى أعداد الركعات وانصبه الزكوات، وكيفية الحج، وغير ذلك مما لا يدرك الا بوحي السماء.

٥ – لولا الوحي لكان التناحر بين الأمم غير مطاق، اذا بالوحي تتم السيطرة على الشهوات والرغبات، وتنظم الميول وتستقيم علاقة المخلوق بالمخلوق.

٦ – وأهمها أن معرفة الخالق باسمائه وصفاته لا تتم الا بالوحي، وهذا الذي يرجوه المخلوق، لئلا يكون مع الضالين.

أهداف الوحي:

غاية الوحي هداية البشرية الى الصراط المستقيم، هذه خلاصة الأمر، والتفصيل يظهر بالتفريعات الكثيرة، وأهمها:

١ – تصحيح المفاهيم العقدية، وربط المخلوق بالخالق الواحد ونبذ الشركاء وبيان أساليب توطيد العلاقة بالعبادات كما يريدها الخالق سبحانه.

٢ – إزاله الأوهام والخرافات وربط الانسان بالثوابت والحقائق.

٣ – رسم حدود العلائق بين المخلوقين، وتقويم السلوك، ونشر الفضيلة.

٤ – الرقي بالمجتمعات الانسانية وترسيخ أسس العدل والحق في الارض، ونبذ الظلم واستعباد المخلوق لنظيره.

٥ – مسايرة الأزمنة وانزال الشرائع الموافقة لها وسد حاجات البشر.
٦ – بيان السنن الالهية في الكون من عقوبة الكاذبين ونصر الصادقين.
٧ – توضيح بدء الخلق واخبار الامم السابقة للاتعاظ والاعتبار، وتوجيه الانظار الى الآخرة والمصير المحتوم.

مفهوم الوحي

الوحي لغة: الوحي مصدر، يطلق ويراد به: الاشارة، والكتابة، والرسالة، والالهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته الى غيرك، يقال: وحيت اليه الكلام وأوحيت، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه كذا قال الجوهري[1].

وفي القرآن الكريم وردت كلمة الوحي ومشتقاتها قريباً من ثمانين مرة، مستعملة في معانٍ مختلفة، من أشهرها:

١ – الالهام الفطري للانسان، ومن ذلك قوله تعالى: {وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين}[2]، ففطرة المرأة تقتضي من الام أن ترضع ولدها، ولذلك تقبل عليه، ولا تترقب وحياً من السماء يأمرها بارضاعه، وانما هو الالهام.

٢ – الالهام الغريزي للحيوان، ومن ذلك قوله تعالى: {وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون}[3]، ولا يتصور أن يوحى الى كل نحلة بهذا، وإنما هو الهام يوجه غريزة النحل الى هذه الأفعال.

ومما يليق ذكره هنا أن فطرة الانسان يقابلها من الحيوان الغريزة وهي القريحة والطبيعة، فالفطرة مخصوصة بالناس، قال تعالى: {فطرت الله التي فطر الناس عليها}[1]، والفطرة خلقة متميزة، خاصة بالانسان، وتمتاز بمعرفة كامنة فيه بخلاف

---

١ الصحاح للجوهري ٦,/٢٥٢٠
٢ القصص ٧.
٣ النحل ٦٨ – ٦٩.
(١) الروم ٣٠.

الحيوان، قال القرطبي[٢]: قالت طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرة: هي الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقه مخالفة لخلقه البهائم التي لا تصل بخلقتها الى معرفته. انتهى

٣ – الوسوسة بالشر، سواء من الانسان، أو من الجان، قال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون}[٣]، فالوسوسة بالشر مذمومة، لانها فعل أعداء الانبياء، ومسلك الشياطين، ولا يخفى ما فيها من الايذاء والاعتداء.

٤ – الاشارة السريعة على سبيل الرمز والايحاء، كقوله تعالى في حق زكريا عليه السلام: {فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا}[٤]، فسمى الاشارة وحياً، ولا يجوز أن يكون المراد به هنا الكلام، لان الكلام كان ممتنعاً آنذاك على زكريا عليه السلام، يدل على ذلك قوله تعالى: {قال رب اجعل لي آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً}[٥].

٥ – القاء الأوامر الالهية الى الملائكة، كايحاء الله سبحانه وتعالى الى الملائكة أن يثبتوا المؤمنين في بدر: قال تعالى: {إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان}[٦].

---

[٢] الجامع لاحكام القران للقرطبي ١٤/٢٧.
[٣] الانعام ١١٢.
[٤] مريم ١١.
[٥] مريم ١٠.
[٦] الانفال ١٢.

الوحي اصطلاحاً:

عرّف العلماء الوحي بتعريفات كثيرة، من أشهرها:

١ – ما يوحي الله به الى نبي من الانبياء، فيثبته في قلبه، فيتكلم به ويكتبه، وهو كلام الله، ومنه مالا يتكلم به، ولا يكتبه لأحد، ولا يأمر بكتابته، ولكنه يحدث به الناس حديثاً، ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم أياه، وهذا تعريف الزهري[1].

٢ – عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول صوت يتمثل لسمعه، أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الالهام، بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يُطلب من غير شعور منها، من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور، وهذا تعريف الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد، وهو تعريف للوحي بالمعنى المصدري[2].

٣ – أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما اراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، لكن بطريقة سرية خفية غير معتاده للبشر[3].

٤ – كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه[4]، وهو تعريف للوحي بمعنى اسم المفعول، أي الموحى.

والمتأمل في التعريفات السابقة يجدها مختلفة بحسب اعتبارات العلماء، فمنهم من عرف الوحي باعتبار اسم المفعول، ومنهم من عرفه باعتبار المعنى المصدري، وغير ذلك، فلا مانع من جمع هذه المعاني في تعريف واحد مختصر ليكون:

((إعلام الله تعالى نبياً من الانبياء أمراً بكيفية من الكيفيات))

---

[1] نقل هذا التعريف السيوطي عن الزهري فقال: أخرج ابن أبي حاتم من طريق عقل عن الزهري سئل عن الوحي فقال: الوحي: ما يوحي الله.. الخ "انظر الاتقان ١/٤٤.

[2] انظر كتاب الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا ٤٤-٤٥.

[3] مناهل العرفان للزرقاني ١/٦٤.

[4] مباحث في علوم القرآن للقطان ٣٣.

الفرق بين الالهام والكشف واللاشعور:

يشترك الوحي ظاهراً مع بعض مظاهر اللاشعور- أو الشعور الداخلي – كالكشف والالهام، من جهة أنها جميعاً اعلام خفي سريع، فيظن لأول وهلة أنها شيء واحد، لكن الحق الأبلج يأبى الخلط بين الاشياء بمجرد النظرة الأولى، ويتطلب البحث والتمحيص بجليل النظر ودقيقه، وبه يظهر البون الشاسع والفرق الواسع بينها وبين الوحي، وذلك من وجوه، أهمها:

أولاً : الكشف والالهام موغلان في الابهام، اذ هما من قبيل الوجدان الذي تنساق اليه النفس من غير شعور بالمصدر الحقيقي، اما الوحي فيجعل الموحى اليه على يقين أنه يتلقي عن الله سبحانه وتعالى وهذا اليقين هو السبب الكامن وراء حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الوحي، وخشية ضياع شيء منه ابان نزوله، اذ كان عليه الصلاة والسلام يحرك لسانه وشفتيه بما ينزل عليه طلباً لحفظه وخشية فقدانه ونسيانه، وكان يعلم أنه أمام تعليم يفاجئه، ويذهب سريعاً، فنهاه الله سبحانه وتعالى عن ذلك قائلاً: {ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علماً}[١]، ولو كان كشفاً أو الهاماً لما حرص عليه هذا الحرص لأنه حينئذ يملك زمام الامر، فيترك ما شاء، ويمحص كما يريد، ومن هنا يقترن الوحي بمصدره في القرآن الكريم كأوحينا، وأوحيت، نوحيها وهكذا.

ثانياً : الكشف والالهام كغيرهما من حاشية اللاشعور مكتسبان برياضة روحية، ولها أساليب تعليمية يعرفها أربابها، ويُرتقى في أسباب تعلمها وتعليمها، بينما الوحي منحة من الله سبحانه وتعالى غير مكتسب برياضة ولا بجهد، فالنبي قبل الوحي لا يعلم من الوحي شيئاً، قال تعالى: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين}[٢].

---

[١] طه ١٤٤.

[٢] يوسف ٣.

ثالثاً : الموحى اليه ابان الوحي في حال وعي كامل، ويؤيد هذا أنه كان يأتي جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم متمثلاً بهيئة بشر، وفي الحالات الأخرى لم يفصم الوحي عن النبي الموحى اليه الا وقد وعى ما أوحي اليه، أما اللاشعور واللاوعي فهما أبعد ما يكون عن الوعي والشعور.

رابعاً : الأخبار عن الوحي قطعية الورود، فالنبوات ثابتة ثبوت البشرية قال سبحانه وتعالى: {وإن من أمة الا خلا فيها نذير}[٣]، اما حاشية اللاشعور فهي غامضة، ولا خبر ينبيء عن كنهها وحقيقتها.

---

[٣] فاطر ٢٤.

كيفيات الوحي وصوره:

للوحي صور متعددة، حددتها الآية الكريمة من سورة الشورى، قال تعالى: {وما كان البشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم}[٤]، فالوحي قسمان هما:

١ – وحي بلا واسطة، وهو نوعان:

النوع الاول : الرؤيا الصالحة في المنام، ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للانبياء في المنام وحي يجب اتباعه ماجاء في قصة ابراهيم من رؤيا ذبحه لولده، قال تعالى: {فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين}[١]، ولو لم تكن رؤيا الانبياء وحياً يجب اتباعه لما أقدم ابراهيم عليه السلام على ذبح ولده، الذي منّ الله عليه بالفداء.

وقد أوحى الله سبحانه وتعالى الى سيدنا محمد بالرؤيا الصالحة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (أول ما بدى به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح)[٢].

النوع الثاني: الكلام الالهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة، كأن يسمع النبي كلام الله من غير أن يدرك مصدر هذا الكلام وذلك مثل تكليم الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى: {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني

---

[٤] الشورى ٥١.

[١] الصافات ١٠١ – ١٠٥.

[٢] متفق عليه أنظر اللؤلؤ والمرجان ١/٣٢.

انظر اليك}[٣]، ومثله أيضاً تكليم الله سبحانه وتعالى لرسولنا صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء والمعراج.

٢ – **وحي بواسطة الملك جبريل عليه السلام:** وهو أكثر ألوان الوحي وقوعاً وهو المشار اليه بقوله تعالى: {أويرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء} ولا يخلو وحي الملك الى الرسول من احدى حالتين:

الاولى : أن يأتيه مثل صلصة الجرس.

الثانية : أن يتمثل له الملك رجلاً.

وقد وردت هاتان الحالتان في الحديث الصحيح، اذ روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيُفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً)[١].

والذي يظهر أن مجيء الملك على هيئة بشر كان أهون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من حضر من الصحابة الكرام يراه على هيئة الرجل، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه الى

---

[٣] الاعراف ١٤٣.

[١] رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي رقم ٢ باب كيف كان الوحي الى النبي صلى الله عليه وسلم رقم ٢١ ومعنى يفصم ينكشف وينجلي.

ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الاسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا، قال: صدقت.. ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[٢].

أما الحالة الأشد التي كانت تأتي رسول الله فهي التي تشبه صلصلة الجرس، ومعنى الصلصلة: الصوت المتدارك المتعاقب الناتج عن صوت خفق أجنحة الملك[٣].

ان هذه الظاهرة العجيبة التي كانت تبدو على وجه النبي صلى الله عليه وسلم الكريم في كل مرة حين ينزل عليه القرآن لا تخفى على أحد ممن ينظر اليه، فكانوا يرونه قد احمر وجهه فجأة واخذته البرحاء[٤] حتى يتفصد عرقاً وثقل جسمه حتى يكاد يرضّ فخذه فخذ الجالس الى جانبه[٥] حتى ولو كان راكباً لبركت به راحلته، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل.. ثم لا يلبث أن تُسرّى عنه تلك الشدة، فاذا هو يتلو قرآنا جديداً وذكراً محدثاً[١] وصدق الله العظيم حين خاطب نبيه في سورة المزمل وهي من أوائل ما نزل عليه من القرآن – بقوله: {انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً}[٢].

لقد نزل الوحي بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكيفيات عدا المنام، فإن نزول القرآن لم يكن الا يقظة، وما ورد في صحيح الامام مسلم – رحمه الله – أن سورة الكوثر نزلت مناماً فمؤول، اذروى الامام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال:

---

[٢] رواه مسلم في صحيحه كتاب الايمان.

[٣] الاتقان في علوم القرآن ١/٤٥.

[٤] البرحاء: الشدة، يقال: برّح به الضرب تبريحاً، اشتد وعظم. انظر المصباح المنير ٤٢.

[٥] جاء الوحي الى النبي صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها: زاد المعاد ابن القيم ١/٢٥.

[١] النبأ العظيم دراز ص ٧٠.

[٢] المزمل ٤.

(بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا اذ أغفى أغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله! قال: أنزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ: {بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر} ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، وحوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج – أي يقتطع وينتزع – العبد منهم، فأقول: رب! إنه من أمتي فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك)[٣]، وهذا غير صريح في نزول السورة مناماً، فلعل الاغفاءة هي الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي، قال السيوطي: قال الامام الرافعي في أماليه: فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الاغفاءة وقالوا: من الوحي ما كان يأتيه في النوم، لأن رؤيا الأنبياء وحي، قال: وهذا صحيح لكن الأشبه أن يقال: إن القرآن كله نزل في اليقظة، وكأنه خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة في اليقظة، أو عرض عليه الكوثر الذي وردت فيه السورة فقرأها عليهم، وفسرها لهم، قال: وورد في بعض الروايات أنه أغمي عليه، وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي، ويقال لها: برحاء الوحي انتهى، قلت[٤]، الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، وهو الذي كنت أميل اليه قبل الوقوف عليه، والتأويل الأخير أصح من الأول، لأن قوله أنزل علي آنفاً يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نقول: نزلت تلك الحالة ليس الاغفاء اغفاء نوم بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي، فقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا[٥].

ومن حالات الوحي المختصه بالنبي صلى الله عليه وسلم النفث في الروع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن

---

[٣] صحيح مسلم كتاب الصلاة حديث رقم ٤٠٩٠.
[٤] تابع لكلام السيوطي فالقول قوله.
[٥] انتهى كلام السيوطي، انظر الاتقان ١/٢٣.

تطلبوه بمعصية الله فان ما عند الله لا يُنال الا بطاعته)[1]، وهذه الحالة لا يتراءى فيها الملك للنبي صلى الله عليه وسلم.

ومنها أيضاً أن يأتيه الملك في صورته الحقيقية قال تعالى: {ولقد رآه نزله أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى}[2].

أدلة الوحي والرد على منكريه:

تآزرت الأدلة الشرعية والعلمية والعقلية على تأييد الوحي وصدقه، فمن لايؤمن بالشرع من اعداء الوحي ومنكريه يمكنه – لوأراد – أن يصل بالادلة العلمية والعقلية الى صدق هذه الظاهرة ووقوعها، ومن اكتفى بأدلة الشرع عن أدلة العقل والعلم ازداد بهما يقيناً وأضاف بهما اطمئناناً لقلبه، وازال ما قد تغرسه شبهات المشككين من شك وتوهم.

ومن هنا لا أرى حاجة لانكار أدلة العقل والعلم، بحجة أن الوحي من الامور الغيبية التي لا يقع عليها الحس، لأن تآزر الأدلة يمنح القضية المطروحة للنقاش وضوحاً وصدقاً، واليك تفصيل الأدلة.

١ – **أدلة الشرع:** الوحي هو سبيل عالم الشهادة الى عالم الغيب، وهو مصدر المعرفة الانسانية عن عالم الغيب، في حين أن مصدر المعرفة الانسانية عن عالم الشهادة هو العقل والحواس، فأعجب لمن ينكر عالم الغيب بحجة عدم دخوله تحت سلطان الحس والمشاهدة.

من هنا ندرك أن الايمان بالوحي لا ينفصل بحال عن الايمان بالغيب، ذلك الايمان الذي يقتضي التسليم بما أخبرنا به الشرع من أدلة عقلية، وقد أخبرنا الشرع في مواطن كثيرة من القرآن بصحة هذه الظاهرة – ظاهرة الوحي – وصدق النبي

---

[1] رواه البغوي في شرح السنة ١٤/٣٠٤ – والحاكم في المستدرك ٤/٢.
[2] النجم ١٣ – ١٥.

المبلغ، قال تعالى: {انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده}[٣] وقال تعالى: {وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا}[٤]، وقال سبحانه وتعالى: {وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى}[٥] وآيات أخر تدل على نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى غيره من الانبياء والمرسلين فليس عجباً في نزول الوحي، بل العجب من عاقل ينكر نزوله قال تعالى: {أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين}[١]، ولا ينسى في هذا المجال أن الوحي قد شاهده معاصروه، ونقل بالتواتر المستوفي لشروطه بما يفيد العلم القطعي الى الاجيال القادمة.

٢ – الدليل العلمي على إمكانية الوحي:

ظهر في الآونة الاخيرة جملة من المعارف العلمية التي انتجها دستور البحث في الوجود والكائنات، الأحياء منها والجمادات، وأصحاب هذه المعارف لايؤمنون الا بالحسيات فأنكروا ما وراء الطبيعة ولم يؤمنوا بالسمعيات واستخفوا بالنبوات، فسجنوا أنفسهم في سجن المادة، ومكثوا حيناً من الدهر ينكرون ما وراءها، الا أن العلم نفسه صدمهم صدمة عنيفة، غيّرت ما كان استقر في عقولهم، اذ ظهر على ساحة الوجود ما هو قريب من ظاهرة الوحي، بعيد عن الحسيات، متعلق بالارواح، ومن هذه الأدلة[٢]:

أ – **التنويم المغناطيسي** – الذي كشفه الدكتور الالماني (مسمر) في القرن الثامن عشر، ونجح في اثباته على مدى قرن من الزمان، وحمل العلماء على الاعتراف به، بعد أن أثبت بالواقع حقيقته ووقوعه.

---

[٣] النساء ١٦٣.
[٤] الشورى ٥٢.
[٥] النجم ٣-٤.
[١] يونس ٢.
[٢] انظر تفصيل هذه الأدلة في مناهل العرفان للزرقاني ١/٦٦.

لقد وافقت هذه الحقيقة العلمية الشرع الشريف في أن للانسان روحاً مستقلة عن الجسم المادي لا تنحل بانحلاله وانها تتصل بالارواح الأخرى اذا تجردت عن المادة.

فاذا كان هذا تأثير مخلوق في مثله بالعلم، الا يستطيع العليم الخبير سبحانه أن يؤثر في نفس ما من أنفس عباده بواسطة الوحي؟ والوحي شبيه به، اذ الوحي عبارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالاً يؤثر به الاول في الثاني ويتأثر فيه الثاني بالأول، وذلك باستعداد خاص في كليهما.

ب – تقدم صناعة الاتصالات التي بواسطتها يتكلم الانسان مع آخر في أي مكان في العالم المعروف بواسطة اسلاك وبغير وساطتها فاذا كان هذا في مقدور البشر، الذين لم يؤتوا من العلم الا قليلاً فكيف برب البشر العليم القدير! لا شك انه أقدر وعلمه أشمل وأوسع.

ت – اختراع الآت التسجيل الجامدة الجاهلة تلك الآلات التي استطاع الانسان ان يملأها بأصوات وانغام وكلام، على وجه يجعلها حاكية له بدقة واتقان، أبعد هذه المخترعات القائمة يستبعد على القادر تعالى أن يملأ نفوساً بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس ويجعل ذلك الكلام منقوشاً في قلبه؟!

هذه نماذج من اختراعات علمية تقرب الى الاذهان صدق ظاهرة الوحي، وهناك أدلة أخرى كتلك الحيوانات التي تأتي بعجائب الانظمة والاعمال دون تعليم او قدرة على التفكير، مما يجعلنا نؤمن أنها لم تصدر في ذلك الا عن ارادة علياء، توحي اليها وتلهمها تلك العجائب، واذا صح هذا في عالم الحيوانات الا يصح في عالم

الانسان؟ بل إن استعداده لذلك اشد وأقوى، وصدق الله العظيم: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}[١].

٣ – **دليل الواقع :** وهو دليل قوي، إذ لا أدل على امكانية حصول الشي من وقوعه، وقد شاهد الوحي الناس أجمعون، وعلموه علماً لا يخالطه شك، لأنه نقل بالتواتر المستوفي لشروطه بما يفيد العلم القطعي، قال سبحانه: {وان من أمة الا خلا فيها نذير}[٢].

٤ – **دليل العقل:**

إن خير شاهد على أحقية الوحي ووقوعه تلك المعجزات التي جاء بها الانبياء، فالمعجزة شاهد على صدق من أتى بها، وكل ما أخبر الصادق بوقوعه فهو حق ثابت، وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن ما أتى به من عند الله، فيكفي دليلاً على حقيقة الوحي اعجاز القرآن، فاذا انضاف هذا الدليل الى الأدلة السابقة بات الوحي يقينياً لا ريب فيه.

ولا يخفى أن الادلة على صدق هذه الظاهرة – ظاهرة الوحي – أكثر من أن تحصى الا أن بعض المؤلفين أنكر الاستدلال بالادلة العلمية والعقلية على صدق ظاهرة الوحي، قال الدكتور عدنان زرزور: (هل نقف أمام من صعب عليه تصور الوحي ولم يجد بداً من التصديق بالايحاء الذي يتم أمامه عن طريق التنويم المغناطيسي؟ وهل نحن بحاجة الى ضرب الامثلة والشواهد من عالم البشر المادي المحسوس على شرح حقيقة الوحي وبيان امكانية وقوعه، إن الأمر هنا ليجلّ عن هذا

---

[١] فصلت ٥٣.

[٢] فاطر ٢٤.

وذاك، والقرآن الذي نتلوه الآن شاهد صدق على مصدره، كما أن الأدلة على صدق هذه الظاهرة أكثر من أن تحصى)[١]انتهى.

وتبعه الدكتور محمد علي الحسن فقال: (ان الدليل على حقيقة الوحي شرعي لا عقلي، لأنه من الأمور الغيبية التي لا يقع عليها الحس والذين يدللون على الوحي بالأدلة العقلية – ولو بحسن نية – إنما هم واهمون ومخطئون، فان للعقل دائرته التي لا يتعداها، فهو يسلمنا الى حقيقة وجود الخالق ويرشدنا اليه. فاذا ما أسلمنا الى هذه الحقيقة فقد هدانا الى الايمان الذي من مقتضياته التسليم بما أخبرنا من أدلة قطعية فقد قال تعالى: {إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده}[٢] انتهى[٣].

أقول: إن تعاضد الأدلة العلمية والعقلية مع دليل الشرع على اثبات الوحي واضح جلي، كما أن الاستدلال بأحد الأدلة لا ينقص قدر البديل الآخر، بل به يزداد وضوحاً وجلاء، ولا أدل على ذلك من استعمال القرآن الكريم لهذا الاسلوب، فقد حث على التدبر والتفكر ورفع مقدار العلم والعلماء، وحط من شأن الجهل وعدم التبصر، بل لقد دلل الله سبحانه وتعالى بهذه الادلة لاثبات وجوده وقدرته سبحانه مع أنهما الأكثر وضوحاً ويقيناً.

ثم إن الاستدلال بدليل الشرع إن كان ينفع مع المؤمنين فلا ينفع مع الجاحدين الذين لا يؤمنون الا بالمادة المشاهدة، فاذ لم تصل به تلك الادلة الى الحقيقة فلا شك أنها تهدم في نفوسهم الالحاد شيئاً فشيئاً فكم كان للعلم والعقل الدور الفاعل في دخول كثير من العلماء في دين الاسلام؟ اذ لم يسعهم بعد اكتشافهم الحقائق العلمية الثابتة التي أخبر بها الاسلام قبلاً الا الانحناء والسجود لعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

---

(١) علوم القرآن مدخل الى تفسير القرآن وبيان اعجازه د. عدنان زرزور ص ٥٩.
(٢) النساء ١٦٣.
(٣) المنار في علوم القرآن. د. محمد علي الحسن ص ٢٣.

أما الذي ينبغي إنكاره ومحاربته فهو تطويع تفسير الحقائق الشرعية قسراً لتوافق نظريات علمية، اذ لا يتأتى للبعض اثبات الحقائق التي جاء بها الشرع الشريف الا اذا أثبتها العلم أو وافقها، فما مثل هؤلاء الا كالباحثين عن عربية بعض الالفاظ القرآنية في ثنايا الشعر، بأن يبقوا متحيرين مترددين حتى اذا وجدوا بيتاً من الشعر يؤيد عربية لفظ قرآني طاروا فرحاً، وعمهم السرور، وأخذتهم البهجة، رغم أن العربية تثبت بالقرآن لا العكس، كما لا يخفى على كل ذي لب.

أما منكرو الوحي فلا أدلّ على بطلان قولهم، وفساد رأيهم، من الأدلة التالية:

أولاً : الأدلة الشرعية والعلمية والعقلية سالفة الذكر، التي تثبت امكانية الوحي ووقوعه.

ثانياً : بطلان أقوالهم، ودحض شبهاتهم، اذ تعلقوا بارآء واهية، أنكروا من خلالها الوحي ذاته وأخذتهم عزتهم بالاثم فأنكروا أدلته الناصعة المتلألئة، واليك بعض الشّبه والرد عليها:

١ – أثاروا – عناداً – أن المعجزة التي هي دليل الوحي كالسحر: فادعوا ذلك في حق رسول الله موسى عليه السلام، قال تعالى: {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب}[١]، وقال تعالى: {وفي موسى إذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون}[٢]، وكذا قالوا في حق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم}[٣]، بل قالوا هذا في الرسالات كافة، فأنكر الله تعالى عليهم، فقال سبحانه:

---

[١] غافر ٢٣-٢٤.
[٢] الذاريات ٣٨ – ٣٩.
[٣] الزخرف ٣٠ – ٣١.

{أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين}[٤].

إن تفنيد هذه الشبهة سهل ميسور، ذلك أن المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد نبي تأييداً لنبوته، سالم عن المعارضة، مقرون بالتحدي، أما السحر فبعضه تخييل وخداع وخفة يد، ومنه ما هو حقيقة، وقد يكون خارقاً للعادة، فيوافق المعجزة من هذا الباب، الا أنه لا شك غير سالم عن المعارضة، ولا مقرون بالتحدي، إذ لم يسجل التاريخ أن ساحراً تحدى أمثاله أن يأتوا بمثل ما أتى، ثم إن السحر يصل الساحر اليه باتخاذ أسبابه وتعلم مبادئه ووسائله، ويتدرج في ذلك من التلمذة الى البراعة، وهكذا يتوارث السحرة هذه العلوم الخبيثة، بينما المعجزة منحة إلهية خارجة عن الأسباب والوسائل المعتادة المألوفة، ولا يوصل اليها بالتدرب والتعلم، فصاحبها مقتصر في الاتباع على ما يوحي اليه.

ولا أدل على مغايرة المعجزة للسحر من قصة سحرة فرعون الذين ما وسعهم لما رأوا الآيات الا الإيمان، وصور الله سبحانه وتعالى ذلك في القرآن فقال سبحانه: {وجاء السحرة فرعون قالوا إنا لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين}[١]، ولولا علمهم القاطع بافتراقهما لما صبروا على تعذيب فرعون بعدئذٍ، ولصرحوا جميعاً أنه لا فرق

---

[٤] يونس ٢.
[١] الاعراف ١١٣ – ١٢١.

وبلا منازع، لكن أهل الصناعة أدرى بصناعتهم، إذ سموا المعجزة آية فقالوا لفرعون: {وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين}[٢].

٢ – **يقولون :** إذا كانت المعجزة دليل الوحي فالمعجزة شأنها شأن كثير من المخترعات، وكل منهما يحوي الطرافة والعجب، فهل الاختراعات ضرب من الوحي؟

الجواب : تختلف المخترعات عن المعجزات من وجوه، منها:

أولاً : المخترعات متجددة متغيرة متطورة، كوسائط النقل، والحاسوب، والمرئيات، والمسموعات من الأجهزة الصماء بذاتها، الناقلة للصوت والصورة معاً، وغير ذلك مما يتجدد ويتطور من المخترعات، أما المعجزة فثابته لا يعتريها نقص ولا تطوير ولا تغيير.

ثانياً : يتوصل البشر الى المخترعات بالتماس أسبابها المعروفة لدى أربابها، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها بيسر وسهولة، أما الوحي فغير مكتسب كما أسلفت.

ثالثاً : المخترعات لا تقترن بالتحدي كالمعجزات، وهي منسوبة اليهم، ولا يدعي أربابها أنها من عند الله، كدأب الانبياء عليهم الصلاة والسلام ينسبون المعجزة الى الله تعالى.

إذن ليست المخترعات ضرباً من الوحي، ولا تنفع دليلاً عليه.

٣ – **يقولون**: يُعدُّ خرق العادة خروجاً عن النظام العام الذي تقتضيه الحكمة وتناط به المصلحة، فلا يصلح دليلاً على الوحي.

---

[٢] الاعراف ١٢٦.

التفنيد : إن المعجزة من مقتضيات النظام العام، الذي تمليه الحكمة، وتوحيه المصلحة، وإن كانت خارجة عن حدود الأنظمة المعتادة، لأنه لا أجلّ في باب الحكمة من تأييد الحق وأهله، ولا أعظم من اهتداء الخلق الى طريق سعادتهم، فالمعجزة هي السبيل الأمثل لتأييد الرسل، وثمرة تأييد الرسل تصب في المصلحة، بل هي أساس المصلحة، فهي من هذا الباب من أوجه الأدلة دلالة على الوحي الشريف الذي يحرص على مراعاة المصلحة في تشريعاته كافة.

٤ – **يقولون :** لو كان الوحي ممكناً لأوحى الله الى أفراد البشر عامة، ولم يخص به أفراداً قليلين يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه.

الجواب[١]**:** إن عامة البشر ليس لديهم استعداد لتلقي الوحي عن الله تعالى، لا مباشرة، ولا بواسطة الملك، حتى لو جاءهم ملك عجزوا عن رؤيته على هيئته على حقيقته، الا اذا ظهر في صورة إنسان، وعندئذ يعود اللبس ويبقى الإشكال، قال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون}[٢]، فقضت الحكمة الالهية أن يجعل من بني الانسان طائفة ممتازة لها استعداد خاص يؤهلها لأن تتلقى الوحي عن الله، ووضع في أيديهم الشواهد الناطقة، ثم إن من المُسلَّم به أنه إن لم يخص بالنبوة بعض الأفراد فهل يعقل أن تعم النبوة جميع الخلق؟ إن هذا من الامور التي لا تحتاج الى كثير من التفكير للرد والابطال والتفنيد.

---

[١] مناهل العرفان ١/٧٨.
[٢] الانعام ٨ – ٩.

نقض دعوى بشرية القرآن:

نزل القرآن الكريم على قلب النبي صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، وتحداهم فعجزوا عن الاتيان بمثله، فعرف أهل الحق أن هذه المعجزة لايتأتى لبشر مثلها، وقام أهل الباطل يلحدون، فنسبوا القرآن للبشر، ونشروا ذلك في أهل مكة وآزرهم وساندهم الجاهلون الحاقدون على يتيم أبي طالب، كيف يخصه ربه بالوحي دونهم؟ قال تعالى: {ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر}[1] ولكنهم عناداً وكبراً نسبوه لأعجمي رومي، فرد الله تعالى عليهم فقال سبحانه: {لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين}.

وتابع الماديون ما فعله الجاهليون من أهل مكة فادعوا أن القرآن من صنع البشر، وأنكروا ربانيته، وأثاروا حول النبي الموحى اليه عاصفة من الشُبه هباءً واهية، فادعوا حيناً أن القرآن مكتسب من ذات النبي وتأملاته، وحيناً آخر قالوا هو من تعليم بشر آخرين، وهو على كلا الحالين باطل، إذ الإدعاء فيه صريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم نسب لله ماليس منه، وهذه الشهادة منهم كافية لاثبات بطلان دعوى بشرية القرآن لو لاقت آذاناً صاغية واعية، إذ أي مصلحة للنبي أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن؟ ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه.

فإن اعترضوا وقالوا: إنما نسب القرآن الى الوحي الالهي لتعينه تلك النسبة على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ونفاذ أمره فيهم وليستمد قدسيته من هذه النسبة أجيبوا[2] بأن ذلك باطل من وجوه:

---

[1] النحل ١٠٣.

[2] انظر تحقيق ذلك في النبأ العظيم ٢٢.

الوجه الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم نسب الى نفسه كلاماً وآخر نسبه الى ربه، ولم تكن نسبة ما نسبه الى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئاً، ولا نسبة ما نسبه الى ربه بزائدة فيها شيئاً، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، وكانت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله واتباعه صلى الله عليه وسلم من حب الله تعالى وموصل اليه، قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم}[1]، وقرن طاعة رسوله بطاعته فقال تعالى: {قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين}[2].

والوجه الثاني : أن الواقع التاريخي والسيرة العطرة للنبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعدها يثبتان الصدق والامانة للنبي صلى الله عليه وسلم، ومن تتبع السيرة الزكية في حركاته وسكناته، في خلوته وجلوته يتأكد لديه صدق ما قرره التاريخ وسطره الواقع من أن الصدق من أخص شمائله وأظهر صفاته، ومن كان هذا حاله فحري به أن لا يكذب على الله، وقد أبت نفسه الزكية أن تكذب على خلق الله، قال تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع الا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون}[3]، لقد غاب عنهم أنهم يتحدثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طهراً ونبلاً، والعقل المنصف يقول: ما كان هذا الأمين الصادق ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله.

---

(1) آل عمران ٣١.
(2) آل عمران ٣٢.
(3) يونس ١٥ ـ ١٧.

الوجه الثالث: أن التفريق بين كلام الله وكلام النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر بأدنى تأمل، ويقرره الفرق بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق، ولو كان في الأمر اشتباه لكان أسبق الناس الى هذا الادعاء اولئك العرب الخلص، وقد بلغ بهم الحرص على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً، وتحداهم القرآن من الناحية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام، التي وقفوا عليها مواهبهم، وأنفقوا فيها حياتهم حتى صارت موضع تنافسهم وفخرهم.

الوجه الرابع: إن هذا الادعاء وليد الغفلة عن مضامين القرآن العلمية، وأنبائه الغيبية، وهداياته الخارقة للعادات البشرية، سيما أن الآتي بهذا القرآن أمي في أمة أمية كانت في أظلم عهود الجاهلية[١]، وصدق الله العظيم: {ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شي وهدى ورحمة لقوم يؤمنون}[٢]، وزيادة في اطمئنان القلب آثرت دحض تلك الافتراضات التي تعلقوا بها، فافترضت افتراضين لا يخلو عنهما القول ببشرية القرآن، وهما:

الافتراض الأول : أن يكون القرآن مكتسباً من نفس النبي، ناتجاً عن تأملاته الشخصية، وهو ما يسمونه بالوحي النفسي.

الافتراض الثاني: أن يكون القرآن مكتسباً من البشر، تعلّمه ثم ادعى أنه وحي من السماء.

وبطلانهما سهل ميسور باذن الله تبارك وتعالى، أما الوحي النفسي المزعوم فيدور ضمن اتجاهين متعاكسين كلاهما باطل:

---

[١] مناهل العرفان ١/٨٤.

[٢] سورة يوسف ١١١.

الاتجاه الأول : هو قول الملحدين الماديين: إن منبع الوحي نفس النبي، وليس من عالم الغيب، ذلك أن منازع نفس النبي العالية، وسريرته الطاهرة، وما رافق ذلك من ذكائه الفطري، ونفاذ بصيرته، وقوة فراسته، وشدة فطنته، وصفاء نفسه، وصدق تأمله وقوة ايمانه بالله وبوجوب عبادته، وترك الوثنية، كل ذلك أسباب أدت الى الوحي النفسي فانجلى في ذهنه، وحدث في عقله الباطن الرؤى والاحوال الروحية، فتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً الهياً نازلاً من السماء، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك، أو يراه مناماً، فيدرك مقاييس الخير والشر والحق والباطل بالالهام، ويتعرف على خفايا الأمور بالكشف، فلا يخلو أن يكون القرآن أثراً للاستنباط العقلي والادراك الوجداني عبر عنه النبي باسلوبه وبيانه[٣].

والحاصل عندهم أن الوحي النفسي هو الالهام الفائض من استعداد النفس العالية، فالخلاف بيننا وبينهم في كون الوحي من داخل نفس النبي كما يظنون، أو نازلاً عليه من السماء كما نعتقد نحن وأخبر به الله تعالى في القرآن، كقوله تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين}[٤].

والجواب يتمثل في النقاط التالية:

١ – أشتهر الانبياء عليهم السلام قبل الرسالة وبعدها بصفاء السريرة، ونقاء القلب، وهو حال بعض البشر غير الانبياء، فهل يلزم من تلك الصفات الفاضلة أن تكون ثمرتها ونتيجتها تلك الرؤى والتخيلات!! ومتى استطاع التخيّل أن يصل الى ما وصل اليه الوحي في مجال التشريع.

---

[٣] انظر تحقيق هذه الشبهة في الوحي المحمدي ٤٥ والنبأ العظيم ٣٦، ومناهل العرفان ١/٧٧.

[٤] الشعراء ١٩٢ – ١٩٥.

٢ – إن مقولتهم تستلزم أن يكون الوحي خيالاً لا حقيقة، وهذا مخالف للواقع والحقيقة، فان الملك الذي يأتي النبي محمداً صلى الله عليه وسلم كان يتمثل أحياناً بهيئة البشر فيراه الناس، ويسمعون كلامه، وقد تواتر ذلك بالنقل الصحيح المشهور.

٣ – إن التمتع بالصفات الفاضلة سبيل للتصديق لا للتكذيب، إذ كيف يصدق مع الناس ويكذب على ربه؟ ومتى كانت قمة الخير شراً؟ وهل هناك ميزان نزن به الاعمال النافعة لنعلم إن كانت وصلت الى الدرجة التي يجب معها أن نصدق صاحبها.

٤ – إن القرآن الكريم من الكتب السماوية يحوي الكثير من الحقائق التي تنفي هذه الشبهة وتفندها، اذ لا يمكن الوصول اليها بالعقل المجرد ولو تمتع صاحبه بالفضائل ونقاء السريرة، ومن هذه الحقائق:

أ – **الجانب الاخباري :** إذ حوى القرآن الكريم الكثير من الاخبار التاريخية التي لا يمكن الوصول اليها بالعقل ولا يمكن أن تكون أثراً للاستنباط، كأخبار القرآن عن القرون السابقة على عصر سيدنا محمد صلى الله وسلم قال تعالى: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين}[١].

ب – **الأرقام الدقيقة :** فقد ذكر القرآن الكريم أرقاماً لا يمكن للعقل البشري أن يستنبطها، ففي قصة نوح عليه السلام: {ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون}[٢]، وفي قصة اصحاب الكهف: {ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً}[١]. فمن أين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدقائق لولا الوحي.

---

[١] يوسف ٣.
[٢] العنكبوت ١٤.
[١] الكهف ٢٥.

ت – **الجانب العقدي :** تناول القرآن أموراً تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته والحياة الآخرة والملائكة وأوصافهم وغير ذلك.

أما الاتجاه الثاني المعاكس فهو ادعاؤهم أن سلوك النبي محمد صلى الله عليه وسلم يدل على أنه مصاب بأمراض نفسية فيقولون:

إن محمداً كان عصبياً حاد المزاج، وكان مريضاً بما يسمونه الهستيريا، والوحي ما هو الا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها، ولعل ذلك ناتج عن موت أبنائه وما أثاره في نفسه.

الجواب : إن حال النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة معروف ومشهور، فهو الصبور الحليم، الصادق الأمين، وبعد الرسالة ازداد فضلاً ورفعة، فوسع الناس جميعاً بخلقه، وكان شجاعاً مقداماً صحيح البدن، سليم الجسم، يثبت في الميدان حين يفر الشجعان، وموضع تلك الصفات كتب السيرة والشمائل.

وأما مرض الهستيريا الذي يصفون به النبي صلى الله عليه وسلم كذباً فهو داء عصبي عضال، أكثر إصاباته في النساء، ومن أعراضه شذوذ في الخُلق، وضيق في التنفس، واضطراب في الهضم، وقد يصل بصاحبه الى شلل موضعي، ثم الى تشنج، ثم الى اغماء، ثم الى هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين وقفز من مكان الى مكان، وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحاً تهدده، وأعداء تحاربه على حين أنه لا وجود لشي من ذلك كله في الحس والواقع، فهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم[٢]، وهل يوافق حال النبي صلى الله عليه وسلم ثم متى كانت هذه الاضطرابات النفسية سبباً للوحي؟ وهل الذين يصابون بها ينتجون ديناً يصلح لكل زمان ومكان، ويتحدون البشر الاتيان بمثل ما اتوا كما تحدى القرآن؟!!

---

[٢] مناهل العرفان ١/٨١.

هذه أشهر الحقائق التي تنفي أن يكون القرآن أثراً للاستنباط العقلي أو الوحي النفسي كما يسمونه.

ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ممن تستخفه الآمال فيجري مع الخيال، ويدعي الوحي ادعاء، إنه لم يكن قبل النبوة طامعاً أن يكون نبياً يوحى اليه قال تعالى: {وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك}[1]، ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظاً لديه، قال تعالى: {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً الا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً}[2].

الافتراض الثاني : أن يكون القرآن مكتسباً من البشر، بأن تلقى النبي صلى الله عليه وسلم العلوم القرآنية على يد معلم من الناس، وقد تعلق بهذا بعض الملاحدة، اذ لما سقط في أيديهم، ووجدوا أن لا قبل لهم قالوا تعلمه على يد معلم. قال تعالى: {وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض إنه كان غفوراً رحيما}[3]، ومعنى اكتتبها "أنه طلب من غيره أن يكتبها له فمن الذي علّمه القرآن إن كان معلمه منهم؟ إنه لا يستدل على بطلان هذا بأكثر من الأمية التي تفشت في ذلك المجتمع، وكذا اسم الجاهلية الذي كان أخص الالقاب بعصر العرب قبل الاسلام فهل هؤلاء يملكون قدرة على تعليم متقدم يثمر كتاباً كالقرآن الكريم ما زال العلماء يسجدون لعظمته ويلهجون ببلاغته وتدبر آياته، وان كان المعلم من غيرهم فلنسأل التاريخ عن ذلك المعلم المزعوم الذي اختلفوا فيه على النحو الآتي:

---

[1] القصص ٨٦.
[2] الاسراء ٨٦ – ٨٧.
[3] الفرقان ٥ – ٦.

١ – **قالوا :** إن محمداً لقي بحيرا الراهب في مدينة بصرى الشام وقالوا: إنه كان نسطورياً من اتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث، وإن محمداً لابد أن يكون علم منه عقيدته، وقالوا في بحيرا أيضاً: إنه كان عالماً فلكياً منجماً وحاسباً ساحراً وإنه كان يعتقد أن الله ظهر له، وأنبأه بان سيكون هادياً لآل اسماعيل الى الدين المسيحي[٤].

ونقض هذه الشبهة من وجوه، هي:

أ – أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج الى الشام مع عمه ابي طالب كان عمره تسع سنين وقيل أكثر من ذلك بقليل، فسنه لا يؤهله لذلك، وهل سمع أبو طالب شيئاً وسكت عنه؟

ب – لا يوجد مستند تاريخي صحيح لالتقاء النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بذلك الراهب والاستماع اليه عن شي يتعلق بالدين.

ت – اذا كان ذلك الراهب قد وصل الى مثل هذا العلم المعجز للبشر فلماذا لم يحتفظ به لنفسه ويكون بعدها أعظم العباقرة وأستاذ الأساتذة.

ث - أن الروايات التي تثبت التقاءه به تثبت أنه كان بصحبة عمه ابي طالب فليس الأمر سراً، فكيف سكت ابو طالب والمرافقون أيضاً على مثل هذا الأمر الخطير.

ج – أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً، ومنشغلاً بالتجارة، وفترة التقائه بذلك الراهب قصيرة، لا تسع مثل ذلك التعليم.

ح – من أين للراهب بحيرا الكشف عن أمور مستقبلية لم تعرف بعد، جاء بها الوحي، وتحدى بها البشر؟

---

[٤] انظر تفصيل هذه الشبهة في كتاب الوحي المحمدي محمد رشيد رضا ٩٥.

إن الراهب لما رأى الغلام ورأى فيه من سيما النبوة قال: سيكون لهذا الغلام شأن عظيم.

٢ – وزعم بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن عن ورقة بن نوفل، وكان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية، وأحد أقارب خديجة رضي الله عنها.

وهذا افتراء لا يقل سخفاً عن سابقه، ومجمل القضية أن ورقة بن نوفل كان عند بدء الوحي شيخاً قد عمي، وأن خديجة أخذت النبي صلى الله عليه وسلم عقب إخباره إياها بما رآه في حراء الى ورقة هذا، وأخبرته خبره، وما أن استمع ورقه حتى تحقق أنه النبي الموعود، وأنه رسول الله الخاتم ففي صحيح البخاري أن خديجة رضي الله عنها لما رأت حال النبي بعد بدء الوحي " انطلقت به حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءاً تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً قد عمي فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن اخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً اذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أومخرجي هم؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عُودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب ورقة أن توفي[1] ولم يلبث بعد ذلك أن توفي، ولم ينقل أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه قبل ذلك.

ولو كان هذا عند ورقة فلماذا لم ينسبه لنفسه وهو في ريعان شبابه، وهل لقيه النبي صلى الله عليه وسلم غير تلك المرة؟ ولمَ لم تذكر خديجة رضي الله عنها شيئاً من التعليم المزعوم.

[1] انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي باب كيف كان الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣ – وادعى بعض آخر من الملحدين أن الذي تولى تعليمه حداد رومي كان بمكة، وقد ردّ الله سبحانه وتعالى عليهم فقال سبحانه: {ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين}[٢]، فأول الردود أنه أعجمي لا عربي، وأما ثانيها فكيف يستساغ عقلاً أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه مكة عالماً متفرغاً لدراسة الكتب بل عرفته حداداً منهمكاً في مطرقته وسندانه[٣]؟!

والثالث : أنه كان عامي الفؤاد، لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة الى العرب، فمن أين له أن يكون مصدراً لهذا القرآن الذي أعجز فصحاء العرب وبلغاءهم؟

لقد كان العرب أحرص الناس على دفع هذا القرآن إمعاناً في خصومة محمد صلى الله عليه وسلم وباءت كل محاولاتهم بالفشل، فما للملحدين اليوم وقد مضى أكثر من ثلاثة عشر قرناً على ذلك – يبحثون في قمامات التاريخ ملتمسين سبيلاً من تلك السبل الفاشلة.

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر انساني لا في نفس صاحبه ولا عند أحد من البشر فهو تنزيل الحكيم الحميد.

---

[٢] النحل ١٠٣.

[٣] مباحث في علوم القرآن للقطان ٤٨.

العلاقة بين القرآن الكريم والكتب السماوية:

حري بنا قبل الحديث عن العلاقة بين القرآن الكريم وما سبقه من كتب السماء أن نفند الشبهة التي ألصقها الملحدون بالقرآن، إذ ادعوا أن القرآن مكتسب من اليهود والنصارى، وهذه الشبهة باطلة ظاهرة البطلان، اذ النصارى واليهود الذين كانوا يعيشون في المجتمع المكي هم الذين اضطرتهم ظروف الحياة للعمل بحرفة أتقنوها او أرض ملكوها، وهؤلاء لا يعقل أن يكونوا مصدراً للقرآن الذي أعجز العرب وأدهشهم وهم في الغالب لا يحسنون النطق بالعربية. على أن اشتهار عالم بكتب اليهودية أو النصرانية في مكة آنذاك أمر معدوم، الا ماورد عن تنصر ورقة بن نوفل في آخر عمره، وقد سبق آنفاً تفنيد أن يكون معلماً للنبي صلى الله عليه وسلم.

أما أهل الكتابين ممن كان يعيش خارج مكة فلم يلتقهم النبي صلى الله عليه وسلم الا من خلال رحلاته التجارية، وهؤلاء يستحيل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ عنهم شيئاً، إذ كتبهم لم تترجم الى العربية بعد قرون من بعثة النبي عليه السلام، بالاضافة الى أن القرآن يختلف في كثير من مسائله وقضاياه ومقرراته وأحكامه وتصوراته عن كافة الكتب السماوية الا ما كان من جوانب مشتركة بين رسائل السماء.

فاذا انتفي أن تكون الكتب السماوية السابقة مصدراً للقرآن فاعلم أن العلاقة بين الكتب السماوية والقرآن تتمثل في جوانب كثيرة، أهمها:

١ – أنه مصدق لما بين يديه من الكتب، قال تعالى: {والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير}[1]، أي: موافق لما تقدمه من

---

[1] فاطر ٣١.

الكتب في مجال الهداية وتقرير العقيدة السلمية، ولهذا حثّ الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب على الايمان بالقرآن فقال سبحانه وتعالى: {يا أيها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم}[٢]، ولعل معنى التصديق هنا هو ما ورد في قوله تعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل}[٣] فتصديق القرآن لها باثبات أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم التي وردت فيها.

٢ – أنه مهيمن على ما سبقه من الكتب السماوية، قال تعالى: {وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه}[٤]، وأما معنى هيمنة القرآن على ما سبقه فأمور كثيرة، أهمها:

أ – أنه شاهد بصحة الكتب المنزلة بالجملة.

ب – أنه حافظ لما فيها من أصول الشرائع.

ت – أنه المرجع لمعرفة المحكم منها والمنسوخ.

ث – أنه مشتمل على ما هو معمول به منها وما هو متروك.

ج – أنه جامع لمحاسن ما قبله من الكتب وزائد عليها في بعض الكمالات التي ليست فيها.

ح – أنه رقيب عليها من التحريف والتبديل وذلك لأن القرآن مؤبد بخلاف الكتب السماوية السابقة المؤقته.

قال ابو السعود في تفسير قوله تعالى "ومهيمناً عليه": (أي: رقيباً على سائر الكتب المحفوظة من التغيير، لأنه يشهد لها بالصحة والثبات، ويقرر أصول شرائعها،

---

[٢] النساء ٤٧.
[٣] الاعراف ١٥٧.
[٤] المائدة ٤٨.

وما يتأبد من فروعها، ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها)[1].

ولا يخفى أن أوجه الاتفاق بين القرآن والكتب السماوية الأخرى كثيرة، منها:

١ – أنها كتب سماوية، وهي وحي الهي ليست من صنع البشر.

٢ – أنها كتب هداية تناسب أزمنة الأنبياء الذين نزلت عليهم تلك الكتب.

٣ – أنها تناسب أهل زمان كل كتاب منها وتعالج معضلاتهم وتحل اشكالاتهم.

٤ – أن العلاقة بينهن وبين القرآن علاقة الجزء بالكل الشامل والمنسوخ بالناسخ، والمتروك بالمعمول به.

والخلاصة أن العلاقة بين القرآن والكتب السماوية السابقة تقوم على العديد من الأسس، ولهذه العلاقة جدواها من الناحيتين الدينية والعلمية، فبها يتضح أن الدين عند الله تعالى واحد هو الاسلام، وأن أصول الشرائع والاداب واحدة، ولذلك جاءت الكتب السماوية متوافقة في هذا المجال، وأن التشريعات توافق أهل زمن نزولها، وبتعاقبها يتم معرفة الناسخ والمنسوخ، ويصدق بعضها بعضاً على مر الأيام والسنين.

[1] تفسير أبي السعود (ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم) ٣/٤٥.

علوم القرآن الكريم
مفهومها ونشأتها وتطورها وموضوعاتها

تضمن القرآن الكريم فيضاً زاخراً من الحقائق والقصص والتشريعات والاخلاق، مما حدا بعلماء الاسلام أن يبذلوا وسعهم في البحث عن علومه وفنونه، فمن باحث عن تفسير الفاظه، وآخر عن اعجازه، وثالث عن قصصه وأخباره، وهكذا تتابعت سلسلة البحث عن كل ما يعين على فهم معانيه ومقاصده وكيفية أدائه وتلاوته، وكانت هذه البحوث على درجة عالية من الفهم والادراك والاحاطة، حتى شرط لمن أقدم على تفسير كتاب الله أن يتصف بالالمام بهذه العلوم التي تسمى علوم القرآن الكريم.

مفهوم علوم القرآن:

لا يخفى أن هذا الاسم مركب إضافي، وينبغي لمن اراد الوقوف على مفهومه أن يقف على معنى جزأي هذا المركب الإضافي، وكنا قد عرفنا معنى القرآن الكريم، ووقفنا على اسمائه واختلاف العلماء في تعريفه، وبقي أن نعرف هنا معنى العلم في اللغة والاصطلاح.

أما في اللغة فمعناه المعرفة، تقول: علمت الشيء أعلمه علماً، أي: عرفته[١]، فهو مصدر يرادف الفهم، كما يرادف الجزم[٢].

وأما في الاصطلاح فقد تداولت هذا اللفظ اصطلاحات مختلفة، وذلك بحسب مذاهب المصطلحين، فجاءت تعريفاتهم على النحو الآتي:-

عند الحكماء: صورة الشيء الحاصلة في العقل.

وعند المتكلمين: صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به أو: صفة توجب لمحلها تمييزاً لا يحتمل النقيض.

---

[١] الصحاح للجوهري ٥/١٩٩٠.

[٢] مناهل العرفان ١/١٢.

وعند علماء الشرع: معرفة الله تعالى وآياته وأفعاله في عباده وخلقه، قال الامام الغزالي في الاحياء: قد كان العلم يطلق على العلم بالله تعالى وآياته وبأفعاله في عبادة وخلقه، فتصرفوا فيه بالتخصيص حتى اشتهر في المناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، ولكن ما ورد في فضل العلم والعلماء اكثره في المعنى الأول.

وعند الماديين: خصوص اليقينيات التي تستند الى الحس وحده.

أما في عرف التدوين العام فهو: المسائل المضبوطة بجهة واحدة، والمسائل تنضبط بموضوعاتها، وتنضبط بغاياتها وفائدتها، فمسائل النحو مثلاً موضوعها واحد، وهو الكلمة العربية من حيث الاعراب والبناء، وغايتها صون اللسان عن الخطأ في الكلام.

وبعد أن عرفنا معنى جزأي المركب الاضافي (علوم القرآن) حري بنا أن نعرف معنى هذا المركب، وقد عرفه الزرقاني فقال:

إنه مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وقراءته وتفسيره واعجازه وناسخه ومنسوخه ودفع الشبه عنه ونحو ذلك[1].

ويظهر من هذا التعريف أن علوم القرآن الكريم هي المباحث المتعلقة بالمسائل المختصة بالقرآن الكريم كافة، فيدخل فيها علم التفسير، ولكن العلماء فصلوا عند التأليف بين هذين الفنين، فقد يجعل الاول – علوم القرآن – أصلاً ومدخلاً للثاني، ومن هنا سميت علوم القرآن بعلم أصول التفسير، لأنها تتناول المباحث التي لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد اليها في القرآن[2]، فها هو السيوطي أراد أن يؤلف في التفسير كتاباً جامعاً فجعل الاتقان مقدمة له، لذلك نجده يقول في مقدمة الاتقان في علوم القرآن: (وسميته بالاتقان في علوم القرآن وسترى في كل نوع منه إن شاء الله ما يصلح أن يكون بالتصنيف مفرداً وستروى من مناهله العذبة رياً لا ضمأ بعده أبداً وقد جعلته مقدمة للتفسير الكبير الذي شرعت فيه وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين،

---

(١) مناهل العرفان ١/٢٧.

(٢) مباحث في علوم القرآن للقطان ١٦.

الجامع لتحرير الرواية وتقرير الدراية، ومن الله استمد التوفيق والهداية والمعونة والرعاية انه قريب مجيب)[٣].

واما تسمية هذا العلم بالجمع دون الافراد فللاشارة الى أنه يحوي خلاصة علوم متنوعة، منها ما يتصل بعلوم اللغة العربية، ومنها ما يتصل بعلوم الدين ومنها ما يتصل بالحساب، ومنها ما يتصل بالتاريخ، وغير ذلك من المباحث التي اذا جمعت على سبيل الاستيعاب والاستقصاء فهي جديرة أن تكون علماً قائماً برأسه.

موضوعات علوم القرآن:

يظهر جلياً من تسمية علوم القرآن بالجمع كما يظهر أيضاً من تعريفها أنها مجموعة من العلوم المختصة بالقرآن الكريم، والمنضوية تحت لوائه، والقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، وما زال العلماء يستنبطون من آياته وكلماته وحروفه علوماً تضيء لهم ما ادلهمّ من الظلمات، وتحل ما استعصى من المشكلات، فلا شك أن علوم القرآن كثيرة، وكل علم من هذه العلوم مختص بجانب من جوانب كلمات القرآن أو معانية، فعلم القراءات مثلاً موضوعه القرآن الكريم من ناحية لفظة وأدائه وعلم التفسير موضوعه القرآن الكريم من ناحية شرحه ومعناه ... هكذا.

من هنا يصعب حصر علوم القرآن بالعد، ولكن أشهر ما يكتب به العلماء الامور التالية: ظاهرة الوحي، ونزول القرآن، وأول ما نزل وآخر ما نزل والمكي والمدني من الآيات والسور وأسباب النزول، وأسرار التنجيم، وجمع القرآن وكتابته، والرسم القرآني، والقراءات والأحرف السبعة، والمحكم والمتشابه، والتفسير والاعجاز القرآني، وبلاغته، وأمثاله وغريبه، وقسم القرآن، وجدل القرآن، وقصصه، ولغته وترجمته والحرف القرآني، وترتيب الآيات والسور، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك مما يختص بالقرآن الكريم من علوم.

والمتأمل في هذه العلوم الكثيرة يجد أن الإحاطة بعددها متعذرة، كما أن الاحاطة بكل علم من هذه العلوم متعذرة أيضاً، وأما نسبة هذه العلوم الى القرآن

---

[٣] الاتقان في علوم القرآن ١/٦.

فكنسبة الفروع الى أصلها، والأدلة الى مدلولها، فالقرآن أصل العلوم ومنبعها وأساسها ومنه تتفجر المعارف كيف لا وهو كلام العليم الحكيم سبحانه وتعالى.

فوائد معرفة علوم القرآن:

القرآن الكريم هو السبيل الوحيد لمعرفة كلام الله، وهو الشامل والخاتم للكتب السماوية السابقة عليه، كثير الشمائل والخصال، صادق الأخبار والبشائر والوعود يهدي للتي هي أقوم، ويدعو للتي هي أسلم لا يحصي مناقبه عدّ، ولا يخلق على كثرة الرد.

وأما فوائد معرفة علومه فتتناسب طردياً مع خصاله وشمائله وكثرة علومه وتشعبها وشمولها، ويمكنني أن أجمل هذه الفوائد بالنقاط التالية:

١ – أنها وسيلة للتقرب الى الله وعبادته، إذ تلاوة القرآن قربة من أعظم القرب، وتفسير آياته كذلك.

٢ – تعين على فهم القرآن الكريم والوقوف على كريم أغراضه وشريف أسراره، بسهولة ويسر، إذ علوم القرآن أصل علم التفسير، الذي يوصل الى الكشف عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، وبمعرفتها نقف على الشروط التي لابد منها قبل الخوض في التفسير.

٣ – التسلح بالمعارف القيمة للقرآن استعداداً لحسن الدفاع عن حمى الكتاب العزيز، ورد شبهات الاعداء، ودحض افتراءاتهم، واظهار زيف دعواهم.

٤ – معرفة الأحوال التي لازمت القرآن الكريم في كل عصر من العصور منذ نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم الى الآن.

٥ – التسلح بالثقافة القرآنية العالية، وبها نعرف الظروف التي واكبت نزوله، ومكيّه ومدنيه، وناسخه ومنسوخه، وأخباره وغير ذلك من علوم القرآن التي تعين على حل المشكلات المماثلة لها عبر العصور والى يوم الدين.

٦ – معرفة الجهود التي بذلها الصحابة الكرام ومن تبعهم من علماء التفسير للحفاظ على كتاب الله في السطور والصدور، ومعرفة كيف عنيت الأمة بتفسيره، والوقوف على أسراره، واستنباط الاحكام والعظات منه.

نشأة علوم القرآن:

لا شك أن الصحابة الكرام كانوا يعرفون علوم القرآن الكريم، إذ هم الذين تلقوا القرآن وعلومه من النبي صلى الله عليه وسلم، منبع العلم وأساسه، الذي يتلقى بدوره من الوحي المتكفل بحفظه، قال تعالى: {لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه}[1]، فقد عرفوا أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وبمعرفتهم بلغة العرب عرفوا اعجاز القرآن، ولغته، وأساليبه، وبيانه، وبلاغته، وتفسيره وغير ذلك من علومه، وهو مصداق قوله تعالى: {وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون}[1].

لكن هذه العلوم كغيرها من ألوان العلم لم تدون في القرن الأول، وظلت علوم القرآن تروى بالتلقين والمشافهة، والسبب في عدم تدوينها في هذا العصر أمور، أشهرها:

١ – نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة غير القرآن، مخافة أن يختلط القرآن الكريم بغيره من العلوم، اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[2].

---

[1] القيامة ١٦-١٩.

[1] النحل ٤٤.

[2] رواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد باب التثبيت في الحديث وحكم كتابه العلم.

٢ – أن الصحابة الكرام أدركوا الكثير من علوم القرآن بسليقتهم، وصفاء فطرتهم، وعربيتهم الخالصة، فقد تمتعوا بجميع خصائص العروبة ومزاياها الكاملة من قوة في الحافظة، وذكاء في القريحة، وتذوق للبيان، وتقدير للأساليب ووزن لما يسمعون بأدق المعايير[٣]، ومن هنا وجدناهم حريصين على حفظ القرآن وفهمه، وكان أكبر تشريف ورفعة لهم.

٣ – وجود النبي صلى الله عليه وسلم يحل لهم ما أشكل عليهم، اذا لم تكن الحاجة ماسة الى تدوين مثل تلك العلوم.

٤ – تفشي الأمية بين الصحابة، بالاضافة الى عدم تيسر أدوات الكتابة كل ذلك كان حائلاً دون التأليف في هذا العلم[٤].

لهذه الأسباب متضافرة لم تدون علوم القرآن في ذلك العهد، مع أن الصحابة الكرام كانوا يتكلمون في بعض هذه العلوم، إذ وجدنا عنهم مرويات في أسباب النزول، وفي أول ما نزل وآخر ما نزل والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني وغير ذلك.

ومضى الرعيل الأول على ذلك في عهد الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حتى خلافة عثمان رضي الله عنه، وحينئذ اتسعت رقعة الاسلام، واختلط العرب بالعجم، وخيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه فأمر عثمان رضي الله عنه الناس أن يجتمعوا على مصحف امام وأن تنسخ منه مصاحف، ترسل الى الامصار ويحرق كل ما عداها، وبذلك وضع سيدنا عثمان الأساس لما سمي بعلم رسم القرآن ونسب اليه، فقيل: الرسم العثماني.

ثم جاء سيدنا علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، وسمع أعرابياً قد أقرأه المقرىء (أن الله برىء من المشركين ورسوله)[١] فكسر اللام من (رسوله) فقال الأعرابي: أبرئت من رسول الله، فأنكر ذلك عليّ كرم الله وجهه، ورسم لأبي الاسود[٢] من عمل النحو ما رسمه[٣]، وبهذه الرواية على الاختلاف فيها يكون علي

---

[٣] مناهل العرفان ١/٢٩.
[٤] مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ١٢٠.
[١] التوبة ٢.
[٢] ظالم بن عمر استعمله علي والياً على البصرة أنظر ترجمته في انباه الرواة ١/٤٨ معجم المؤلفين ٥/٤٧.
[٣] انظر الخصائص لابن جني ٢/١٠.

ابن أبي طالب كرم الله وجهه هو واضع الاساس لعلم النحو، ويتبعه علم اعراب القرآن.

هذا بالاضافة الى جهود السلف الصالحين في علم التفسير، والبحث في هذه الجهود مؤجل الى حين الحديث عن تفسير القرآن الكريم واتجاهاته.

تدوين علوم القرآن:

في القرن الثاني الهجري بدا التدوين في علم التفسير، وكان اذ ذاك قد بدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة وشمل ذلك ما يتعلق بالتفسير، وجمع بعض العلماء ما روي من تفسير القرآن الكريم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن الصحابة أو عن التابعين، واشتهر منهم: يزيد بن هارون السلمي المتوفي سنة ١١٧هـ وشعبة بن الحجاج المتوفي سنة ١٦٠هـ ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ، وسفيان بن عينية المتوفى سنة ١٩٨هـ وعبد الرزاق بن همام المتوفي سنة ٢١١هـ، وهؤلاء جميعاً كانوا من ائمة الحديث،فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبوابه، ولم يصلنا من تفاسيرهم شيء مكتوب[٤].

أما علوم القرآن الأخرى فقد انقسم التأليف فيها الى قسمين:

القسم الأول: افراد علم واحد من علوم القرآن بالتأليف.

بدأ تدوين المؤلفات المختصة بعلم واحد من علوم القرآن في القرن الثالث الهجري، وعلى النحو الآتي:

القرن الثالث الهجري:

١ – ابو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ ألّف في الناسخ والمنسوخ والقراءات.
٢ – علي بن المديني – شيخ البخاري – ت ٢٣٤هـ في أسباب النزول.
٣ – ابو جعفر النحاس ت ٢٣٨ في القطع والاستئناف.
٤ – ابو داوود السجستاني – صاحب السنن – ت ٢٧٥ في الناسخ والمنسوخ.
٥ – ابن قتيبة ت ٢٧٦ في مشكل القرآن.

---
[٤] مباحث في علوم القرآن مناع القطان ١٢.

٦ – محمد بن أيوب الضريس ت ٢٩٤ فيما نزل بمكة وما نزل بالمدينة واسم كتابه فضائل القرآن.

القرن الرابع الهجري:

١ – ابو بكر محمد بن القاسم الأنباري ت ٣٢٨هـ عجائب علوم القرآن، تكلم فيه على فضائل القرآن ونزوله على سبعة أحرف وكتابة المصاحف، وعدد السور والآيات والكلمات.

٢ – ابو الحسن الاشعري ت ٣٢٤هـ المختزن في علوم القرآن.

٣ – ابو بكر السجستاني ت ٣٣٠هـ في غريب القرآن.

٤ – أبو محمد القصاب محمد بن علي الكرخي ت ٣٦٠هـ نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام المنبئة عن اختلاف الأنام.

٥ – الخطابي ت ٣٨٥ مجاز القرآن.

٦ – محمد بن علي الأدفوي ت ٣٨٨هـ الاستغناء في علوم القرآن.

القرن الخامس الهجري:

أبو بكر الباقلاني ت ٤٠٣هـ اعجاز القرآن.

٢ – ابو عمرو عثمان الداني ت ٤٤٤ التيسير في القراءات السبع، والمحكم في النقط.

٣ – الماوردي ت ٤٥٠هـ أمثال القرآن.

القرن السادس الهجري:

١ – الراغب الاصفهاني ٥٠٢هـ المفردات

٢ – أبو القاسم السهيلي ت ٥٨١هـ مبهمات القرآن.

القرن السابع الهجري:

١ – علم الدين السخاوي ٦٤٣هـ في علم القراءات.

٢ – العز بن عبدالسلام ٦٦٠هـ مجاز القرآن.

القرن الثامن الهجري:

١ – نجم الدين الطوفي ٧١٦ جدل القرآن.

٢ – ابن القيم ٧٥١ أقسام القرآن.

هذه اشهر المؤلفات القرآنية المختصة بفن واحد من علومه، والجدير ذكره هنا أن منهج التأليف فيها كان متميزاً بالاستقصاء والاستيعاب، فمن يكتب في مفردات

القرآن مثلاً نجده يجمع كل مفردات القرآن منظماً اياها بترتيب خاص يرتائيه، وهكذا من يكتب في غريبه ومجازه وأمثاله، ولا ريب أنها موسوعات لا تتيسر الاحاطة بها.

القسم الثاني : جمع علوم القرآن في مؤلف واحد:

لما كان أفراد كل علم من علوم القرآن بالتعريف والتأليف أمراً غير ميسور الاحاطة به، إذ لا يتهيأ لانسان أن يحيط بعلوم القران كافة ولو أفنى عمره، واستنفذ وسعه، تطلع العلماء الى جمع هذه الفنون في علم واحد يكون كالفهرس لها.

ولا يعزبن عن بالك أن هذه العلوم كانت مجموعة في صدور المبرزين في العلماء، يستدل على ذلك بما أورده الزرقاني في مناهل العرفان عن محنة الامام الشافعي التي أتهم فيها بانه رئيس حزب العلويين باليمن وسيق بسبب هذه التهمة الى الرشيد مكبلاً بالحديد في بغداد، وسأله الرشيد حين لمح علمه وفضله، فقال: كيف علمك يا شافعي: بكتاب الله عز وجل؟ فانه أولى الأشياء أن يبتدأ به فقال الشافعي : أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين فان الله قد أنزل كتباً كثيرة، قال الرشيد: قد أحسنت لكن انما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد صلى الله عليه وسلم، فقال الشافعي إن علوم القرآن كثيرة، فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه أو عن تقديمه وتأخيره أو عن ناسخه ومنسوخه، أو عن... أو عن... وصار يسرد عليه من علوم القرآن ويجيب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين[1].

ولا يستغرب هذا على الشافعي ولا يستبعد، فقد كان آية في الذكاء والفطنة، فجهوده في علوم القرآن جمة، ولما طلب منه أن يضع كتاباً في معاني القرآن، ويجمع فيه قول الأخيار وحجة الاجماع وبيان الناسخ والمنسوخ والقرآن والسنة فوضع كتاب الرسالة[1].

أما تدوين هذه العلوم مجموعة في كتاب واحد فقد اختلف العلماء في وقته، فذكر السيوطي في مقدمة الاتقان مجموعة من الكتب في هذا الفن، وذلك بعد أن ذكر ثمانين نوعاً من العلوم القرآنية التي بحثها في الاتقان، ثم قال: (هذه ثمانون نوعاً على سبيل الادماج ولو نوّعت باعتبار ما ادمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة، وغالب هذه

---

[1] مناهل العرفان ١/٣٣.

[1] طبقات الحفاظ للسيوطي١٥١.

الانواع فيها تصانيف مفرده وقفت على كثير منها، ومن المصنفات في مثل هذا النمط وليس في الحقيقة مثله ولا قريباً منه، وانما هي طائفة يسيرة، ونبذة قصيرة: فنون الافنان في علوم القرآن لابن الجوزي[٢] وجمال القراء للشيخ علم الدين السخاوي[٣]، والمرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز لابي شامة[٤] والبرهان في مشكلات القرآن لأبي المعالي عزيزي بن عبدالملك المعروف بشيدله، وكلها بالنسبة الى نوع هذا الكتاب كحبة رمل في جنب رمل عالج، ونقطة قطر في حيال بحر زاخر) انتهى.[٥]

وفي موطن آخر من المقدمة ذكر السيوطي أنه رأى كتاب البرهان في علوم القرآن للامام الزركشي المتوفي ٧٩٤هـ، إذ قال: (خطر لي أن أولف كتاباً مبسوطاً ومجموعاً مضبوطاً أسلك فيه طريق الاحصاء وأمشي فيه على منهاج الاستقصاء هذا كله وأنا أظن أني متفرد بذلك غير مسبوق بالخوض في هذه المسالك، فبينا أنا أجيل في ذلك فكري، أقدم رجلاً واؤخر أخرى اذ بلغني أن الشيخ الامام بدر الدين بن محمد بن عبدالله الزركشي أحد متأخري أصحابنا الشافعيين ألف كتاباً في ذلك حافلاً يسمى البرهان في علوم القرآن فطلبته حتى وقفت عليه)[٦].

إن المتأمل في مقدمة السيوطي يجد أنه أنفرد من السابقين بتتبع حركة التأليف بشي من التفصيل، وتقرر لديه أن ابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ قد ألف في هذا الفن، لكن الزرقاني ظفر في دار الكتب المصرية بكتاب في علوم القرآن لعلي بن ابراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي المتوفي سنة ٤٣٠هـ اسمه البرهان في علوم القرآن[١].

أما الشيخ صبحي الصالح فرأى أن كتاب الحوفي كتاب في التفسير إذ قال: (اشتمل هذا الكتاب على بعض علوم القرآن مع أنه في الظاهر تفسير، ففيه يقول

---

[٢] المتوفى سنة ٥٩٧هـ.
[٣] المتوفى سنة ٦٤٣هـ.
[٤] المتوفى سنة ٦٦٥هـ.
[٥] الاتقان ١/٥.
[٦] الاتقان ١/٥.
[١] مناهل العرفان ١/٣٤.

صاحب كشف الظنون: ذكر فيه الغريب والاعراب والتفسير، ولكننا نبهنا الى ظهور كتب عالجت الدارسات القرآنية باسمها الصريح علوم القرآن وكان أسبقها في نظرنا كتاب ابن الَمرْزُبان في القرن الثالث) انتهى[٢].

والظاهر من كلام الشيخ صبحي الصالح أن أول كتاب في علوم القرآن مجموعة هو كتاب الحاوي في علوم القرآن لمؤلفه محمد بن خلف المرزبان المتوفي سنة ٣٠٩هـ، وقد ذكر هذا الكتاب صاحب الفهرست[٣]، الا أن هذا الكتاب لم يشتهر، شأن كتاب الحوفي، ولعل عدم شهرة كتاب الحوفي تكمن في كثرة السقط فيه، قال الزرقاني في وصفه له (يقع في ثلاثين مجلداً والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً غير مرتبة ولا متعاقبة... ولقد كنت مشغوفاً أن اقرأ مقدمة كتابه هذا لآخذ اعترافاً صريحاً منه بمحاولته انشاء هذا العلم الوليد ولكن ماذا اصنع والجزء الأول منه مفقود، غير أن اسم الكتاب يدلني على هذه المحاولة) انتهى[٤].

إن أكثر هذه الكتب شهرة هو كتاب ابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ المسمى فنون الأفنان في علوم القرآن، وكذا كتابه المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن، وقد طبع الكتاب الأول عام ١٤٠٨ بتحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر.

وفي القرن السابع ألف أبو شامة المتوفي سنة ٦٦٥هـ كتاباً سمّاه المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز ولكن هذا الكتاب عبارة عن طائفة يسيرة ونبذ قصيرة بالنسبة لكتاب ابن الجوزي، وأكثر الكتب جمعاً وسعة بعد فنون الأفنان هو كتاب البرهان في علوم القرآن للامام بدر الدين الزركشي المتوفي سنة ٧٩٤، وهو كتاب مشهور محقق مطبوع، اعتمد عليه السيوطي عند تأليفه كتاب الاتقان وقال السيوطي: (خطر لي أن اؤلف كتاباً مبسوطاً ومجموعاً مضبوطاً اسلك فيه طريق الاحصاء وأمشي فيه على منهاج الاستقصاء، هذا كله وأنا أظن أني متفرد بذلك غير مسبوق بالخوض في هذه المسالك، فبينا أنا اجيل في ذلك فكري أقدم رجلاً وأؤخر أخرى إذ بلغني أن الشيخ الامام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي أحد متأخري اصحابنا

---

[٢] مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ١٢٤
[٣] الفهرست لابن النديم ٢١٤
[٤] مناهل العرفان ١/٢٥

الشافعيين الف كتاباً في ذلك حافلاً يسمى البرهان في علوم القرآن، فطلبته حتى وقفت عليه... ولما وقفت على هذا الكتاب ازددت به سروراً، وحمدت الله كثيراً وقوي العزم على ابراز ما أضمرته وشددت الحزم في انشاء التصنيف الذين قصدته) انتهى[١].

وفي القرن التاسع الهجري كتب الشيخ جلال الدين البلقيني المتوفي سنة ٨٢٤هـ كتاباً اسماه (مواقع العلوم من مواقع النجوم)، وصنف محمد بن سليمان الكافيجي المتوفي ٨٧٩هـ كتاباً ذكره السيوطي، ولكنا لا نعرف اسم هذا الكتاب، وفي بداية القرن العاشر برز كتاب الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي المتوفي ٩١١هـ وهو عمدة الباحثين والكاتبين في هذا الفن، وكان قد سبقه كتاب التحبير في علوم التفسير وفرغ منه سنة ٨٧٢هـ، غير أن نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم، بل طمح الى التبحر والتوسع والترتيب فألف الاتقان وهو كتاب عظيم القدر جليل النفع، عوّل عليه العلماء كثيراً وزمنا طويلاً وبقي الأمر كذلك حتى القرن الأخير.

وفي القرن الرابع عشر الهجري أقبل العلماء على تصنيف الكتب حول علوم القرآن، وكان كتاب الشيخ طاهر الجزائري أول الكتب ظهوراً، وهو كتاب جليل سماه: (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الاتقان) وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة عام ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين للهجرة.

ثم توالى التأليف، وظهرت مجموعة من الكتب في هذا الفن ومن أشهرها.

١ – الفرقان في علوم القرآن محمد علي سلامه.
٢ – مناهل العرفان في علوم القرآن الزرقاني.
٣ – البيان في مباحث علوم القرآن عبدالمجيد غزلان.
٤ – النبأ العظيم محمد عبدالله دراز.
٥ – مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح.
٦ – مباحث في علوم القرآن مناع القطان.
٧ – البيان في علوم القرآن محمد علي الصابوني.

---

[١] الاتقان في علوم القرآن ١/٥.

وبهذا يظهر أن نصيب علوم القرآن في العصر الحديث لم يكن اقل من العلوم الأخرى، بل اتجه فيه العلماء اتجاهاً سديداً في معالجة الموضوعات القرآنية باسلوب العصر.

ولا يفوتني أن أذكر الكتب الكثيرة المؤلفة في هذا العصر والتي تتعلق بمباحث خاصة من علوم القرآن كاعجاز القرآن والتصوير الفني في القرآن وترجمة القرآن واسباب النزول فجزى الله كل من ساهم في خدمة القرآن خير الجزاء، وجعله من أهل القرآن وخاصته الذين هم أهل الله.

نزول القرآن

النزول لغة:

ورد لفظ النزول في اللغة بمعنيين:

الأول : الحلول[1]، فالمحل في اللغة هو المنزل.

والثاني : الهبوط[2] والانحدار من أعلى الى أسفل.

وقد ورد لفظ النزول في القرآن بهذين المعنيين، ففي المعنى الاول قوله تعالى: {وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين}[3]، وفي المعنى الثاني قوله تعالى: {وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً}[4].

والمتأمل في نصوص القرآن يجد أنه قد وصف بالنزول والانزال في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: {إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين}[5] وقوله تعالى: {وبالحق أنزلناه وبالحق نزل}[6]، فهل نستطيع أن نحمل معنى هذا الوصف للقرآن – أي النزول القرآني – على أحد هذين المعنيين؟

إن الإجابة على هذا السؤال لا تحتاج الى كثير تفكير، فالقرآن لا يتأتى أن يصدق عليه أحد معنيي الانزال، لأن الانحدار والحلول يقتضيان جسماً وحركة، والقرآن ليس شيئاً مادياً فلا هو جسم، ولا يتحرك، ومن هنا يحسن أن نلجأ الى المجاز فيؤول الى أحد توجيهين هما:

١ – أن يراد لازم الإنزال، وهو الاعلام، فيكون المعنى إعلام المنزل اليه بالقرآن وإيصاله له، وعبر عن الاعلام بالإنزال على هذا المعنى للطيفة، هي بيان شرف القرآن وعلو منزلته وأنه من العالم العلوي.

٢ – أن يقصد إنزال حامله وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام.

---

[1] - الصحاح للجوهري ٥/١٨٢٨.
[2] - الصحاح للجوهري ٣/١١٦٩.
[3] - المؤمنون ٢٩.
[4] - الفرقان ٤٨.
[5] - الزمر ٢.
[6] - الاسراء ١٠٥.

تنزلات القرآن:

ورد في القرآن العظيم آيات ثلاث تحدد الكيفية التي نزل فيها القرآن، وكان للعلماء في توجيه هذه الآيات أقوال كذلك، أما الآيات فهي:

١ – قوله تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان}[1].

٢ – قوله تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين}[2].

٣ – قوله تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة القدر}[3].

والمتأمل في هذه الآيات الكريمات يجد أن الآية الاولى تحدد نزول القرآن في شهر رمضان، والثانية بأنه نزل في ليلة مباركة، والثالثة بأنه في ليلة القدر، ولا تعارض بين هذه الاوصاف، فهي ليلة من ليالي رمضان، مباركة، ذات قدر وشرف لنزول القرآن فيها.

لكن الذي يحتاج الى توجيه هو أن القرآن الكريم لم ينزل كله جملة على النبي صلى الله عليه وسلم، وانما استمر نزوله على دفعات منجماً[4] مدة بعثته صلى الله عليه وسلم التي تزيد على عشرين سنة، فكيف نوفق بين هذا الواقع ومنطوق القرآن الذي يحدده في ليلة واحدة؟ وللاجابة على هذا السؤال نستعرض أقوال العلماء:

١ – ذهب الشعبي عامر بن شراحيل المتوفى سنة ١٠٩هـ الى أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان، وهي الليلة المباركة، ثم نزل الباقي منجماً، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجماً[5]، وعليه فالقرآن إنما أشار، الى ذكر تاريخ بدء النزول فحسب، وهو حدث عظيم جدير بالاهتمام والتأريخ له، ولعل الناس في هذه الايام يعظمون أول خطوة في المشروع المهم، ويعبرون عنه بوضع حجر

---

١ - البقرة ١٨٥.

٢ - الدخان ٣.

٣ - القدر ١.

٤ - التنجيم : التفريق، ونجّم اذا قسّط، ومعنى نزول القرآن منجماً انه نزل مفرقاً أو سلسلة من الآيات بحسب الحوادث والاحوال.

٥ - الاتقان للسيوطي ١/٤.

الأساس، ويؤيد هذا القول أن من صفات ليلة القدر أنه يُفرَق فيها كل أمر حكيم، ولا شك أن ابتدأ نزول القرآن كان فرقاً بين الحق والباطل، ويوافق هذا أيضاً ما جاء في قوله تعالى: {وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير}[1]، وقد كانت غزوة بدر في رمضان[2].
٢ – القول الثاني ذكره فخر الدين الرازي فقال: (يحتمل أنه كان ينزل في كل ليلة قدر ما يحتاج الناس الى انزاله الى مثلها من اللوح الى السماء الدنيا)، وهذا يعني أن القرآن نزل الى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين، في كل ليلة ما يقدر الله انزاله في كل السنة ثم نزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة[3].
٣- القول الثالث : إن الله شرف القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات:
الأول : الى اللوح المحفوظ.
والثاني : الى بيت العزة في السماء الدنيا.
والثالث : الى النبي صلى الله عليه وسلم.
وهذا القول مروي عن ابن عباس، اذ سئل عن نزول القرآن أفي ليلة القدر أم في رمضان؟ فقال له: إنه أنزل في رمضان ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والايام – رسلاً، أي: رفقاً أو متتابعاً، وعلى مواقع النجوم، أي: مثل مساقطها – والمعنى أنه نزل مفرقاً يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق منفصلاً بعضه عن بعض كمواقع النجوم المتفرقة في السماء[4]، وهذا الذي ذكره ابن عباس هو الذي سار عليه كثير من العلماء والمشتغلين بعلوم التفسير تقريباً، ورحجة الزركشي في البرهان[5] وخالف الشيخ صبحي الصالح فرجح أن لا يكون للقرآن الا تنزل واحد، ونفى أن يكون له أكثر من تنزل، ودليله أن هذه التنزلات من عالم الغيب لا يؤخذ الا بما تواتر منه يقيناً، وصحة الأسانيد لا تكفي[6].

[1] - الانفال ٤١.
[2] - مباحث في علوم القرآن للقطان ١٠٣.
[3] - الاتقان ١/٤٠.
[4] - الاتقان ١/٤٠، علوم القرآن الكريم عبدالمنعم النمر ٢٧.
[5] - البرهان ١/٢٢٩.
[6] - مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ٥١.

أقول: إن مثل هذا الأمر لا يحتاج الى متواتر الروايات، ولا ينفي تنجيم القرآن أن يكون أنزل دفعة واحدة قبل ذلك.

إن رجحان هذا القول ظاهر، إذ به يجمع بين الأدلة، ويقرب النصوص الى الافهام، فالتنزل الأول الى اللوح المحفوظ ثابت في القرآن بقوله تعالى: {بل هو قرآن مجيد في لوحٍ محفوظ}[1]، وحكمة هذا النزول ترجع الى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه، واقامته سجلاً جامعاً لكل ما قضى الله وقدر، ولكل ما يكون من عوالم الايجاد والتكوين.

واما أدلة نزوله الى السماء الدنيا فروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو ترجمان القرآن ذكرها السيوطي في الاتقان، من أشهرها أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم ورتلناه ترتيلاً) أخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الاسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي[2].

والحكمة في هذا النزول، على ما ذكره السيوطي في الاتقان[3] نقلاً عن أبي شامة– هي تفخيم أمر القرآن، وأمر من نزل عليه، وذلك باعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه اليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الالهية اقتضت وصوله اليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به الى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين، انزاله جملة، ثم إنزاله مفرقاً، تشريفاً للمنزل عليه.

---

[1] - البروج ٢٢.
[2] - انظر مستدرك الحاكم ٢/٦١١ ومعنى ولم يخرجاه أنه لم يرو في الصحيحين.
[3] - الاتقان ١/٤١.

إن في تعدد نزول القرآن وتعدد أماكن النزول حكمة بالغة هي: نفي الشك عن كتاب الله، لان الكلام اذا سجل في سجلات متعددة كان ذلك أنفى للشك وأدعى الى التسليم مما لو سجل في سجل واحد.

ما الذي نزل به الروح الامين على النبي صلى الله عليه وسلم؟

من الامور المُسلَّم بها أن الذي نزل به جبريل على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو اللفظ والمعنى، ومن هنا كان القرآن معجزاً، وهو معنى قول الله سبحانه وتعالى: {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً}[1]، ويدل على هذا من القرآن أدلة قرآنية اخرى، كقوله تعالى: {إنا أنزلناه قرآناً عربياً}[2] وقوله تعالى: {قرآناً عربياً غير ذي عوج}[3]، وقوله تعالى: {إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً}[4].

فكون القرآن عربياً غير ذي عوج وكونه قولاً ثقيلاً أدلة صريحة على أن لفظ القرآن من عند الله، وقد سبق اثبات ربانية القرآن، ونفي بشريته، بل بأدنى التأمل يظهر الفرق بين القرآن والحديث النبوي.

ومع هذا وجدنا بعض العلماء[5] يتحدثون عن نزول القرآن بالمعنى، أما اللفظ فان جبريل هو الذي صاغه أو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي صاغ الفاظه، وقد نقل السيوطي قول من قال: في المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه اللفظ والمعنى، وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به.

---

[1] - النساء ٨٢.
[2] - يوسف ٢.
[3] - الزمر ٢٨.
[4] - المزمل ٥.
[5] - البرهان في علوم القرآن ١/٢٣٠.

والثاني: أن جبريل انما نزل بالمعاني خاصة، وأنه صلى الله عليه وسلم علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب، وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى: {نزل به الروح الامين على قلبك}[١].

والثالث: أن جبريل ألقي اليه المعنى، وأنه عبر بهذه الالفاظ بلغة العرب، وأن أهل السماء يقرأونه بالعربية، ثم انه نزل به كذلك بعد ذلك[٢].

والحق أن القرآن كلام الله، وليس لجبريل فيه سوى حكايته للرسول صلى الله عليه وسلم وايحائه اليه، وليس للرسول في هذا القرآن سوى وعيه وحفظه، ثم بيانه وتفسيره، قال تعالى: {ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين}[٣]، فاللفظ من الله سبحانه وتعالى معجز ومتعبد بتلاوته، ولا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه.

الحكمة من نزول القرآن منجماً:

نزل القرآن من بيت العزة في السماء الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم منجماً مفرقاً حسب الحوادث والدواعي المختلفة المتجددة، التي تعاقبت في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم خلال ثلاثة وعشرين عاماً على الاصح[٤]، وقد ثبت نزول القرآن منجماً في اكثر من موطن في القرآن الكريم قال تعالى: {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا}[٥] وقوله تعالى: {وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا}[٦].

---

١ - الشعراء ١٩٣ – ١٩٤.

٢ - الاتقان ١/٤٣ بتصرف يسير.

٣ - الحاقة ٤٤ – ٤٧.

٤ - اختلف العلماء في مدة نزول القرآن، فمنهم من رأى انها عشرون سنة، ومنهم من قال: إنها ثلاث وعشرون سنة، ومنهم من قال: إنها خمس وعشرون سنة، ويعود الاختلاف تبعاً للخلاف في مدة اقامة النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة والراجح ان مدة الوحي ثلاث وعشرون سنة، وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم اوحى اليه وهو ابن أربعين سنة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، فتعيّن أن تكون مدة الوحي ثلاثاً وعشرين سنة. انظر مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ص ٥٠.

٥ - الفرقان ٣٢.

٦ - الاسراء ١٠٦.

ولقد نص القرآن الكريم على بعض الحكم لتنجيم القرآن، وتشعبت حكم أخرى ذكرها العلماء، وأشهرها:

١ – تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه: قال تعالى: {كذلك لنثبت به فؤادك}[1]، والتنجيم يثبت الفؤاد من وجوه خمسة:

الأول : يجدد نزول الوحي ويكرره من جانب الحق وهذا يملأ قلب النبي صلى الله عليه وسلم سروراً وبهجة، بسبب ما يشعر به من العناية الالهية.

الثاني : تيسير الحفظ والفهم ومعرفة الحكم والحكمة، والضبط اذ هو أميّ.

الثالث: تجديد المعجزات التي تشد أزره وتخذل أعداءه.

الرابع : تكرار لذة الفوز والانتصار وشهود لضحايا الباطل، وتهوين الشدائد وتعزية النبي صلى الله عليه وسلم وتعليمه الرد.

الخامس : يثبت تعهّد الله له بما يهون عليه عند اشتداد الخصام مع اعدائه وتسليته، بالقصص والوعد بالنصر، قال تعالى: {وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك}[2]، وقال تعالى: مسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم: {فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل}[3].

٢ – تثبيت قلوب المؤمنين، والتدرج في تربيتهم، وتلبية حاجاتهم، وينضوي تحت هذا أمور خمسة:

الأول : تيسير الحفظ على الامة اذ هي أمة، امية، وادوات الكتابة غير متيسرة، وهي منشغلة بالدفاع عن دينها.

الثاني : تسهيل الفهم، وتدبر المعاني، والوقوف عند الحكم بسبب نزوله شيئاً فشيئاً.

الثالث : التمهيد لتخلّيهم عن العقائد الباطلة، وعباداتهم الفاسدة وعاداتهم المرذولة، فكلما هدم شيئاً انتقل الى هدم فاسد آخر، فهدم الشرك وزجرهم عن الكبائر ونهاهم عن الصغائر، وتدرج في تحريم ما كان مستأصلاً كالخمر الذي تعجز الأمم اليوم عن منعه.

---

[1] - الفرقان ٣٢.
[2] - هود ١٢٠.
[3] - الاحقاف ٣٥.

الرابع : التمهيد لكمال التحلية بالعقائد الحقة والعبادات الصحيحة والاخلاق الفاضلة.
فأورثهم التوحيد والصلاة والزكاة وغير ذلك وألزمهم الاخلاق الفاضلة، والمعاملات الحقة المثمرة حتى جعلهم الأمة الوسط.
الخامس : تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين فوعدهم بالنصر كما نصر المؤمنين السابقين.
٣ – مسايرة الحوادث والطوارىء، فكلما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وتنتظم هذه الحكمة أموراً أربعة:
الأول : إجابة السائل عن سؤاله الموجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم، كسؤالهم عن الروح، وذي القرنين، واليتامى، وغيرها من الأسئلة التي كانت ترفع الى النبي في أوقات مختلفة، فينزل الجواب عليها في تلك الأوقات.
الثاني : مجاراة الاقضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها، كمعالجة قضية الافك وغيرها.
الثالث : لفت أنظار المسلمين الى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها، وارشادهم الى الصواب في الوقت نفسه، كما حدث يوم حنين اذ ردعهم عن الاعجاب والاغترار.
الرابع : كشف حال أعداء الله المنافقين باظهار أمرهم بعد كل حادثة يفعلونها.
إن هذه الحكمة بمضامينها الاربعة مندرجة في قوله تعالى: {ولا يأتونك بمثل الاجئناك بالحق وأحسن تفسيرا}[١].
٤ – التدرج في التشريع لعلاج ما استأصل في النفوس من أمراض اجتماعية، وذلك بعد أن بنى العقيدة السليمة، وهدم الشرك، وما من ريب أن الاسلام فرق بين الاعماق والسطحيات في هذا المجال، فلم يكن التدرج في بيان حكم الزنا وأكل الربا والسرقة، وانما كان في مثل الخمر والميسر وغيرهما، ومن هنا ينبغي عدم الخلط بين تأخير البيان الى وقت الحاجة، وبين التدرج في التشريع، إذ أخر الاسلام بيان أحكام كثيرة من حلال وحرام، ولكنه حين أراد بيانها أمضى أمره فيها مرة واحدة، ولم يدع فيها للتدرج مجالاً[٢]، أما حكم الخمر فقد تدرج القرآن في بيانه، فأول ما نزل فيها قوله

---
١ - الفرقان ٣٣.
٢ - مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ٥٨.

تعالى: {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما}[1] فوجه الانظار بالمقارنة بين التجارة فيها ونشوتها وما يظن فيها من منافع مع فساد العقل واثارة بواعث الفجور.

ثم تبعتها الخطوة الثانية بقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون}[2] فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر في الاوقات التي يستمر تأثيرها الى وقت الصلاة، ولما أصبحت فرص السكر نادرة بطبيعة الحال حرم الله الخمر بلهجة قاطعة جازمة فقال سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون}[3].

وهذا من أعظم وأفضل أساليب التربية، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم – لجارية ألعب -: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر}[4].

وما نزلت سورة البقرة والنساء الا وأنا عنده، والمراد بقول عائشة (أول ما نزل) أي: من أول ما نزل[5].

٥ – الدلالة على إعجازه واثبات مصدره، وذلك أن القرآن نزل مفرقاً حسب الوقائع والحوادث، وهو مع هذا متآلف متسق، قوي الاتصال، كأنه سبيكة واحدة، وهذا أدخل في الاعجاز، وأبلغ في الحجة، واثبات لربانيته، اذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، إما اختلاف النظم والاسلوب، وذلك على طريقة الادباء في الاختلاف

---

[1] - البقرة ٢١٩.
[2] - النساء ٤٣.
[3] - المائدة ٩٠ – ٩١.
[4] - القمر ٤٦.
[5] - رواه البخاري في الصحيح كتاب فضائل القرآن حديث رقم ٤٧٠٧.

مهما كان حظهم من التفوق رغم تفرغهم للعمل الأدبي الواحد واختلاف المناسبات والاحوال، وإما اختلاف المعاني والمضامين، لطول الفترة، وتجدد الاحوال والظروف[١]، قال تعالى: {كتاب أحكمت اياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير}[٢].

إن في تنجيم القرآن وحكمه وأسراره اسلوباً تربوياً فريداً، حريٌّ بأهل التربية أن ينتهجوه، وذلك أن بين بداية الوحي وختامه مراحل تربوية كثيرة، تدرج الاسلام بها فأصلح النفس البشرية، وبنى شخصيتها، وتكامل كيانها، حتى استوت على سوقها، والقرآن في كل مرحلة يراعي المستوى الذهني للمخاطبين، ويقوم بتنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية بما يوجهها وجهة سديدة الى الخير والرشاد.

الأمور التي يقع فيها التنجيم:

نزول القرآن بالجملة منجماً لاينافي التدرج في التشريع ولا البت في بعض الاحكام من غير تدرج، وقد فرق الاسلام من خلال الأحكام القرآنية بين ما كان متعمقاً من العادات الجاهلية في أنفس الافراد والمجتمعات وبين ما كان سطحياً لا يلبث أن يزول، إذ يصعب على النفس البشرية التخلص من عميق العادات بسرعة، ولا بد من التريث عند ارادة قلعها والتخلص منها، أما سطحيات القضايا فيمكن القطع فيها بالرأي لعدم قابليتها للنقاش، ولعدم تمكنها من النفس البشرية ذات الفطرة الزكية[٣].

في ضوء ذلك نظر الاسلام الى القتل والسرقة والغصب وأكل أموال الناس بالباطل ومختلف ضروب الغش في المعاملات كما نظر الى الزنى فحرمها كافة مرة واحدة تحريماً قاطعاً لا تساهل فيه، ففي مجال تحريم القتل العمد قال تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً

---

[١] - علوم القرآن عدنان زرزور ٧٩-٨٠ بتصرف.
[٢] - هود ١.
[٣] - راجع في ظلال القرآن سيد قطب ٢/٦٠ مباحث صبحي الصالح ٥٧.

عظيماً}[1]، وفي مجال تحريم السرقة قال تعالى: {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم}[2].

إن المتأمل في التشريعات القرآنية يجدها متلائمة مع حاجات الناس، فما تأخر بيان حكم شرعي عن وقت حاجته، فتأخير بيان أوقات الصلاة واعداد الركعات لكل صلاة بتفصيلاتها عن تشريع الصلاة أولاً لم يكن من التدرج وانما هو من التيسير ورفع الحرج عند تقرير التشريعات فبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم فُصلت الركعات وأنصبة الزكوات وشروط الصيام.

أما الأمور التي وقع فيها التنجيم فكثيرة منها:

١ – **أصول الايمان وأركانه ودعائمه:** فقد تناول القرآن بادىء الامر عقائد الوثنية فاقتلعها من جذورها، وغرس في الأنفس أصول الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء.

٢ – **التشريعات:** ففي المجتمع المكي شرعت الأصول العامة للعبادات والمعاملات، ثم تنجم نزول التفصيلات، مثال ذلك قوله تعالى في القرآن المكي: {فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله واولئك هم المفلحون وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون}[3].

٣ – **الأخلاق :** إذ أمر القرآن أولاً بمحاسن الاخلاق التي تزكو بها النفس وتقوّم المعوج، ونهى عن الفحشاء والمنكر ليقتلع جذور الفساد والشر، وأرسى دعائم الحلال والحرام ثم فصل القول في كل خلق جميل مستقيم.

٤ – **استئصال الامراض الاجتماعية باسلوب تربوي:** تلك العادات التي انتشرت في الجاهلية وكانت من الامراض المستعصية اقتلعها القرآن، وشرع مكانها من أركان الاسلام وفرائضه ما جعل تلك القلوب عامرة بالايمان، يظهر ذلك بأمثلة كثيرة منها:

---

[1] - النساء ٩٢.
[2] - البقرة ١٨٨.
[3] - الروم ٣٨ – ٣٩.

العصبية الجاهلية ونظرية الفوقية التي كان يتعامل فيها أهل مكة على غيرهم حاربها الاسلام، وغرس الاخوة والتقوى والمساواة فارتفع الرقيق المؤمن بلال الحبشي رضي الله عنه على ظهر الكعبة يؤذن وهم دونه يرددون ما يقول.

٥ – **العلاقات الاسرية:** نزلت أُسسها بمكة، وفي المدينة تم بيان حقوق كل من الزوجين وواجبات الحياة الزوجية وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة او انتهائها بالطلاق او الموت ثم الارث.

٦ – **الصعيد النفسي:** فإذ القرآن يخاطب كل نفس وحدها ويتناول أسرارها يوضح ذلك نزول قوله تعالى: {لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت}[1]، وذلك بعدما دهش الصحابة الكرام لما نزل قوله تعالى: {وان تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله}[2] فقالوا: ما نزل علينا أشق من هذه الآية.

إن هذا يؤكد ربانية القرآن وانه كلام العليم الخبير سبحانه وتعالى.

---

١ - البقرة ٢٨٦.

٢ - البقرة ٢٨٤.

أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن

إن التحدث عن أول ما نزل وآخر ما نزل في كل جانب من تعاليم الاسلام أمر غير ميسور في هذه العجالة، إذ يحتاج التحدث فيه الى مجهود طويل، وصبر على البحث والتحري، وله مواضع أخرى يمكن أن يطلب منها، وغرضنا هنا أن نبين أول ما نزل من القرآن على الاطلاق، وكذا آخر ما نزل منه.

أما أول ما نزل فقد ورد فيه اختلاف، وفصّل صاحب البرهان[1] في الأقوال، وعددها، وأشهر هذه الأقوال أربعة:

١ – **إنه صدر سورة العلق:** من قوله تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} الى قوله تعالى: {علم الانسان ما لم يعلم}، ودليل هذا القول حديث عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء: قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، قال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم} فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة واخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك ابداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق[2].

---

١ - البرهان للزركشي ١/٩٢.

٢ - رواه البخاري كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢ – **إن أول ما نزل سورة المدثر:** فقد أخرج البخاري عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أن جابر بن عبدالله الانصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءَني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: {يا أيها المدثر قم فأنذر} الى قوله: {والرجز فاهجر}، فحمي الوحي وتتابع[1].

وظاهر هذه الرواية يدل على أن جابر بن عبدالله رضي الله عنه استند في كلامه على أن أول ما نزل من القرآن هو المدثر الى ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي، وكأنه لم يسمع بما حدّث به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوحي قبل فترته من نزول الملك على الرسول صلى الله عليه وسلم في حراء بصدر سورة العلق - كما روت عائشة رضي الله عنها – ولعل سورة المدثر هي أول سورة نزلت بسببٍ، لكن لم تنزل السورة بتمامها لأن في رواية البخاري عن جابر رضي الله عنه أنه الى قوله تعالى: {والرجز فاهجر} ولأن المتأمل في السورة يجد فيها معارضة ومخاصمة الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعقل أن تكون هذه الاحوال قبل الوحي.

ويستدل أصحاب هذا القول أيضاً بما روي في الصحيحين عن يحيى ابن أبي كثير قال: سالت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: {يا أيها المدثر} قلت: يقولون: {إقرأ باسم ربك الذي خلق}، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن ذلك وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك الا ماحدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فنظرت امامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً،

[1] - رواه البخاري كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فاتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماءً بارداً، قال: فدثروني وصبوا علي ماءً بارداً قال: فنزلت {يا أيها المدثر قم فأنذر}[1].

ورد العلماء بأن هذه الرواية عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وقد سبق بيان حاله أنه ربما كان يحدث عن فترة ما بعد انقطاع الوحي، ولعله لم يسمع رواية عائشة التي تثبت أن أول النزول هو صدر سورة العلق، ولعله كان اجتهاداً منه والنص مقدم على الاجتهاد.

٣ – **أنه فاتحة الكتاب:** واستدل القائلون بما رواه البيهقي في الدلائل، والواحدي في أسباب النزول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا سمع منادياً يناديه: يا محمد، فإذا سمع الصوت انطلق هارباً فقال له ورقة بن نوفل: إذا سمعت النداء فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، قال: فلما برز النداء "يا محمد" فقال: لبيك، قال: قل: أشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال: قل: "الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين" حتى بلغ "ولا الضالين"، هكذا ذكره الواحدي[2] وفي الدلائل للبيهقي بمعناه، وهذه لا تقوى على معارضة ما في الصحيح، وعلى فرض صحتها فان المفهوم منها أن الفاتحة نزلت بعد "اقرأ" وأنها نزلت بعد أن سمع النداء من خلفه غير مرة، وبعد أن اشار عليه ورقة بن نوفل أن يثبت، اضافة الى أن هذا سند مرسل، سقط من رواته اسم الصحابي، والمعول عليه هنا صحة الرواية، وان كان صاحب الكشاف قد رجحه[3]، وكذا الشيخ محمد عبده[4]، لانهما اعتبرا الدليل العقلي بكون الفاتحة مثل البذرة للشجرة الاسلامية العظيمة، وأنها مشتملة على مجمل ما في القرآن، فكان انزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في الابداع، ولكن أنى للعقل أن يقف أمام النص معارضاً؟!

٤ – "إنه بسم الله الرحمن الرحيم" قال السيوطي: (حكاه ابن النقيب في مقدمة تفسيره قولاً زائداً، وأخرج الواحدي والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن

---

[1] - فتح الباري ١٠/٣٠٣.
[2] - اسباب النزول للواحدي ١٩.
[3] - الكشاف للزمخشري ٤/٢٢٣.
[4] - انظر قوله في تفسير المنار ١/٣٥.

الرحيم... وعندي أن هذا لا يُعد قولاً برأسه، فانه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها فهي أول آية نزلت على الاطلاق)[1]. وهذا لم يصح، ولو صح لم يستقم اعتبار الاولوية في نزولها قولاً مستقلاً، لأنها صدر لكل سورة.

والحاصل أن صدر سورة العلق هو أول ما نزل على أرجح الأقوال وأصحها.

هذا عن الاختلاف في أول ما نزل، وأما آخر ما نزل فالاختلاف فيه أوسع، ذلك لان أول ما نزل مرتبط بالوحي فيثبت بثبوته، وأما آخر ما نزل فلا ارتباط له بوقت، ومن هنا اعتبره العلماء ضرباً من الاجتهاد، اذ بعد أن سرد الزركشي الآراء في آخر ما نزل قال: (قال القاضي أبو بكر في الانتصار: وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع الى النبي صلى الله عليه وسلم، ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد، وتغليب الظن، وليس العلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط، ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وان لم يسمعه هو لمفارقته له، ونزول الوحي عليه بقرآن بعده، ويحتمل أيضاً أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول صلى الله عليه وسلم مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها، وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخراً وتلاوته، فيظن سامع ذلك أنه آخر ما نزل في الترتيب) انتهى[2].

وأما أشهر الاقوال في آخر ما نزل فكالآتي:

١ – روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن آخر ما نزل هو قوله تعالى: {واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}[3].

٢ – وروي عنه أيضاً أن آخر آية هي قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين}[4].

---

١ - الاتقان ١/٢٤.
٢ - البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/٢١٠.
٣ - البقرة ٢٨١.
٤ - البقرة ٢٧٨.

٣ - روي عن سعيد بن المسيب أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين، والمراد بها قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه} الى قوله تعالى: {والله بكل شيء عليم}[1].

وفي الجمع بين هذه الاقوال الثلاثة قال السيوطي: (قلت: ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا وآية {واتقوا يوماً} وآية الدين، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، ولأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر وذلك صحيح) انتهى[2]، والظاهر أن الآيات الثلاث متصلة ببعضها اتصالاً تاماً، ومن هنا نفهم معنى ترجمة البخاري في صحيحه لهذه الآيات في باب واحد سماه باب قوله تعالى: {واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله} وذكر فيه بالاسناد الى ابن عباس رضي الله عنهما أن آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم آية الربا[3].

والنفس تستريح الى أن آخر هذه الايات الثلاث نزولاً هو قوله تعالى: {واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله}، لأن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعدها تسع ليالٍ، كما روي عن سعيد بن جبير[4].

٤ – إن آخر آية نزلت هي آية الكلالة {يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد}[5]، واستند اصحاب هذا الرأي الى ما روي في صحيح البخاري، إذ قال: (الكلالة من لم يرثه أب أو ابن، وهو مصدر، من تكلله النسب، حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن ابي اسحق سمعت البراء رضي الله عنه قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت يستفتونك)[6].

وقد رد بعضهم بأن هذه الآية هي آخر ما نزل في المواريث، وقد تكون من آخر ما نزل وليست آخر ما نزل مطلقاً، ونستأنس بل نستدل لهذا بما جاء عن سيدنا عمر رضي الله عنه، وقد كان يكثر من سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الكلالة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: (تكفيك آية الصيف)، أي التي نزلت في الصيف.

---

[1] - البقرة ٢٨٢.
[2] - الاتقان ١/٢٧.
[3] - انظر صحيح البخاري كتاب التفسير باب "واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله" سورة البقرة، حديث رقم ٤٢٧٠.
[4] - انظر الاتقان ١/٢٧.
[5] - النساء ١٧٦.
[6] - صحيح البخاري كتاب التفسير سورة النساء باب {يستفتونك قل الله يفتيكم}.

٥ – إنها قوله تعالى: {ومن يقتل مؤمناً معتمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها}[١].

واستند هؤلاء الى ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير قال: (اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت فيها الى ابن عباس، فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم} هي آخر ما نزل وما نسخها شيء)[٢]، والظاهر أن معنى كلام ابن عباس رضي الله عنهما أنها ثابتة الحكم لم ينزل بعدها ما ينسخها، ولا يفهم من هذا أنها آخر آية نزلت في القرآن الكريم، ولعل المراد أنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً، لا آخر ما نزل مطلقاً.

٦ – إنها قوله تعالى: {فاستجاب لهم ربهم أني لا أُضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى}[٣]، ودليلهم ما روي عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض}[٤] ونزلت {إن المسلمين والمسلمات}[٥]، ونزلت هذه الآية، فهي آخر الآيات الثلاث نزولاً، وآخر ما نزل بعدما كان ينزل في الرجال خاصة.

والرد أن هذه الرواية لم تثبت في الصحيحين فلا تقوى على معارضة الصحيح، والظاهر منها أنها آخر الآيات الثلاث نزولاً بالنسبة الى ما ذُكر فيه النساء.

٧ – قيل: آخر ما نزل قوله تعالى: {اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً}[٦]، وردّ هذا القول بانها نزلت بعرفة في حجة الوداع، وظاهرها يدل على اكمال الفرائض والاحكام، وقد عاش النبي بعد نزولها مدة ثلاثة أشهر، ومن المقطوع به أن يكون نزل بعدها قرآن، ولهذا حمل المفسرون معنى الاكمال هنا باكمال الفرائض والحدود والحلال والحرام، أو أكمل الدين بافرادهم بالبلد الحرام يحجونه وحدهم لا يشاركهم ولا يخالطهم في حجهم مشرك، وهذا الوجه الاخير هو الذي اختاره ابن جرير الطبري في تفسيره[٧].

---

١ - النساء ٩٣.
٢ - اخرجه البخاري في الصحيح، كتاب التفسير باب ٩٦ حديث رقم ٤٣١٤.
٣ - آل عمران ١٩٥.
٤ - النساء ٣٢.
٥ - الاحزاب ٣٥.
٦ - المائدة ٣.
٧ - تفسير الطبري ٦/٥٢.

٨ – قيل: آخر الآيات نزولاً آخر سورة الكهف، وقيل: آخر سورة براءة، وليس في هذا حديث يقوى على معارضة ما في الصحيحين كما تبين آنفاً.

هذا عن الآيات وأما عن السور فروى الامام البخاري أنها سورة براءة[١] وأنها سورة النصر[٢]، والظاهر أنها سورة النصر، لأن فيها نعي النبي صلى الله عليه وسلم، أما سورة براءة فقد نزل أكثرها إبان غزوة تبوك، وهي في السنة التاسعة للهجرة، والرسول صلى الله عليه وسلم انتقل الى الرفيق الاعلى في السنة الحادية عشرة.

والمتدبر لاوائل الآيات المنزلة وخواتيمها يجد ترابطاً بيناً، فأول آية تحث على العلم الذي يوصل الى معرفة الخير واتيانه والابتعاد عن الشر، ويوم الرجوع الى الله سبحانه وتعالى للحساب، فاتقوا الله في مآلكم.

وأما فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل فكثيرة، أشهرها:

١ – تمييز الناسخ من المنسوخ، اذا تعدد النازل في الامر الواحد.

٢ – بيان العناية التي حظي بها القرآن الكريم، صيانة له، وضبطاً لآياته، اذ عرف الصحابة الكرام القرآن آية آية، متى نزلت وأين نزلت.

٣ – إدراك أسرار التشريع الاسلامي وأصالة مصدره، ومراقبة سيره التدريجي، والوصول من وراء ذلك الى حكمة الاسلام وسياسته في أخذه الناس بالهوادة والرفق.

---

١ - انظر صحيح البخاري كتاب التفسير سورة براءة حديث رقم ٤٦٥٤.

٢ - انظر صحيح البخاري كتاب التفسير سورة النصر باب قوله: {ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجاً} رقم الحديث ٤٦٨٥.

أسباب النزول

سبب النزول هو: ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه.

هذا هو تعريف أهل العلم[1] لسبب النزول، ومعنى قولهم: (أيام وقوعه) أن الأحداث المعتبرة في هذا المجال هي تلك التي كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد البعثة، فاذا حدثت حادثة في زمنه أو سؤال وجه اليه فنزلت الآية أو الآيات ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو جواب ذلك السؤال، كانت الحادثة أو السؤال سبباً للنزول.

وخرج من التعريف الأحوال المتقدمة على البعثة، كالحديث عن الأمم السابقة وخرج أيضاً الاحوال التي تكون بعهد عهد النبوة، كالحديث عن علامات الساعة، وخرج ايضاً ما نزل ابتداءً من غير سبب، اذ نزول القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداءً ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال.

أما مثال الحادثة فذلك الذي شرب الخمر وأمّ الناس في صلاته، ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقرأ {قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون} وحذف لفظ (لا) من (لا أعبد) فنزل قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون}[2].

ومثال السؤال ما حدث حين سألت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فقال صلى الله عليه وسلم: "غداً أخبركم"، فأبطا عليه الوحي خمسة عشر يوماً، ثم نزلت أجوبة تلك الاسئلة، ونزل في طياتها تعليم ادب الاستثناء بالمشيئة بقوله تعالى: {ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدني ربي لأقرب من هذا رشدا}[3].

والخلاصة أن مجالات أسباب النزول منحصرة في أمرين: جواب السؤال أو تصوير حدث وبيانه.

---

[1] - انظر مناهل العرفان ١/١٠٦.
[2] - النساء ٤٣.
[3] - الكهف ٢٣-٢٤.

الحاجة الى معرفة أسباب النزول وفوائدها:

لأسباب النزول فوائد متعددة والحاجة اليه ماسة، فكما لا نفهم النص الأدبي الا اذا عرفنا واقع كاتبه وظروفه، كذا القرآن لابد من معرفة سبب نزوله إن وجد، ومن فوائد معرفة السبب:

١ - معرفة حكمة الله على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، وادراك مراعاة الشرع للمصالح العامة في علاج الحوادث، وفي معرفة هذا نفع للمؤمن وغير المؤمن، إذ تزيد في ايمان المؤمن، وترغب غير المؤمن بالايمان بكشفها عن سمو مقاصد التشريع، مثال ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى}[١] نزل بسبب من صلى وهو سكران فخلط في قراءته حتى نطق بالكفر من غير أن يشعر، وسبب النزول يطلعنا على كيفية التدرج في تشريع الاحكام.

٢ – الاستعانة على فهم الآية ودفع الاشكال عنها، لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، مثال ذلك:

أ - قوله سبحانه وتعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم[٢]}، أشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنهما، وهو من علماء التابعين، فقال لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت قول الله تبارك وتعالى: {إن الصفا والمروة} الآية فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: كلا، لو كانت كما تقول كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أُنزلت هذه الآية في الانصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الاسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله: {إن الصفا والمروة} الآية(٣)- ومعنى يهلون أي يحجون، وقُديد بضم القاف: قرية بين مكة والمدينة – ولولا سبب النزول لما فُهم المعنى.

---

١ - النساء ٤٣.
٢ - البقرة ١٥٨.
٣ - اخرجه البخاري كتاب التفسير، سورة البقرة حديث رقم ٤٢٢٥.

ب - ومثاله أيضاً: قوله سبحانه وتعالى: {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله}[1] إذا الظاهر من اللفظ الكريم أن للانسان أن يصلي الى أية جهة، وأن الجهات كلها سواء فالتوجه الى القبلة غير واجب، لا في سفر ولا في حضر.

لكن لما علمنا أن الآية نزلت في نافلة السفر ذهب أكثر العلماء الى أن للمتنفل أن يصلي على راحلته الى أي جهة، وكذا المجتهد في القبلة اذا صلى وتبين له خطؤه لا شيء عليه، اذ قيل في سبب نزول الآية: إن القبلة عميت على قوم فصلوا الى انحاء مختلفة ولما اصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا.

ت - ومثاله أيضاً قوله سبحانه وتعالى: {لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب}[2]، إذ أشكلت على مروان بن الحكم فقال لبوابه: اذهب يا رافع الى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه، إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم اليهود فسألهم عن شيء فكتموه اياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا اليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كلماتهم[3]، فزال الاشكال وفهم مراد الله من كلامه.

ولا يخفى أن الآية ما أشكلت على مروان بن الحكم الا لظنه أن كل من فرح بما أتى وأحب أن يُحمد يعذب عذاباً اليماً، وفي هذا مشقة ظاهرة، لأن الانسان مجبول على الفرح وحب الحمد، فبين له ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية إنما أنزلت في يهود حينما كتموا ما عندهم، وأخبروه كذباً بما رأوا أنهم استحمدوا عليه، فالآية إذن لا تتناول من يفرح بما أتى من خير، وانما يتناول من يفرح بالشر كما وقع مع يهود[4]، فتعم كل من كان على شاكلتهم.

إن الأمثلة السالفة الذكر تدل دلالة واضحة على أن الجهل بالسبب يوقع العالم في الحرج.

---

[1] - البقرة ١١٥.

[2] - آل عمران ١٨٨.

[3] - أخرجه البخاري كتاب التفسير سورة آل عمران رقم حديث ٤٢٩٢.

[4] - انظر البيان في مباحث من علوم القرآن عبدالمجيد غزلان ص ١٠٣.

٣ – دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر نحو قوله تعالى: {قل لا أجد فيما أوحي الي محرماً على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به}[١]، قال السيوطي: (قال الشافعي في معناه: إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله وكانوا على المضادة والمحادة فجاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لاحرام الا ما حللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه، اذ القصد اثبات التحريم لا اثبات الحل) انتهى[٢].

٤ – معرفة فيمن نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها، حتى لا يشتبه بغيره، مثاله قوله تعالى: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير}[٣]، نزلت في خولة بنت ثعلبة اشتكت زوجها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٥ – معرفة أن صورة السبب غير خارجة عن النص العام والحكم الذي نزل عليها وان ورد مخصص لها، ولا يجوز اخراج تلك الصورة بالاجتهاد، وهو رأي الجمهور الذين يرون أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

مثاله قوله تعالى: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم}[٤] نزلت فيمن رمى عائشة رضي الله عنها، وهذا الحكم خاص فيمن قذف عائشة ويقاس عليه من قذف زوجة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فهو حكم خاص بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، من قذفهن ملعون لا تقبل توبته أبداً.

والحكم العام أن من قذف محصنة تقبل توبته إن تاب وأُقيم عليه الحد قال تعالى: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا

---

١ - الانعام ١٤٥.

٢ - الاتقان ١/٣٠.

٣ - المجادلة ١.

٤ - النور ٢٣.

لهم شهادة أبداً واولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم}[1].

ففائدة سبب النزول هنا أنه لا يجوز اخراج صورة السبب وهي قذف احدى زوجات النبي من الحكم العام وإن ورد مخصص لذلك العام، فمن قذف واحدة من أمهات المؤمنين لا تقبل توبته والله تعالى أعلم.

ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش" ورد في أمة، فلا يجوز اخراج الأمة من الحكم وإن كان اللفظ عاماً.

٦ – تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ وسيأتي بإذن الله بيان الاختلاف في هذه المسالة عن قريب.

٧ – تيسير الحفظ وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن من يسمع الآية اذا عرف سببها، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات أدعى الى تقريرها في الذهن وانتقاشها، بالاضافة الى سهولة استذكارها.

شروط العلماء للأخذ بالسبب:

لا طريق لمعرفة سبب النزول الا النقل والرواية عمن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وهم:

١ - الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فإذا روي سبب نزول عن صحابي فهو مقبول، لأنه لا مجال لاجتهاده في هذا المجال، فله حكم المرفوع.

٢ – التابعون، فإذا روي سبب النزول مرسلاً – أي سقط من سنده اسم الصحابي – فهو مقبول أيضاً لكن يشترط فيه أن يعضد بمرسل آخر وأن يكون الراوي من أئمة التفسير.

قال الواحدي: لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطلب.

---

[1] - النور ٤-٥.

وذهب السيوطي الى أن قول التابعي في أسباب النزول يقبل اذا صح المسند اليه وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك[1].

صيغ السبب:

اختلفت عبارات الرواة في التعبير عن أسباب النزول، فمنها ما هو صريح في السببية، ومنها ما ليس صريحاً، ومن العبارات التي تُعد نصاً في سبب النزول الصيغ التالية:

١ – أن يقول الراوي: سبب نزول الآية كذا، فتكون نصاً صريحاً.

٢ – أن يؤتى بفاء داخلة على مادة نزل عقب سرد الحادثة، وهذه لها حكم النص.

٣ – أن يروى أن الرسول سئل فأوحي اليه، وأجاب عما نزل، فالسببية حينئذٍ مفهومة من المقام قطعاً.

أما غير ذلك فلا يُعد نصاً في أسباب النزول ويسمى غير صريح، وذلك كما اذا قال: نزلت الآية في كذا، أو أحسب أنها نزلت في كذا، وغير ذلك مما يحتملها ويحتمل غيرها.

تعدد السبب والنازل واحد:

يذكر المفسرون لنزول الآية أحياناً أسباباً متعددة، وللوقوف على السبب لابد من تمحيص الروايات، أو الجمع بينها أو قبولها جميعاً، وذلك يتوقف على التفريق بين صريح الروايات وغير الصريح منها بناء على ما سبق بيانه في صيغ النزول، فلا تخلو الروايات من حالات ثلاث:

الحالة الأولى : أن تكون الروايات غير صريحة، فلا تعتمد في أسباب النزول ولكنها تُعد من التفسير لبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها، وليس المراد ذكر سبب النزول.

---

[1] - الاتقان ١/٣١.

الحالة الثانية : أن تكون بعض الروايات صريحة والاخرى غير صريحة، والمعتمدة حينئذ الروايات الصريحة. مثال ذلك: اختلاف المفسرين في سبب نزول قوله تعالى: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم}[١]، فقد وردت رواية غير صريحة في سبب نزوله إذ ذكر الواحدي ومثله قال ابن جرير الطبري: إنها نزلت في بختنصر البابلي المجوسي واصحابه خربوا بيت المقدس وأعانهم على ذلك النصارى وأمر أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بني اسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام[٢].

ولا يخفى أن هذه الحادثة لم تكن أيام نزول هذه الآية، والعلماء يشترطون في سبب نزول الآية أن يكون الحدث أو السؤال أيام النزول، ولذلك لم يعدوا هذه الرواية من أسباب النزول، وإنما الرواية الصريحة تلك التي رويت عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً منعوا النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام فأنزل الله: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه} وهذا الذي رجحه ابن كثير[٣].

الحالة الثالثة : أن تكون الروايات جميعها صريحة، ولا تخلو حينئذٍ من أن تكون صحيحة أو غير صحيحة، فهي قسمان:

القسم الأول : روايات بعضها صحيح وبعضها غير صحيح والمعتمد منها هو الصحيح مثال ذلك سبب نزول قوله تعالى: {والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى}[٤] فقد ورد فيه روايتان صريحتان احداهما صحيحة والاخرى غير صحيحة، أما غير الصحيحة فأخرجها الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جرواً دخل بيت النبي

---

[١] - البقرة ١١٤.
[٢] - انظر الروايات في تفسير ابن كثير ١/٢١٦.
[٣] - انظر تفسير ابن كثير ١/٢١٦.
[٤] - الضحى ١-٣.

صلى الله عليه وسلم فدخل تحت السرير فمات فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا يأتيني؟ فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ترعد لحيته وكان اذا نزل عليه أخذته الرعدة فأنزل الله: {والضحى} الى قوله تعالى {فترضى}[1].

وأما الرواية الصحيحة المعتمدة ففي البخاري عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله عزّ وجلّ: {والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى}[2].

القسم الثاني: روايات متساوية في الصحة،وللحكم على هذه الروايات تتبع الطرق التالية:

الاولى: الترجيح بأحد وجوه الترجيحات، مثال ذلك تلك الروايات الصحيحة في سبب نزول قوله تعالى: {قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً}[3]، فقد روى البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث وهو متكىء على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح فقال: ما رابكم اليه، وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشي تكرهونه، فقالوا: سلوه فسألوه عن الروح فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يردّ عليهم شيئاً فعلمت أنه يوحى اليه، فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا}[4].

[1] - الاتقان ١/٣٢.
[2] - رواه البخاري كتاب التفسير باب سورة الضحى.
[3] - الاسراء ٨٥.
[4] - رواه البخاري كتاب التفسير باب سورة بني اسرائيل.

وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: اسالوه عن الروح، فسألوه فأنزل الله: {ويسألونك عن الروح} الاية[1].

والراجح الرواية الأولى لسببين:

الأول: أنها رواية البخاري رحمه الله في صحيحه وقد تلقته الأمة بالقبول.

والثاني: أن الراوي ابن مسعود رضي الله عنه كان حاضر القصة.

تنبيه : عدّ الزركشي هذه الآية مما تكرر نزولها وقال: معلوم أن هذه في سورة سبحان وهي مكية بالاتفاق[2]، ورجحّ القطان[3]عدم تكرار النزول، لان كون السورة مكية لا ينفي أن تكون آية منها - أو اكثر – مدنية، والقول بعدم التكرار أرجح وأولى .

الثانية : الجمع بين الروايات بأن يكون نزول الآية أو الآيات عقيب السببين أو الأسباب المذكورة، بأن لا تكون معلومة التباعد، مثاله روايات سبب نزول قوله تعالى: {والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين}. الى قوله تعالى: {إن كان من الصادقين}[4].

ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد أن عويمراً أتى عاصم بن عدي وكان سيد بني عجلان. فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره المسائل وعابها، قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فجاء عويمر فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امراته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سمى الله في كتابه "الحديث"[5].

---

[1] - الاتقان ١/٣٢.

[2] - البرهان ١/٣٠.

[3] - مباحث في علوم القرآن للقطان ٨٩.

[4] - النور ٦ — ٩.

[5] - رواه البخاري كتاب التفسير بباب تفسير سورة النور.

والرواية الثانية أيضاً في البخاري عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سمحاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: البيّنة أو حدّ في ظهرك فقال: يا رسول الله اذا رأى أحدنا على امراته رجلاً ينطلق يلتمس البينة!! فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: البينة والا حدّ في ظهرك. فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلنّ الله ما يُبرىء ظهري من الحدّ فنزل جبريل وأنزل عليه {والذين يرمون أزواجهم} فقرأ حتى بلغ {إن كان من الصادقين}[1].

قال السيوطي: جُمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف أن جاء عويمر ايضاً فنزلت في شأنهما معاً والى هذا جنح النووي فقال:لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد[2].

الثالثة : الحكم بتعدد النزول وذلك إن لم يمكن الجمع مثاله في سبب نزول قوله تعالى: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين}[3]، إذ ورد في ذلك روايات يصعب الترجيح والجمع بينهما أما الرواية الأولى ففي البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت ابا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده ابو جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أي عم قل: لا اله الا الله احاج لك بها عند الله، فقال ابو جهل وعبدالله ابن ابي أمية: يا ابا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لاستغفرن لك مالم أُنه عنك فنزلت"[4].

والرواية الثالثة : في مستدرك الحاكم عن ابن مسعود قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوماً الى المقابر فجلس الى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر امي، واني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل عليّ {ما كان للنبي} الآية[5].

---

[1] - رواه البخاري كتاب التفسير الباب السابق نفسه.
[2] - الاتقان للسيوطي ١/٣٣.
[3] - التوبة ١١٣.
[4] - البخاري كتاب التفسير باب سورة التوبة.
[5] - التوبة ١١٣.

تنبيه : قضية تكرر النزول مختلف فيها بين العلماء، فبعضهم يرى امكانية التعدد في النزول، وبعضهم ينكره، وممن يؤيده الزركشي اذ قال: (قد ينزل الشي مرتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه، وهذا كما قيل في الفاتحة: نزلت مرتين، مرة بمكة، وأخرى بالمدينة)[1]، وفي الآية موطن البحث ذكر الزركشي قصة ابي طالب، وقال:وأنزل الله في أبي طالب: {إنك لا تهدي من أحببت}[2]وهذه الآية نزلت في آخر الامر، بالاتفاق، وموت ابي طالب كان في مكة، فيمكن أنها نزلت مرة بعد أخرى، وجعلت اخيراً في براءة والحكمة في هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فتُودي تلك الآية بعينها الى النبي صلى الله عليه وسلم تذكيراً لهم بها، وبأنها تتضمن هذه، والعالِم قد يحدث له حوادث، فيتذكر أحاديث وآيات تتضمن الحكم في تلك الواقعة وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل مع حفظة لذلك النص) انتهى[3]، وسكت السيوطي في الاتقان على تعدد النزول، فذكره دون تعقيب، وأيّد الزرقاني فقال:إن هناك حكمة عالية في هذا التكرار وهي تنبيه الله لعباده ولفت نظرهم الى مافي طي تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة والفوائد الجمة التي هم في أشد الحاجة اليها[4].

وأنكر القطان وعدّه من الوجوه غير المستساغه ولجأ الى الترجيح في الرواية موطن البحث، فرجح رواية الشيخين، أن الآية نزلت في أبي طالب[5].

أقول: نزول الآية أكثر من مرة يقتضي أن تثبت في المصحف في مواضع توافق عدد نزولها وقد نزلت آيات كثيرة مرتين واثبتت في المصحف في موضعين، وهذا يؤيد ما ذهب اليه القطان اضافة الى عدم الدليلٍ على تكرارالنزول ، والله أعلم.

---

[1] - البرهان ١/٢٩.
[2] - القصص ٥٦.
[3] - البرهان ١/٣١.
[4] - مناهل العرفان ١/١٢١.
[5] - مباحث في علوم القرآن ٩١.

معرفة المناسبات بين الآيات وعلاقتها بالاسباب:

المناسبة علم شريف، تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة المقاربة، وفلان يناسب فلاناً أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل، كذا قال الزركشي[١].

والمناسبة: وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة أو بين السورة والسورة[٢] ومن وجوه الارتباط ارتباط الخاص بالعام، والعقلي بالحسي، والسبب بالمسبب، والعلة بالمعلول وغير ذلك.

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً باعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الاجزاء[٣].

لقد اعتنى المفسرون بهذا اللون، وافرده بالتصنيف أبو جعفر بن الزبير المتوفي سنة (٨٠٧) في كتابٍ ذكر السيوطي[٤] أن اسمه البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن، وذكر الزركشي[٥] ان الله فتح عليه في هذا العلم، ولكنه جعله بينه وبين الله لما لم يجد له حَمَلة، والّف برهان الدين البقاعي كتاباً سماه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) وهو مطبوع وموجود في المكتبات العلمية.

إن الحاجة الى هذا العلم ماسة، خاصة وأنه ينبني عليه التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ولكنه لا ينبغي فيه التكلف والتعسف، اذ لا يلزم أن يكون لكل آية مناسبة، كما أنه لا يلزم أن يكون لها سبب نزول.

تقوم العلاقة بين السبب والمناسبة على أن كلاً منهما يحتاج اليه عند تفسير الآية ويعين على فهمها، وأما الفرق بينهما فيتمثل في النقاط التالية:

---

١ - البرهان ١/٣٥.

٢ - مباحث في علوم القرآن للقطان ٩٧.

٣ - البرهان ١/٣٦.

٤ - الاتقان ١/١٠٨.

٥ - البرهان ١/٣٦.

١ – معرفة السبب تتوقف على الرواية فهو توقيفي، أما المناسبة والربط بين الآيات فليس أمراً توقيفياً بل هو استنباطي توفيقي، يعتمد على اجتهاد المفسر ومبلغ تذوقه لاعجاز القرآن واسراره البلاغية.

٢ – سبب النزول يكون في الحدث قبل النازل، أما المناسبة فتكون في ذات النازل.

٣ – لا يجوز انكار سبب النزول اذا ثبتت روايته، أما المناسبة فلا يلزم الأخذ بها، اذ ما يظهر لواحد قد لا يظهر لآخر والعقول متفاوته.

٤ – للسبب علاقة في توجيه المناسبة وليس العكس.

انكر بعض المفسرين المناسبة وذلك لان القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة وفي الربط بين آياته تكلف ظاهر، والصواب أن التماس أوجه الترابط بين الآيات والسور مبني على أن ترتيب السور توقيفي فان القرآن نزل جملة واحدة مرتباً الى بيت العزة في السماء الدنيا.

تقديم المناسبة على السبب والعكس[1]:

يقدم المفسرون أحياناً المناسبة بين الآيات على سبب النزول، وذلك اذا رأوا هذه المناسبة هي المصححة لنظم الكلام، فاذا كان وجه المناسبة متوقفاً على معرفة السبب قدموا السبب.

مثال تقديم السبب على المناسبة: قوله تعالى: {ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا}[2] نزل في رجل من أهل الكتاب يسمى كعب بن الاشرف كان قدم الى مكة وشاهد قتلى بدر، وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم وغزو النبي صلى الله عليه وسلم

١ - انظر مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ١٥٠ وما بعدها.
٢ - النساء ٥١.

فسألوه من أهدى سبيلاً؟ المؤمنون أو هم؟ فتملق عواطفهم وقال: بل أنتم أهدى من المؤمنين سبيلاً.

وبعد أن تتعاقب الآيات في حق هذا الرجل وحق من شاركه في تلك المقالة من أهل الكتاب يتجه السياق القرآني الى آية جديدة في مقطع جديد يدور الحديث فيه حول أداء الامانات الى أهلها فيقول تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً}[1] وانما نزلت في شأن عثمان بن طلحة العبدري حاجب الكعبة لما أخذ منه رسول الله مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه، والعلماء المحققون يجدون الرابط المشترك بين هاتين الآيتين رغم الزمن البعيد بين نزولهما فان بينهما ست سنين، إذ يرون أن الذين تملقوا عواطف المشركين بقولهم: أنتم اهدى سبيلاً هم الذين يعلمون من المهتدي ويعرفون الرسول كما يعرفون ابناءهم، فخانوا الامانة وكانت حالهم في الخيانة كحال الذين يحملون الامانات ثم لا يحملونها.

وأما مثال تقديم المناسبة على السبب فقوله تعالى: {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى}[2]، فان الذي يتلو هذه الآية ليسأل أي رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت؟

---

١ - النساء ٥٨.
٢ - البقرة ١٨٩.

أجاب الزركشي[1] على السؤال من وجوه أشهرها:

١ – كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلة ونقصانها: معلوم أن كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها براً.

٢ – أنه من قبيل التمثيل لما هم عليه، من تعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم كمثل من يترك باباً، ويدخل من ظهر البيت، فقيل لهم: ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الاسئلة، ولكن البر من اتقى ذلك، فالاصل أن تباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها، ولا تعكسوا.

وواضح أن بيان هذا الارتباط في الآية أولى من السؤال عن سبب النزول الذي هو سؤال المشركين عن الأهلة.

هل لجميع آيات القرآن أسباب نزول؟:

ينقسم القرآن من حيث نزوله الى قسمين، قسم نزل عقب واقعة أو سؤال، وقد سبق الحديث عنه، وقسم نزل ابتداء لسبب عام هو تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته، ومن هذا القسم:

١ – الجانب العقدي الذي نزل لترسيخ العقيدة السليمة ونبذ الشرك والوثنية والالحاد.

٢ – الجانب الاخباري ويشمل أمرين:

الأول : قصص الأمم الغابرة التي تهدف الى تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم ووعده بالنصر، ومنه تعرف سنة الله في الخلق.

الثاني: الاخبار المستقبلة التي تؤكد إعجاز القرآن وتثبت ربانيته.

---

[1] - راجع البرهان ١/٤١.

٣ – الجانب الغيبي ويشمل العالم العلوي غير المنظور كعالم الملائكة والآخرة بحوادثها ومجرياتها.

٤ – جانب الهداية وعرض خفايا الكون، وعجائب المخلوقات، وألوان التدبر والتأمل.

وأما قول بعض الصحابة: (لم تنزل آية الا أعلم فيما نزلت وفيمن نزلت وأين نزلت) فلا يؤخذ بالمعنى الحرفي، انما هو على طريقة العرب في المبالغة، أو أنه لبيان فضل الصحابة وتميزهم عن غيرهم.

ولعل هذا هو الذي جعل بعض العلماء يخطىء في أسباب النزول، اذ جعل الاخبار عن الوقائع الماضية من أسباب النزول قال السيوطي: (والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه) ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به، فان ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك، وكذلك ذكره في قوله: {واتخذ الله ابراهيم خليلا}[1] سبب اتخاذه خليلاً، فليس ذلك من أسباب النزول كما لا يخفى) انتهى[2].

أقول : قد يعتذر عن الواحدي بأمرين هما:

١ – أنه لم يكن معدوداً بين المؤرخين.

٢ – أنه كان يذكر الرأي دون تعليق اكتفاء بنسبته الى قائله والله تعالى أعلم.

---

[1] - النساء ١٢٥.

[2] - الاتقان في علوم القرآن ١/٣١.

هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟:

للنازل مع السبب من حيث العموم والخصوص ثلاث حالات:

الحالة الأولى: اتفاق النازل والسبب في الخصوص، فقد تنزل الآيات على الاسباب الخاصة ولا عموم للفظها، وحينئذ يقصر الحكم على السبب الخاص قطعاً، كقوله تعالى: {وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى}[1] فانها نزلت في أبي بكر الصديق بالاجماع، كما ذكر السيوطي[2].

وعلى ضوء هذا لا يجوز اجراء هذه القاعدة على كل من عمل كعمل أبي بكر الصديق المذكور، لأن الآية لا تحمل صيغة العموم، وإنما يفهم المعنى من نصوص أخرى كقوله تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}[3]، أما من ذلك النص فلا.

فان قيل: الالف واللام في (الأتقى) تفيد العموم فاللفظ عام؟

أجيب : الالف واللام انما تفيد العموم بحالتين:

١ – اذا كانت موصولة.

٢ – أن تكون معرفة في جمعٍ أو مفرد بشرط أن لا يكون هناك عهد.

وكلا الحالتين غير منطبقة على "الاتقى" فهي ليست موصولة، لأن الموصولة لا توصل بأفعال التفضيل {والاتقى}، ليس جمعاً بل مفرد، فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه[4].

---

[1] - الليل ١٧-١٨.
[2] - الاتقان ١/٣٠.
[3] - الحجرات ١٣.
[4] - الاتقان ١/٣٠.

الحالة الثانية: إتفاق النازل والسبب في العموم فيحمل على العموم، كقوله تعالى: {يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم}[1] وكلها الفاظ عموم والسبب عام.

الحالة الثالثة: أن يكون السبب خاصاً ويكون النازل عاماً، فهل العبرة بعموم اللفظ النازل أم بخصوص السبب؟

قال الجمهور: العبرة بعموم اللفظ واستدلوا بأدلة كثيرة منها:

١ – الاتفاق على أن الآيات التي نزلت في أسباب تتعدى الى غير أسبابها كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر وآية اللعان في شأن هلال بن أمية وحد القذف في رماة عائشة ثم تعدى الى غيرهم.

٢ – أن احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على اسباب خاصة كان شائعاً ذائعاً بينهم.

وذهب جماعة الى أن العبرة بخصوص السبب، للأدلة التالية:

١ – أن بعض النازل جاء خاصاً مقصوراً على سببه، واللفظ العام دليل سببه ولا بد من دليل آخر لغيره من الصور، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة، ولولا هذه الفائدة لما نقل الصحابه الكرام هذه الاسباب.

واجيبوا بأن الفائدة من ذكر السبب حاصلة بل إن الصحابة الكرام الذي شاهدوا التنزيل نقلوا عن القرآن الكريم نزولاً وتفسيراً كل شيء، ولو لم يكن في ذلك الا اثبات حرصم على كتاب الله وعنايتهم به لكفى، فكيف اذا أدت الى زيادة الفهم والانتقاش في الذهن؟ وسهل استذكارها؟ ثم ان الذين نقلوا السبب الخاص للفظ العام هم الذين أبقوا اللفظ العام على عمومه وطبقوه على نظائر السبب.

---

[1] - الانفال ١.

٢ – واستدلوا بان الجواب يطابق السؤال، ولو كانت العبرة بعموم اللفظ لكان اللفظ الذي هو بمنزلة الجواب غير مطابق للسبب وهذا نقص لا يجوز في كلام الله، وأجيبوا على هذا بان اجابة السائل على سؤاله والزيادة عليه فائدة عظيمة، فلا يلزم تطابق السؤال الجواب، بل الأسلم اجابة الجميع ليكون نبراساً يقوّمون به افعالهم، ولو اقتصر الجواب على السؤال فقط لضاعت الثمرة المرجوة للجميع.

ولا يغيبن عن فكرك أن أهل هذا الرأي لا يقولون إن عموميات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وانما غاية ما يقال: إن اللفظ لايتناول غيره، ولا يمنع أن يدخل غيره بالقياس فالنتيجة واحدة،والجمهور يدخلون نظائر السبب بالنص والمخالفون يدخلونها بالقياس.

الكتب المؤلفة في أسباب النزول:

قال السيوطي: (أفرده بالتصنيف جماعة، أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري، ومن أشهرها كتاب الواحدي على ما فيه من اعواز، وقد اختصره الجعبري، فحذف اسانيده ولم يزد عليه شيئاً وألف فيه شيخ الاسلام أبو الفضل بن حجر كتاباً مات عنه مسودة، فلم نقف عليه كاملاً، وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله في هذا النوع سميته لباب النقول في أسباب النزول) انتهى[1].

أقول: كتاب السيوطي مطبوع، وكتاب الواحدي كذلك واسمه: أسباب النزول.

---

[1] - الاتقان ١/٢٨.

المكي والمدني

تآزرت الأمة المحمدية سلفاً وخلفاً على حفظ القرآن الكريم، ورسمه، وصيانته عن التحريف والزيادة والنقصان، كما تميزت عن سائر الأمم بمعرفة أحوال نزول كتابها، وتاريخ نزول آياته، وقصصه، وأخباره، وذلك راجع الى توافق العقل البشري مع مبادىء تلك الرسالة الخالدة، واستجابة الناس السريعة لاحكامه التشريعية، ونظمه الاصلاحية، لذا كان أول المسارعين اليه الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

ولم ينقص حال المكي والمدني في مجال معرفة الصحابة الكرام له عن سائر علوم القرآن، بل كانوا يتسابقون اليه، ويتنافسون فيه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: (والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله الا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آية في كتاب الله الا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه)[١]، وكذا عُني التابعون، ومن تبعهم من العلماء بنزول القرآن عناية فائقة، ولا شك أن هذا العلم يتضمن في ثناياه المكي والمدني، إذ يتضمن مراعاة الزمان والمكان والخطاب، وهذا تحديد دقيق يعطي الباحث المنصف صورة التحقيق العلمي الذي سار عليه علماؤنا السابقون واللاحقون.

وحسبنا للدلالة على ما عاناه العلماء في تتبع مراحل نزول الوحي بعض الروايات الصحيحة التي تدل دلالة واضحة على عناية العلماء، التي بلغت أقصى ما يبلغه الباحثون من التحري والدقة، إذ لم يفتهم في هذا المجال أبسط التفصيلات، ومن تلك الروايات ما يتعلق بنزول سورة الفتح ليلاً، ففي البخاري[٢] (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب ثكلت امُّ عمر، نَزَرْتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك!! قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن، فما نشبتُ أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمتُ عليه

---

١ - أخرجه البخاري – كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.
٢ - صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفتح.

فقال: لقد أُنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبُ اليّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً}.

ومثال ما نزل في الثلث الآخر من الليل حديث كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم بعد تخلفهم عن غزوة تبوك قال كعب رضي الله عنه: فأنزل الله توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الآخر من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة) رواه البخاري[1].

وهناك روايات تصور نزول الآيات شتاءً أو صيفاً، سفراً أو حضراً، وليس هذا موطن بحثها وسردها.

معنى المكي والمدني:

للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات[2]:

الأول: المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، وتدخل الضواحي من البلدين فيهما، وهذا بالنظر الى المكان، وهذا القول غير منضبط ولا منحصر، لأن كثيراً من القرآن نزل في غير مكة والمدينة وضواحيهما، فسورة التوبة نزل أكثرها في تبوك، وعليه لا يطلق المكي والمدني على ما نزل بالأسفار.

الثاني: المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، وعليه يحمل قول القائل: ما صدر بلفظ {يا أيها الناس} فهو مكي، وما صدر بلفظ {يا أيها الذين آمنوا} فهو مدني، وهذا بالنظر الى المخاطب، وهو غير مطرد، اذ سورة البقرة مدنية وفيها {يا أيها الناس} فلا يصلح تعريفاً للمكي والمدني، لأنه غير حاصر.

الثالث: وهو المشهور: أن المكي ما نزل قبل هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة وان كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وان كان نزوله بمكة، وهذا التقسيم لوحظ فيه زمن النزول، وهو تقسيم صحيح سليم، لانه حاصر ومطرد بخلاف سابقيه، ومن هنا عدّو قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا}[3] مدنياً رغم الاتفاق على نزوله يوم الجمعة بعرفة

---

[1] - صحيح البخاري، كتاب التفسير تفسير سورة براءة.
[2] - مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ١٦٨.
[3] - المائدة ٣.

في حجة الوداع، ومن ضوابط هذا القول أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحاً، لان المدني ما نزل بعد الاقامة بالمدينة.

طرق التأليف في المكي والمدني:

أحاط علم المكي والمدني بمعارف كثيرة تتعلق بتنزيل القرآن، متى نزل، وكيف؟ وأين؟ ووفاء هذا العلم بتلك المعارف الواسعة جعل بحوثه ألواناً وترتيبه أشكالاً، فهو في آن واحد ترتيب زماني، وتحديد مكاني، وتبويب موضوعي، وتعيين شخصي، فمن قال: (المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة) لاحظ المكان، ومن قال: (المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة) راعى أشخاص المخاطبين، ومن آثر الأخذ بالاصطلاح المشهور (المكي ما نزل قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمدني ما نزل بعد الهجرة) عُني بالترتيب الزمني في مراحل الدعوة الاسلامية.

بقي نوع رابع هو التبويب الموضوعي، يلمحه بعض العلماء، وذكر الزركشي أمثلته في كتاب البرهان[1] تحت باب: ما نزل بمكة وحكمه مدني، وباب ما نزل بالمدينة وحكمه مكي، ومن أمثلة النوع الأول قوله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا} الآية[2]، نزل بمكة اذا التمسنا المكان، ويوم الفتح بعد الهجرة إن تحرينا الزمان، والغاية منه الدعوة الى التعارف وتذكير الانسانية بوحدة أصلها، وهو خطاب يصلح أن يكون خطاباً لأهل المدينة ولأهل مكة على السواء، فما سماه العلماء مكياً على الاطلاق ولا مدنياً على التعيين، بل أدرجوه في باب ما نزل بمكة وحكمه مدني.

ومن أمثلة النوع الثاني سورة الرعد بتمامها نزلت بعد الهجرة، فهي مدنية زماناً، وهي خطاب لأهل مكة اذا راعينا الاشخاص المخاطبين، وعدها العلماء مما نزل بالمدينة وحكمه مكي، ومثلها سورة الممتحنة.

---

[1] - البرهان ١/١٩٥.
[2] - سورة الحجرات ١٣.

التبويب المعتمد:

بأدنى تأمل يظهر بلا تردد أن التبويب الزماني هو المنضبط، أما باعتبار الاشخاص ففي القرآن آيات مدنية تصلح خطاباً لأهل مكة والعكس، وباعتبار المكان تخرج عن التبويب السورُ التي نزلت في غير مكة والمدينة، كتبوك وخيبر وغيرهما، فهي أمور ثانوية.

الفرق بين المكي والمدني:

ينبني التفريق بينهما على اصطلاحات العلماء في تعريفهما، وقد سبق بيان الاعتبارات الخاصة بكل فريق، فمهنم من اعتبر الزمان، ومنهم من اعتبر المكان، أو الاشخاص المخاطبين، أو الموضوع، وبذلك يكون الفرق بينهما من وجوه أربعة:

الأول: باعتبار زمن النزول، يكون المكي ما نزل قبل الهجرة أما المدني فما نزل بعدها، فقوله سبحانه: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها}[١] نزل بمكة بعد الهجرة فالآية مدنية.

الثاني: باعتبار المكان، المكي ما نزل بمكة وما جاورها، والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها، ولايدخل تحت هذه القسمة ما نزل في غيرهما.

الثالث: باعتبار المخاطب، المكي خطاب لأهل مكة، والمدني لأهل المدينة وهو غير مطرد، فبعض الخطاب المكي يصلح لأهل المدينة والعكس، ففي سورة البقرة المدنية قوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون}[٢].

الرابع: باعتبار الموضوع ما نزل لتصويب العقائد مكي، وما أريد به تفصيل الأحكام والتشريعات فهو مدني، وهو اعتبار غير دقيق، وتفريق غير منضبط.

---

١ - النساء ٥٨.

٢ - البقرة ٢٠.

تقسيمات المستشرقين للمكي والمدني:

حاول بعض المستشرقين ترتيب القرآن زمنياً، وفاتهم الاعتماد على الروايات الصحيحة، مما أوقعهم في التخبط وعدم التمحيص، كما فاتهم ضبط تقسيماتهم بضوابط فتناقضت الأقوال وتعارضت، وحصل الخطأ، وجانبوا الصواب، ومن أمثلة ذلك محاولة وليم موير william Muir التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر، ومن خلالها رتب سورة القرآن مقسمة الى ست مراحل، خمس في مكة، والسادسة في المدينة، واعتمد فيها الى حد غير قليل على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلمٍ وأسانيدها بعد دراستها دراسة نقدية حشد لها الكثير من معلوماته التاريخية، ولكنه وقع في أخطاء عديدة، وأخذ بروايات واهية.

ومنها محاولة ويل Weil التي بدأت سنة ١٨٤٤، ولم يُقم فيها وزناً للروايات الاسلامية، إذ قسم المراحل القرآنية الى أربع مراحل، ثلاث في مكة، والرابعة في المدينة. وتابعة على ذلك المستشرق نولد كه Noldeke، وتأثر به بل Bell وبلا شير Blachere[1].

ان هذا التقسيم وأشباهه مما لا ضابط له ولا سند لا يتفق قطعاً مع مناهج المسلمين في البحث والتحري والتدقيق، ولذا رفضت كل تلك المحاولات، وباتت الرواية الصحيحة هي الطريقة الوحيدة لترتيب القرآن أصح ترتيب زمني وأصلحة وأدقه، وكذا القياس عليها والاجتهاد برد النظائر الى أمثالها مما كوّن منهجاً خاصاً فريداً لا يعدله منهج، ولا يقوى على معارضته ما فعله المتخبطون السائرون في الظلام من غير نور ولا هدى.

[1] - مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ١٧٦.

مدة التنزيل وشبهات المستشرقين حولها:

أثار المستشرقون[1] شبهات حول عمر النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الوحي، محاولين بذلك التشكيك في منطلق الدعوة الاسلامية بمكة تتلوها محاولات اخرى للغض من قيمة المعلومات المأثورة المتعلقة بمراحل الوحي في مكة ثم في المدينة.

ومنطلق الاختلاف عدم ظفر الناس بنص يثبت عمر النبي صلى الله عليه وسلم، فالوارد هو قوله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: {فقد لبثت فيكم عُمراً من قبله أفلا تعقلون}[2]، والمفسرون غالباً يرجحون أنه اربعين سنة، مستلهمين ذلك من قوله تعالى في يوسف عليه السلام: {ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً}[3] وقوله تعالى: {ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة}[4].

فقد حدد النص الثاني أن بلوغ الأشد ببلوغ الاربعين ثم ان واقع السيرة المطهرة للنبي صلى الله عليه وسلم يدل على أنه أوحي اليه بعد الاربعين كما نص على ذلك الكثير من المفسرين[5].

أما المستشرقون فاعتمدوا ما درج عليه العرب من اضفاء صفة السحرية على رقم الاربعين، وأنه ينطوي على أعمق الاسرار، وادّعوا أن الروايات اضطربت في هذا المجال، وجهلوا أن كثيراً من الارقام لا يتعدى المفهوم الرقمي العددي في الاحوال كافة.

وأقرب الأقوال أن عمر النبي صلى الله عليه وسلم عند بدء الوحي اربعين سنة وان النزول في مكة استمر ثلاث عشرة سنة وفي المدينة بعد الهجرة عشر سنين والله تعالى أعلم.

---

١ - انظر تفصيل الشبهات في مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ١٦٥.
٢ - سورة يونس ١٦.
٣ - سورة يوسف ٢٢.
٤ - الأحقاف ١٥.
٥ - انظر تفسير الرازي ٨/٣٢١ وتفسير ابن كثير ٢/٥٣٩.

علاقة المكي والمدني بمراحل الدعوة الاسلامية:

يختلف اسلوب الدعوة باختلاف المدعوين فتحتاج الى نهج خاص في الاسلوب إزاء الاختلاف في العقيدة والتشريع والآداب والاخلاق، وقد يكون ذلك النهج صعباً، لا يمكن للداعي من خلاله أن يصل الى مراده بسهولة ويسر، بينما إن كان الفساد مثلاً في غير العقيدة لم يكن الوصول الى التغيير معقداً كما في الوضع السابق.

والذي يقرأ القرآن الكريم مكيه ومدنيه يجد في القرآن المكي خصائص ليست في المدني، وان كان مبنى كل واحد منهما على الآخر، لكن الاسلوب يبقى مختلفاً نوعاً ما، إذ لما كان أهل مكة في جاهلية يتخبطون، ويعبدون الأوثان، ويشركون بالله، ويكذبون بيوم الدين، ويأكلون الحقوق، ويعتدون على ضعفائهم، وهم مع كل هذا أهل فصاحة ولسان وبيانٍ، ومحاجة، اتبع القرآن المكي طريقاً فريداً من أجل تكوين النواة الصالحة وتصويب العقيدة فجاء الوحي المكي قوارع زاجرة، وشبهاً منذرة، وحُججاً قاطعة، يحطم وثنيتهم ويدعوهم الى توحيد الألوهية والربوبية، ويسفه أحلامهم، ويقيم دلائل النبوة، ويضرب أمثلة للحياة والآخرة من الكون بما فيه من انسان وحيوان ونبات، وفسح للعقل المجال الرحب للتدبر والتفكير، وتحداه أن يأتي بمثل سورة واحدة مما أتى به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن تكونت النواة الصحيحة بارساء أسس العقيدة السليمة، وتكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، ونشأ جيل صالح قوي متمسك بعقيدته، مكافح عنها، صابر على أذى المشركين، وقد يأس المشركون من النيل منهم لانتقالهم الى المدينة المنورة، بعد كل هذا بات ضرورياً تفصيل الأحكام، وبيان حدوده، واسسه، فجاءت الآيات والسور المدنية طويلة المقاطع غير قصيرة شأن القرآن المكي، وحددت روابط الاسرة، ووثقت أواصر المجتمع، وأرست علائق الدعوة مع الامم المجاورة، وفضحت نوايا المنافقين، وجادلت أهل الكتاب في المدينة المنورة بالحق، حتى ظهر أمر الله في الجزيرة، وأصبح العالم بتمامه مهيأً لاستقبال الدين الجديد ولما احتاجوا للجهاد أُذن لهم بالقتال، وبرزت فوائد جهود الامة في

أصقاع الدنيا، ودخل دين الاسلام كل بيت بعدئذ بأساليب الدعوة المتعددة، ومنها صدق التعامل بالتجارة، وحسن الخلق، ولعلي لا أبالغ إن قلت: إن كل مسلم جعل من نفسه نموذجاً يحتذى به، فأثر ذلك النموذج الفريد في أنفس الناظرين ووقع في قلوبهم.

وبهذا يكون اسلوب القرآن المدني متمماً لما أرسته العقيدة السليمة من خلال القرآن المكي وكذا بارسائها اصول الاخلاق ودعائم الدين.

الآثار المترتبة على معرفة المكي والمدني:

لمعرفة المكي والمدني فوائد كثيرة، من أشهرها:

١ – تمييز الناسخ من المنسوخ[١]، فالمدني ناسخ للمكي إن كان موضوعهما واحداً، لأن المتأخر ينسخ المتقدم، غير أن هذا نادر.

٢ – الاستعانة به في تفسير القرآن، فان معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً.

٣ – الافادة منها لمراعاة مقتضى الحال في اسلوب الدعوة الى الله، لأن كل مقام يستلزم مقالاً يصلح له، وقد سبق بيان هذا عند بيان علاقة المكي والمدني بمراحل الدعوة الاسلامية.

٤ – ابراز العناية الفائقة التي حظي بها القرآن الكريم من قبل الاجيال المتعاقبة حتى وصل الينا سالماً من التغيير والتبديل.

٥ – الوقوف على تاريخ التشريع، وتدرج الشارع الحكيم بوجه عام في تربية الشعوب والأفراد، ومعالجة ظاهرة الكفر والالحاد.

٦ – توثيق السيرة النبوية، فان القرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة، وهو الذي يقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

[١] - الاتقان ١/٩.

كيفية معرفة المكي والمدني:

لمعرفة المكي والمدني أسلوبان:

الأول: سماعي، بما ورد عن الصحابة والتابعين، أما عن النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد بيان للمكي والمدني.

الثاني: قياسي، وهو عبارة عن ضوابط وخصائص كل منهما، وتفصيل ذلك:

أ - ضوابط المكي هي:

١ – كل سورة فيها لفظ كلا فهي مكية، وذكر هذا اللفظ ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها مكية، ولعل الحكمة أن أكثر أهل مكة جبابرة فتكررت هذه اللفظة للتعنيف والانكار.

٢ – كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

٣ – كل سورة ابتدئت بالحروف المقطعة فهي مكية لا الزهراوين (البقرة وآل عمران) فهما مدنيتان بالاجماع.

٤ – كل سورة فيها قصص الانبياء والامم السابقة، وهذا القيد غير مطرد، ففي البقرة ذكر ابراهيم وموسى عليهما السلام من حيث دعوة الانبياء أقوامهم لعبادة الله وحده والابتعاد عن الرذيلة.

٥ – كل سورة فيها ذكر ادم عليه السلام وابليس سوى البقرة.

٦ – كل سورة فيها (يا أيها الناس) وليس فيها (يا أيها الذين آمنوا) فهي مكية، وهذا غير مطرد، اذ سورة الحج مكية وفيها {يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا}[1].

٧ – كل سورة من المفصل فهي مكية، والمفصل هي سور القرآن من الحجرات الى الناس، وسميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السور.

---

[1] - الحج ٧٧.

ب – ضوابط المدني هي:

١ – كل سورة فيها الحدود والفرائض.

٢ – كل سورة فيها الاذن بالجهاد وبيان أحكامه.

٣ – كل سورة فيها ذكر المنافقين.

جـ – خصائص ومميزات المكي:

يكثر في القسم المكي من القرآن الأمور التالية:

١ – الحمل على الشرك والوثنية وابطاله بكل الأدلة، وضرب ابلغ الامثال، في أنهم يعبدون مالا ينفع.

٢ – الدعوة الى توحيد الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وألوهيته والايمان بالبعث والجزاء والوحي، واقامة الأدلة من الكون ومن أنفسهم وفتح عيونهم على شواهد الحق.

٣ – الحديث عن العادات القبيحة كالقتل وسفك الدماء ووأد البنات واكل مال اليتيم.

٤ – شرح لهم أصول الاخلاق وحقوق الاجتماع، وحبب اليهم الايمان والطاعة والاخلاص وبر الوالدين واكرام الجار.

٥ – ذكر قصص الانبياء والرسل والامم السابقة ووعظهم بسننه الكونية في اهلاك الطغيان وانتصار الايمان.

٦ – الايجاز في الخطاب، وقصر الآيات، وقصر السور لأنهم أهل فصاحة.

د – خواص القسم المدني:

١ – التحدث عن دقائق التشريع وتفاصيل الاحكام وانواع القوانيين من عبادات ومعاملات ومن الاحوال الشخصية والعلاقات الدولية وغيرها.

٢ – دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى الى الاسلام ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة وتحريفهم لكتاب الله.

٣ – الاطناب والتطويل في الآيات والسور للبسط والاسهاب.

مباحث المكي والمدني:

يدرس العلماء في المكي والمدني أنواعاً غير التي اتفق على مكيتها أو مدنيتها من السور والآيات، ومن ذلك:

١ – آيات مكية في سور مدنية، كقوله تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}[١] فانها نزلت بمكة قبل الهجرة لما تآمر المشركون في دار الندوة على قتل النبي صلى الله عليه وسلم، وهي آية من سورة الأنفال المدنية التي نزلت بعد غزوة بدر.

٢ – آيات مدنية في سور مكية، كالآيات الثلاث من سورة الانعام: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم} الى آخر الآيات[٢]، وسورة الانعام مكية.

٣ – ما يشبه المكي من المدني في الخصائص والطابع العام، كقوله تعالى في سورة الانفال المدنية: {واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم}[٣]، فان الآية على نمط السور المكية.

٤ – ما يشبه المدني في المكي، كقوله تعالى: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم}[٤]، قال السيوطي: الفواحش كل ذنب فيه حد والكبائر كل ذنب عاقبته النار، واللمم ما بين الحدين من الذنوب ولم يكن بمكة حد ولا نحوه[٥].

٥ – ما حمل من مكة الى المدينة، ومثاله سورة الاعلى، {سبح اسم ربك الاعلى} حملها أوائل المهاجرين، وكذا كل ما حمله المهاجرون من القرآن وعلموه الانصار.

٦ – ما حمل من المدينة الى مكة، ومثاله أوائل سورة التوبة، حملها علي ابن أبي طالب ولحق بها ابا بكر الصديق وكان أميراً على الحج آنذاك فأذن فيهم بالايات وابلغهم ألا يحج بعد العام مشرك.

وهناك مباحث أخرى تتعلق بالسفري الحضري والشتائي الصيفي، فصّلها السيوطي في كتاب الاتقان .

---

١ - الانفال ٣٠.
٢ - الانعام ١٥١-١٥٣.
٣ - الانفال ٣٢.
٤ - النجم ٣٢.
٥ - الاتقان ١/١٨.

الناسخ والمنسوخ:

تختلف مصالح الناس باختلافهم، وبتجدد ظروفهم واحوالهم، ومن أجل مواكبة مصالح الناس جاءت بعض الاحكام مخصوصة بزمان، ومُناطة حكمته بوقت، فإذا انتهى الوقت المعلوم انتهت المصلحة، وحينئذ لا بد من تشريع جديد للحكم، تتجدد به مراعاة المصلحة، مثال ذلك اباحة زواج الأخ من أخته لابناء آدم عليه السلام، إذ لا مفر من ذلك، ولما اتسعت الدائرة وأمكن اجتناب زواج الأرحام أتت الشرائع بما يحرم ذلك ويمنعه.

لكن هذا لا ينطبق على كل حكم، فالعقيدة مثلاً لا يطرأ عليها تغيير، ومن هنا اتفقت دعوة الرسل جميعاً الى توحيد الله سبحانه وتعالى، فقال الله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون}[1].

وفي الشريعة الاسلامية نسخت بعض الآيات المتعلقة بالأحكام، وأقبل العلماء على التأليف في هذا العلم القرآني، وحصر الآيات المنسوخة، قال السيوطي: (أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون، منهم أبو عبيد القاسم بن سلام، وابو داوود السجستاني وأبو جعفر النحاس، وابن الانباري، ومكي، وابن العربي وأخرون، قال الائمة: (لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله الا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال علي لقاصٍّ: أتعرف الناسخ من المنسوخ قال لا: قال: هلكت وأهلكت) انتهى[2].

تعريف النسخ:

النسخ في اللغة: يطلق على معانٍ منها:

الأول: إزالة الشي وإعدامه، تقول: نسخت الشمس الظل، كقوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته}[3].

الثاني: نقل الشي وتحويله مع بقائه في نفسه، كقوله تعالى: {انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون}[4].

---

[1] - سورة الانبياء ٢٥.
[2] - الاتقان٢/٢٠.
[3] - الحج ٥٢.
[4] - الجاثية ٢٩.

النسخ في الاصطلاح: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي مترخٍ عنه.

ومعنى رفع الحكم: قطع تعلقه بأفعال المكلفين، لا رفعه هو، لأنه امر واقع.

والحكم الشرعي هو: خطاب الله المتعلق بافعال المكلفين، إما على سبيل الطلب أو الكف أو التخيير.

والدليل الشرعي: هو وحي الله مطلقاً، متلو أو غير متلو.

القيود والمحترزات:

رفع: جنس في التعريف يشمل كل رفع ومنه رفع العادات والبراءة الاصلية.

الحكم الشرعي: خرج به ابتداء ايجاب العبادات في الشرع فانه يرفع حكم العقل بالبراءة الاصلية، كايجاب الصلاة يرفع براءة الذمة منها قبل ورود الشرع بها، وخرج به الاخبار.

بدليل شرعي: خرج به رفع حكم شرعي بدليل عقلي، كسقوط التكليف عن الانسان بموته أو بجنونه أو غفلته. فالسقوط دل عليه العقل.

توجيهات: من التعريف يظهر لنا الأمور التالية:

١ – النسخ لا يتحقق الا بامور سيأتي بيانها.

٢ – النسخ لا يتوجه الا الى الحكم، وما قيل: انه نسخ تلاوة ونسخ حكم هو أمر صوري للايضاح، ونسخ التلاوة مرده أن يكون نسخ حكم، فاذا نسخت تلاوة الآية لا يُصلى بها.

٣ – التعريف يشمل النسخ الواقع في الكتاب وفي السنة.

٤ – الناسخ في الحقيقة هو الله، فكلمة (رفع الحكم الشرعي) من باب اضافة المصدر لمفعوله، والفاعل هو الله، وقد يطلق الناسخ على الحكم الرافع تقول : وجوب كذا نسخ وجوب كذا، وقد يطلق على الدليل، وتقول: آية كذا نسخت آية كذا.

شروط تحقق النسخ: لابد لتحقق النسخ من امور أربعة:

١ – أن يكون المنسوخ حكماً شرعياً.

٢ – أن يكون دليل رفع الحكم دليلاً شرعياً.

٣ – أن يكون الدليل الرافع متراخياً عن دليل الحكم الأول غير متصل به.

٤ – أن يكون بين الدليلين تعارض حقيقي بحيث لا يمكن الجمع بينهما، فشهادة رجلين الثابته بالقرآن، لا يعارضها الحكم بشهادة واحد ويمينه الوارد بالخبر فهذه حجة وهذه حجة أخرى ولا تعارض.

٥ – أن لا يكون الحكم المرفوع مغياً بغاية، كقوله تعالى:{ثم أتموا الصيام الى الليل}[١]، فإذا جاء الليل ارتفع حكم الصيام لانتهاء غايته لا لنسخه.

علاقة النسخ بالتنجيم:

نزل القرآن الكريم منجماً على قلب النبي صلى الله عليه وسلم ليثبت به قلبه وقلوب المؤمنين، ويعالج الأمراض المتفشية، ويجيب على الاسئلة الطارئة، ويتدرج مع الأحداث والوقائع، ويرفع حكماً كان له مصلحة في وقت لم يعد لازماً في وقت بعده، وهذا الأخير هو النسخ بعينه، ولذا يمكن أن نعد علم الناسخ والمنسوخ من ضروب التدرج في نزول الوحي، وبه يمكننا معرفة السابق والمسبوق من النوازل القرآنية، ولولا التنجيم لما أمكن النسخ، وعلم النسخ يلقي الأضواء على تنجيم نزول القرآن، وتدرجه في التشريع، وكلاهما يدل على أن مصدر القرآن هو الله سبحانه وتعالى.

بين النسخ والبداء:

خلط البعض بين النسخ والبداء – بفتح الباء – مما حملهم على انكار النسخ، والبداء لغة هو: الظهور بعد الخفاء، ومنه قوله تعالى: {وبدا لهم سيئات ما عملوا}[٢]،ويطلق على نشأة رأي جديد لم يك موجوداً، ومنه قوله تعالى: {ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين}[٣]، أي: نشأ لهم فيه رأي جديد.

والظاهر أن النسخ غير البداء، فلا حاجة الى انكار النسخ فراراً منه، قال الزركشي: (قيل: لا يقع النسخ في قرآن يتلى وينزل، والنسخ مما خص الله به هذه الأمة في حكم من التيسير)[٤]. ويفرّ هؤلاء من القول بأن الله ينسخ شيئاً بعد نزوله والعمل به، وهذا مذهب اليهود في الأصل، ظناً منهم أنه بداء، كالذي يرى الرأي ثم يبدو له غيره، وهو باطل، لأنه بيانُ مدة الحكم، الا ترى الإحياء بعد الاماتة وعكسه،

---

١ - سورة البقرة ١٨٧.
٢ - الجاثية ٣٣.
٣ - يوسف ٣٥.
٤ - في الاتقان ٢/٢١: في حكم منها التيسير.

والمرض بعد الصحة وعكسه، والفقر بعد الغنى وعكسه، وذلك لا يكون بداء، فكذا الأمر والنهي)[1].

لقد ظن منكرو النسخ أن نسخ الشي بعد نزوله والعمل به يرادف تغيير الله للأحكام بما يبدو له بعد أن لم يكن بادياً، ولا يجوز نسبة شي من هذا الى الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى يعلم الناسخ والمنسوخ أزلاً، الا أن الله سبحانه علم أن الحكم المنسوخ منوط بحكمة أو مصلحة تنتهي في وقت معلوم، وعلم بجانب هذا أن الناسخ يجيء في هذا الميقات المعلوم منوطاً بحكمة ومصلحة أخرى، ولا ريب أن الحكم والمصالح تختلف باختلاف الناس وتتجدد بتجدد ظروفهم وأحوالهم، والنواسخ والمنسوخات معلومة لله تعالى، والجديد في النسخ انما هو اظهاره تعالى ما علم لعبادة، لاظهور ذلك له[2].

أما القائلون بالبداء فهم الرافضة[3]، اسرفوا في اثباته، ونسبوه الى الله صراحة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ويستدلون على قولهم بأمرين هما:

الأول: قوله تعالى: {يمح الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب}[4]، والرد على هذا الاستدلال أن التغيير والمحو لا يكون في العلم وانما يكون في المعلوم، والبداء يستلزم التغيير في العلم وفي المخلوق لا في الخالق.

الثاني: أقوال نسبوها الى أئمة طاهرين كقولهم عن موسى بن جعفر الصادق انه قال: (البداء ديننا ودين آبائنا)، وهذا لم يثبت ولا يصح.

---

[1] - البرهان ٢/٣٠.
[2] - مناهل العرفان للزرقاني ٢/٧٨.
[3] - الرافضة: طائفة من الشيعة رفضوا زيداً بن علي.
[4] - الرعد ٣٩.

وأما الفرق بين النسخ والبداء فيظهر بالنقاط التالية:

١ – أن البداء بمعنييه يستلزم سبق الجهل، وهذا محال على الله تعالى، والنسخ لا يستلزمه.

٢ – النسخ تغيير في المعلوم لا في العلم وفي المخلوق لا في الخالق، وأما البداء فتغيير في ذات العلم وفي ذات الخالق، وهذا محال.

٣ – أن في النسخ مراعاة للمصلحة، وهو معلوم لله تعالى قبل وقوعه، والبداء يستلزم أن لا يكون معلوماً.

٤ – يرجع في النسخ الى نقل صريح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة ولا دليل على البداء، بل الأدلة تعارضه.

الفرق بين النسخ والتخصيص[1].

التخصيص هو: قصر العام على بعض أفراده.

ووجه الشبه بينه وبين النسخ: أن النسخ يشبه تخصيص الحكم ببعض الأزمان، والتخصيص يشبه رفع الحكم عن بعض الأفراد.

والتخصيص المتصل يكون بأشياء:

أحدها: الاستثناء: كقوله تعالى: {والشعراء يتبعهم الغاوون} الى قوله: {إلا الذين آمنوا}[2].

الثاني: الصفة، كقوله تعالى: {وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن}[3]. فقوله: {اللاتي دخلتم بهن} صفة، والمعنى أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل، فإن لم يكن دخل بأمها فالربيبة حلال.

---

[1] - يراجع في ذلك مناهل العرفان ٢/١٨٤.
[2] - الشعراء ٢٢٤-٢٢٧.
[3] - النساء ٢٣.

الثالث: الشرط، كقوله تعالى: {كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين}[1].

الرابع: الغاية، كقوله: {ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله}[2].

الخامس: بدل البعض من الكل كقوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا}[3] .

هذا التخصيص المتصل، وأما المنفصل فما كان في موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس[4].

والفرق بين التخصيص والنسخ من وجوه:

١ – النسخ حقيقي، والتخصيص مجاز، مثال ذلك في النسخ قوله تعالى: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً الى الحول}[5] نسخ هذا الحكم بقوله تعالى: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً}[6] وهذا حقيقي لا مجاز فيه أما التخصيص فاللفظ فيه للكل والقرنية هي المخصص، فهو مجاز، لأنه خرج منه بعض أفراده ومثال ذلك قوله تعالى: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}[7] عام، ولكنه مخصص بالمعاهدين ومَنْ في حكمهم فلا يجوز قتالهم.

٢ – ما خرج بالتخصيص لم يك مراداً من العام أصلاً بخلاف ما خرج بالنسخ فانه مراد من المنسوخ لفظاً، فالمعاهدون لم يكونوا مرادين من حكم العام في الاصل، بخلاف المنسوخ فانه مراد من الحكم.

٣ – أن التخصيص لايتأتى اذا اقتصر الحكم على واحد – أمراً ونهياً – أما النسخ فيعرض لهذا وغيره، مثال النسخ آية النجوى {إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي

---

[1] - البقرة ١٨٠.
[2] - البقرة ١٩٦.
[3] - آل عمران ٩٧.
[4] - أنظر أمثلة ذلك في مباحث القطان ص ٢٢٧.
[5] - البقرة ٢٤٠.
[6] - البقرة ٢٣٤.
[7] - التوبة ٥.

نجواكم صدقة}[1]، فإنها نسخت بما بعدها: {أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فاذ لم تفعلوا}[2] الآية، والتخصيص لا يتأتى في مثل هذا لأن الحكم في فرد واحد وليس في إفراد.

٤ – أن النسخ يبطل حجية المنسوخ اذا كان رافعاً للحكم بالنسبة الى جميع افراد العام ،أما التخصيص فلا يبطل حجية العام ابداً، بل هو قصر للعام على بعض أفراده، وعليه فحكم المتوفى عنها زوجها أن تعتد أربعة أشهر وعشراً حكم عام لكل من كانت كذلك، وأما قتل المشركين فمخصص بغير المعاهدين والمستأمنين.

٥ – النسخ لا يكون الا بالكتاب والسنة، بخلاف التخصيص فانه يكون بهما وبغيرهما، ومن ذلك:

أ – التخصيص بدليل الحس، كقوله تعالى عن الأحقاف[3] وقد أنذرهم هود عليه السلام، فأبوا فعذبهم، قال تعالى: {تدمر كل شيء بأمر ربها}[4] وهذا مخصص بالحس، إذ الريح لم تدمر السماء والارض.

ب – التخصيص بدليل العقل، كقوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير}[5] مخصص بما حكم به العقل من عدم تعلق قدرة الله سبحانه وتعالى بالمستحيل فالمراد أن القدرة متعلقة بالممكنات.

٦ – النسخ لا يكون الا بدليل متراخٍ عن المنسوخ، وأما التخصيص فقد يكون مقارناً وقد يكون سابقاً وقد يكون لاحقاً.

٧ – النسخ لا يقع في الاخبار، بخلاف التخصيص فانه يكون في الاخبار وفي غيرها.

---

[1] - المجادلة ١٢.
[2] - المجادلة ١٣.
[3] - الأحقاف هي ديار عاد، والحقف هو كثيب الرمل العظيم المستطيل وهي بلاد باليمن.
[4] - الأحقاف ٢٥.
[5] - البقرة ٢٠.

النسخ بين الإثبات والإنكار:

اختلف الناس في النسخ على النحو الآتي:

١ – المسلمون: النسخ جائز عقلاً وسمعاً، أما أدلة العقل فهي:

أ - أنه لا محظور في النسخ عقلاً، وتشريعه لا يخلو من حكمة، هذا عند أهل السنة، وعند المعتزلة أن الله يعلم مصلحة عباده في كل وقت، ويأمرهم بما ينفعهم في وقت وينهاهم عنه في وقت آخر لحصول الضرر.

والمصالح تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأحوال، ومن الحكمة مراعاة هذه المصالح بالتشريعات المناسبة.

ب – اتفقوا على أنه يجوز أن يأمر الشارع بأمر مؤقت ينتهي بانتهاء وقته، كالامر بصيام رمضان، ففي أوله أمر بالصيام وبعد انتهائه أمر بالافطار فيكون الامر الثاني كالنسخ للأول، والمحصلة واحدة.

ت – ثبت بالأدلة والبراهين أن الشريعة الاسلامية باقية الى الناس كافة، فالشرائع السابقة ليست باقية ولو بقيت لما كانت الشريعة الاسلامية للناس كافة، فالنسخ اذن جائز عقلاً وواقع فعلاً.

ث – الوقوع يستلزم الجواز، وقد ثبت الوقوع بأدلة سمعية كثيرة منها:

أ - الكتب السماوية السابقة ورد فيها الكثير من المنسوخات، مثال ذلك أنه ثبت في التوراة أن آدم كان يزوج الأخ من أخته من بطن آخر، ثم حرم باجماع الديانات، وكذا عند النصارى والمسلمين، وكذلك الله سبحانه وتعالى أمر ابراهيم أن يذبح ولده ثم أمره أن لا يذبحه.

ب – القرآن: ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات الدالة على النسخ، مثال ذلك:

١ – قوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها}[١].

٢ – قوله تعالى: {واذا بدلنا آية مكان آية}[٢].

---

١ - البقرة ١٠٦.

٢ - النحل ١٠١.

٣ – في القرآن آيات منسوخة الأحكام، كعدة المتوفي عنها زوجها التي كانت حولاً بالنص، ثم نسخت بأربعة أشهر وعشرة أيام .

ت – ثبت سماعاً اجماع سلف الأمة على وقوع النسخ في القرآن.

٢ – اليهود: ينكرون جواز النسخ عقلاً وينكرون وقوعه شرعاً، للأدلة التالية:

أ - أن النسخ يستلزم البداء، وهو الظهور بعد الخفاء، هذا إن كان لحكمة، وأما ان كان لغير حكمة فيستلزم العبث، وهما مستحيلان.

الرد: النسخ للأحكام بلا شك مبني على حكمة لا تخفى على الله سبحانه، ولكن مصالح العباد تتجدد بتجدد الزمان وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فلا يخلو حكم جديد عن مصلحة جديدة، فلا يستلزم النسخ بداءً ولا عبثاً.

ب – النسخ يستلزم الجهل أو تحصيل الحاصل، وذلك أن الله علم الحكم الأول على أنه مؤبد أو مؤقت. فإن علمه مؤبداً ثم نسخه انقلب جهلاً، وإن علمه مؤقتاً ثم نسخه فهو تحصيل حاصل.

الرد: النسخ بيان بالنسبة الى الله ورفع بالنسبة لنا، ثم إن الحكم المنسوخ مؤقت وقد علم الله أن تأقيته انما هو بورود الناسخ.

ج - النسخ يستلزم اجتماع الضدين،فالامريقتضي ان الفعل محبوب والنهي يقتضي انه قبيح.

الرد: أن صفة الحسن أوالقبح ليست من صفات الفعل ذاته حتى تكون ثابته لا تتغير، بل هي تابعة لتعلق أمر الله ونهيه بالفعل.

هذه أدلة المنكرين للنسخ عقلاً، وهم اليهود، ولا يخفى أن اليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها فكيف لا يجوز النسخ؟

٣ – الروافض: غالوا في اثبات النسخ وتوسعوا فيه وأجازوا البداء على الله، وهذا يستلزم الضلال وتحريف القرآن، وقد سبق الرد عليهم.

٤ – أبو مسلم الأصفهاني[1]، يجوز النسخ عقلاً ويمنع وقوعه شرعاً، ويقول بهذا أيضاً بعض اليهود، ويستدلون بأن التوراة لم تزل محفوظة وان شريعتها مؤبدة، وهذه

[1] - محمد بن بحر، معتزلي، من المفسرين لم تصلنا كتبه، توفي سنة ٣٢٢هـ.

يرفضها الواقع إذ اشتهر أن كثيراً من أحبار اليهود وعلمائهم دخلوا في دين الاسلام، ولو علموا التأبيد من ديانتهم، لما تركوها، ومن اليهود من ارتد الى عبادة الاصنام وقتلوا الانبياء.

وأما ابو مسلم الاصفهاني فاختلف النقل عنه، ولعله ينكر وقوع النسخ في القرآن خاصة، أما انكار النسخ فيستلزم انكار أن شريعة الاسلام غير ناسخة لما قبلها وهذا لا يقوله مسلم، واما النسخ لآيات القرآن فلعله هو الذي يرفضه، ولذلك استدل عليه بقوله تعالى: {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد}[1].

الرد: ١ – أن الباطل هو ما خالف الحق والنسخ حق، اراده الله لحكمة، وهو معنى الآية إذ عقائد القرآن موافقة للعقل مسايرة احكامه للحكمة، مطابقة للواقع.

٢ – أثبت الله النسخ في كتابه صراحة.

وبمثل قول ابي مسلم قال محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، والآية عندهم في قوله تعالى: {ما ننسخ من آية} هي المعجزة تنسخ التي قبلها وبذلك وقعوا في محذور انكار الاحاديث الصحيحة، وانكار ما كان مستقراً في نفوس الصحابة الكرام من وقوع النسخ.

حكمة النسخ:

وقع النسخ في الشريعة الاسلامية بأسلوبين.

الأول: نسخ الشرائع السابقة بالاسلام.

الثاني: نسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض.

أما الاسلوب الأول فالحكمة فيه ترجع الى أن تشريعه أكمل تشريع يفي بحاجات البشرية في كل مراحلها، وهذا لا يتوفر في الشرائع السابقة، فهي مرتبطة باقوامها مما يدعو الى نسخها وعدم بقائها.

وأما الاسلوب الثاني فالحكمة فيه أن الاسلام راعى حال الامة التي انتقلت انتقالاً شاقاً، إذ تركت موروثاتها وعاداتها ومفاخرها وامجادها لتعتنق ديناً جديداً، ولو

---

[1] - فصلت ٤٢.

جاءهم دفعة لما أطاقوه، ولذلك تلطفهم في الدعوة متدرجاً، ناسخاً لبعض الاحكام بما يراعي المصالح والتخفيف على الناس والرحمة بهم.

إن الحكمة من النسخ تتمثل في أمور كثيرة، أهمها:

١ – مراعاة مصالح العباد، وإن اختلفت الازمان والبلدان وتحقيق التيسير من خلال ربط الأحكام بالواقع.

٢ – تطور التشريع الى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وحال الناس، ومواكبة رقيهم وتقدمهم.

٣ – ابتلاء المكلفين واختبارهم بالامتثال وعدمه عند اختلاف التشريع وتغييره.

٤ – تحقيق أحد أمرين كريمين حبيبين الى النفس، اذ النسخ لا يخلو أن يكون الى الأشق وفي الامتثال زيادة أجر، وإما أن يكون الى الأخف وفي ذلك من الخيرية ما لا يخفى.

طرق معرفة النسخ:

لا بد لتحقق النسخ أن يكون أحد الحكمين المتعارضين متراخياً عن الآخر، وذلك يحتاج الى دليل صحيح ولنا الى هذا الدليل مسالك ثلاثة:

١ – أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر، كآية النجوى.

٢ – أن ينعقد اجماع الأمة في أي عصر على تعيين المتقدم من النصين.

٣ – ان يرد بطريق صحيحة عن النبي أو أحد من الصحابة تعيين أحد النصين بالسبق على الآخر كحديث: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور الا فزوروها) رواه الحاكم.

ومن الأمور التي لا تقبل لاثبات النسخ:

١ – قول المفسر هذا ناسخ وهذا منسوخ، لاحتمالية الاجتهاد دون الاعتماد على النص.

٢ – الاجتهاد، لاحتمالية الخطأ فيه.

٣ – ثبوت أحد النصين قبل الآخر حسب ترتيب المصحف.

٤ – أن يكون أحد الراويين من أحداث الصحابة دون الراوي الآخر أو أسلم قبله.

٥ – أن يكون أحد الراويين قد انقطعت صحبته.

٦ – أن يكون أحد النصين موافقاً للبراءة الاصلية دون الآخر كعدم ايجاب الوضوء مما مست النار، فانه لا يلزم أن يكون سابقاً على الخبر الوارد بايجاب الوضوء مما مست النار.

ما يتناوله النسخ:

١ – النسخ لا يكون الا في الأحكام (الأوامر والنواهي) المتعلقة بالعبادات والمعاملات.

٢ – لا نسخ في العقائد وأمهات الأخلاق واصول العبادات والمعاملات ومد لولات الاخبار، للأسباب التالية:

أ - أن العقائد حقائق ثابتة {وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون}[1].

ب – أن أمهات الاخلاق لا تتأثر بمرور الزمن ولا باختلاف الاشخاص، فلا تتعارض.

ج- الحاجة الى اصول العبادات والمعاملات فالصيام أصل في التشريعات السماوية، وكذا الحج، والصلاة، ولكن التغيير يقع في كيفيات وفروع.

د – يلزم بنسخ مدلولات الاخبار الكذب في أحد الخبرين.

[1] - الانبياء ٢٥.

أنواع النسخ:

يتنوع النسخ باعتبارات خاصة الى أنواع متعددة، أشهرها:

أولاً: من حيث نسخ التلاوة أو الحكم أو هما معاً ينقسم الى ثلاثة أنواع:

١ – نسخ الحكم والتلاوة معاً: مثاله ما رواه مسلم عن عائشة أنها قالت: (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن) قال النووي في معناه: ان النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً حتى أنه صلى الله عليه وسلم توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات، ويجعلها قرآناً متلواً لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك وجموا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى[1].

٢ – نسخ الحكم دون التلاوة، مثاله آية النجوى[2]، وعدة المتوفى عنها زوجها الواردة في قوله تعالى {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لازواجهم متاعاً الى الحول}[3] فقد نسخت بآية اخرى وبقيت تلاوتها.

٣ – نسخ التلاوة دون الحكم، ومثاله ما رواه مسلم عن عائشة، المذكور في النوع الاول من هذا التقسيم، ومحل الشاهد (ثم نسخن بخمس معلومات) فالحكم باقٍ والتلاوة منسوخة، ومثاله حكم زنا الشيخ والشيخة، ففي صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنهما قال: (لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله الا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن اذا قامت البينة[4].

١ - انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٠/٢٩.
٢ - المجادلة ١٢.
٣ - البقرة ٢٤٠.
٤ - اخرجه البخاري كتاب الحدود رقم الحديث ٢٨٢٩.

ثانياً: النسخ باعتبار نسخ القرآن للسنة وعكسه، وهو اربعة اقسام:

١ – نسخ القرآن بالقرآن: وهذا متفق عليه عند القائلين بالنسخ والأمثلة عليه متوافرة.

٢ – نسخ القرآن بالسنة: اختلف العلماء في جوازه ووقوعه، أما في الجواز فلهم قولان:

أ - الجمهور: أنه يجوز للأدلة التالية:

(١) أن نسخ القرآن بالسنة ليس مستحيلاً فالقرآن والسنة وحي من الله تعالى.

(٢) – أن الله ينسخ وحياً بوحي.

ب – الشافعي ورواية عن أحمد وأهل الظاهر يمنعونه، للأدلة التالية:

١ – قوله تعالى: {وأنزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل اليهم}[1]، إذ تفيد أن وظيفة الرسول البيان، فان نسخت السنةُ القرآن لم تكن بياناً.

الرد: إن الآية لا تحصر وظيفة الرسول بالبيان، ولذلك استقل النبي بالتشريع، وقد يراد بالبيان التبليغ لا الشرح، والنسخ لا يناقض التبليغ.

٢ – أثبت القرآن أن السنة حجة، فلو نسخته لعادت على نفسها بالابطال، لأن النسخ رفع، واذا ارتفع الاصل ارتفع الفرع.

الرد: لم يقل أحد: إن السنة نسخت أدلة حجيتها، بل النسخ فيما يتعلق به النسخ، وكون السنة حجة يلزمهم، لأن مما جاءت به السنة النسخ.

٣ – قوله تعالى: {واذا تتلى عليهم بياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن ابدله من تلقاء نفسي إن اتبع الا ما يوحى الي}[2]، فهو يفيد أن السنة لا تنسخ القرآن.

الرد: أن السنة ليست نابعة من نفس الرسول وهواه، بل معانيها موحاة من عند الله.

٤ – قوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها} الآية[3]، يدل على امتناع نسخ القرآن بالنسة من وجوه، منها قوله: {نأت} و {بخيرٍ منها أو مثلها} وقوله: {ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير} وفي كل الأحوال الناسخ هو الله.

---

[1] - النحل ٤٤.
[2] - يونس ١٥.
[3] - البقرة ١٠٦.

الرد: قوله تعالى: {نأت} مرجعه الى الله وان كان الناسخ السنة، فإن كان كذلك جاز أن تكون السنة خيراً من القرآن المنسوخ، والله على كل شيء قدير.
هذا في الجواز، وأما في الوقوع فقد اختلف فيه المجوزون للنسخ، فمنهم من أثبت وقوعه ومنهم من نفاه، لعدم الدليل، وأما من أثبته فاستدل بأدلة كثيرة من أشهرها قوله تعالى: {كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين}[1]، اذ ثبت فيه وجوب الوصية للوارث،وفي الحديث الشريف نهي عن الوصية للوارث بقوله صلى الله عليه وسلم: (لا وصية لوارث)، فدل على نسخ القرآن بالسنة، ورد المخالفون بأن الناسخ آيات المواريث لا ذلك الحديث.
٣ – نسخ السنة بالقرآن:
الجمهور على جوازه، اذ لا مانع منه، ويدل على وقوعه أن التوجه في الصلاة الى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة، ثم نسخ بقوله تعالى: { فول وجهك شطر المسجد الحرام}[2]، ويدل أيضاً صوم يوم عاشورا كان واجباً ثم نسخ بصيام رمضان.
ومنع الشافعي – رحمه الله – من هذا النسخ، ومنعه معه بعض اصحابه، ودليلهم انه يجوز أن يكون النسخ فيما ذكر هناك ثابتاً بالسنة ثم جاء القرآن موافقاً لها، وبهذا يؤول الأمر الى نسخ السنة بالسنة، ويجوز أن يكون الحكم المنسوخ ثابتاً أولاً بقرآن نسخت تلاوته ثم جاءت السنة موافقة له وبهذا يؤول الامر الى نسخ قرآن بقرآن.
ورد المخالفون بان هذا مجرد احتمال، والنسخ لا يكون بالاحتمال.
٤ – نسخ السنة بالسنة، وقد اجاز العلماء منه نسخ سنة متواتره بمثلها، ونسخ آحاد بآحاد ونسخ آحاد بمتواترة،واختلفوا في نسخ القرآن بالسنة الآحادية والجمهور على عدم جوازه.
واما نسخ كل من الاجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه.

[1] - البقرة ١٨٠.
[2] - البقرة ١٤٤.

ثالثاً: اقسام النسخ باعتباره الى بدل أو غير بدل: النسخ بهذا الاعتبار قسمان:

١ – النسخ الى غير بدل: مثاله آية النجوى وقد سبق ذكرها، وأنكر المعتزلة ذلك، لأن الله تعالى يقول: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها}[١]، وفي حالة النسخ الى غير بدل لا يؤتى بخير من المنسوخ ولا مثله، والجواب إن رفع الحكم حكماً هو أنفع واقرب لمراعاة المصلحة فهو خير من المنسوخ، ولا حاجة لانكاره من هذا المنطلق.

٢ – النسخ الى بدل، وهو أقسام:

أ - الى بدل اخف منه، مثاله عدة المتوفى عنها زوجها كانت حولاً، ثم نسخت الى اربعة أشهر وعشرة أيام وقد سبق بيانه.

ب – الى بدل مماثل: كنسخ التوجه الى بيت المقدس بالتوجه الى الكعبة.

ج- الى بدل أثقل، واعترض عليه البعض[٢] لانه الله يريد اليسر ولا يريد العسر، وأجيب بان اليسر يدور مع المنفعة والثواب، ومثاله قوله تعالى: {واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاسشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً}[٣]، فقد أفادت الآية أن حكم الزانية الحبس، والآية التي تليها أفادت الايذاء قال تعالى: {واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما}، ثم نسختا بآية الجلد للبكر في سورة النور {الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة}[٤]، وبالجلد للبكر وبالرجم للثيب الوارد في السنة (البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم) رواه مسلم.

---

١ سورة البقرة ١٠٦.

٢ – مباحث في علوم القرآن للقطان ٢٤١.

٣ - النساء ١٥.

٤ - النور ٢.

من مبالغات القائلين بالنسخ:

خلط بعض الناس بين النسخ وغيره، وبالغوا فيه أحياناً، وأنكروه أحياناً أخرى، وبعضهم آثر لفظ التخصيص على النسخ، ومن أمثلة هذه المبالغات:

اولاً: الخلط بين النسخ والبداء وبين النسخ والتخصيص، وقد سبق بيان هذا والرد عليه.

ثانياً: الخلط بين النسخ والإنساء، ومثله قولهم: الأمر حين الضعف والقلة بالصبر والمغفرة ثم نسخ بآية السيف، وليس هذا من النسخ في شيء، وإنما هو من باب المنسأ، فقد أنسى الأمر بالقتال الى أن يقوى المسلمون، وامروا في حال الضعف بالصبر على الأذى.

ثالثاً: اشتباه البيان بالنسخ في مثل قوله تعالى: {ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف}[1] فقد عدوه ناسخاً لقوله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً}[2]، والتحقيق أن ليس هاهنا ناسخ ومنسوخ، وإنما بينت الآية الأولى مالا يعد ظلماً من أكل أموال اليتامى[3].

رابعاً: تقطيع أوصال الآية الواحدة، فقد زعم بعضهم[4] في قوله تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}[5] أن أوله وآخره منسوخان ووسطه محكم.

خامساً: ادراج بعض عادات الجاهلية في عداد المنسوخ كما في حصر الطلاق في ثلاث وكان في الجاهلية أكثر.

وأما عدد الآيات المنسوخة فقد رجح السيوطي في الاتقان[6] أنها عشرون، ونظمها في أبيات يمكن لمن اراد أن يرجع اليها هناك.

وهناك أقوال كثيرة في هذا المجال والله تعالى أعلم.

---

[1] - النساء ٦٦.
[2] - النساء ١٠.
[3] - مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ٢٧٠.
[4] - انظر أحكام القرآن لابن العربي ١/٣٨٨.
[5] - الاعراف ١٩٩.
[6] - الاتقان ٢/٢٣.

جمع القرآن وترتيبه

لجمع القرآن معنيان:

الأول: حفظه واستظهاره في الصدور، ومنه جُماع القرآن، أي حفاظه.

الثاني: كتابته وتدوينه، سواء مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة.

لقد اعتمدت الأمة الاسلامية بادىء الامر في حفظ القرآن على المعنى الأول، وهو حفظ الصدور، وذلك لشرف هذا النوع، ولأن الأمة أمية، والأمي يحفظ ولا يكتب، فجعلوا قلوبهم أناجيلهم، وهذه خصيصة انفردت بها الأمة المحمدية عن سائر الأمم.

أطوار الجمع وتقسيماته:

حدث جمع القرآن في الصدر الأول ثلاث مرات، وتميّز كل عهد من العهدين الأخيرين عن سابقه بمميزات، وكان له اسلوب في الجمع والتدوين، أما العهود فهي: عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وعهد أبي بكر، وعهد عثمان رضي الله عنهما.

الجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

اتخذ جمع القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم شكلين، هما:

أ - الحفظ في الصدور.

ب – الحفظ في السطور.

أما الحفظ في الصدور فهو الأوسع والاكثر في هذا العهد الشريف، إذ حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على حفظ القرآن واستظهاره ابان نزوله، فكان يحرك به لسانه استعجالاً لحفظه، فطمأنه الله تعالى بقوله: {لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه}[1]، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الحفاظ، وذلك راجع للأسباب التالية:

١ – قراءَته القرآن على مكث، والصلاة به والقيام.

---

[1] - القيامة ١٦-١٧.

٢ – مبادرته الى تعليمه لأصحابه، إذ كان مرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن لفظاً ومعنى.

٣ – معارضة جبريل له في كل عام مرة وفي العام الأخير مرتين.

واقتدى الصحابة الكرام بالنبي صلى الله عليه وسلم فتسابقوا الى حفظه وتعلمه والنهل من رحيقه، ويكفي أن نعلم من كثرتهم أنه قُتل من الحفاظ في يوم بئر معونة سبعون، وفي يوم اليمامة مثلهم.

تفنيد حصر عدد الصحابة الحفظة:

تعددت الروايات في اعداد الصحابة الذين يحفظون القرآن، ففي صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن[١] أورد الأمام البخاري الاحاديث التالية:

١ – قال رسول الله صلى الله وسلم: (خذوا القرآن من أربعة من عبدالله بن مسعود وسالم ومعاذ وابي بن كعب).

٢ – عن قتادة قال سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: من جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: (أربعة كلهم من الانصار، أبي بن كعب، معاذ بن جبل، وزيد ابن ثابت وأبو زيد)[٢].

٣ – عن أنس قال: (مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة، أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد).

وحاصل روايات البخاري على اختلافها أن الحفظة سبعة، وهذا مردود للأسباب التالية:

١ – كثرة الروايات التي تدل على كثرة الحفظة غير هؤلاء السبعة، نحو:

أ - سأل النبي صلى الله عليه وسلم عبدالله بن عمرو بن العاص: (كيف تصوم؟ قال: كل يوم، قال: وكيف تختم؟ قال: كل ليلة قال: صم في كل شهر ثلاثة واقرأ القرآن في كل شهر) الحديث[٣].

---

[١] - انظر الروايات في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب القراء من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

[٢] - هو قيس بن السكن كما ذكره ابن حجر في فتح الباري.

[٣] - رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب في كم يُقرأ القرآن.

ب – قتل في بئر معونة سبعون من الانصار كانوا يسمونهم القراء في زمانهم[1] واشتهر الكثير من الحفظة كالخلفاء الاربعة.

٢ – كثرة قراءة الصحابة للقرآن وتوفر دواعي الحفظ، ونزول القرآن منجماً ، وتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم أسباب تدل على كثرة الحفاظ.

٣ – تصعب الاحاطة بعدد الصحابة الحفاظ لتفرقهم في الامصار.

٤ – تغيّر الاسماء يدل على أن الجمع نسبي والله أعلم.

هذه الروايات تدل على بطلان الحصر، وتثبت أن حفظة القرآن أكثر مما ذكر، ولا بد من تأويل تلك الروايات لتلائم الواقع، ويتم ذلك بأحد التأويلات الآتية:

١ – لعل كل راوٍ من رواة تلك الاحاديث ذكر من يعرف من الحفاظ.

٢ – أن المراد اؤلئك الذين جمعوه في السطور والصدور معاً.

٣ – أنهم هم الذين اتصلت اسانيدهم بالرواة ولم تصلهم أسانيد غيرهم.

٤ – أنهم هم الذين تلقوه مشافهة من النبي صلى الله عليه وسلم أو عرضوه عليه[2].

وأما الحفظ في السطور فكان ثابتاً أيضاً، ولم تصرف عناية الصحابة الكرام بحفظ القرآن واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه يدل على ذلك الأمور التالية:

أ - أن النبي صلى الله عليه وسلم سمح بكتابة القرآن دون غيره فقال: (لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه)[3].

ب – اشتهر بين الناس كتبة الوحي ومنهم الخلفاء الراشدون وابي بن كعب وخالد ابن الوليد وزيد بن ثابت رضي الله عنهم.

ت – روي عن عثمان بن عفان انه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان اذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا[4].

ث – أخرج الحاكم عن زيد بن ثابت قال: (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع أي: نرتبه.

---

١ - انظر صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة.

٢ - أنظر باقي توجيهات الروايات في الاتقان ١/٧١.

٣ - رواه مسلم في صحيحه رقم الحديث ٢٢٩٨.

٤ - رواه الترمذي في الجامع الصحيح ٨/٢٤٠.

فالقرآن كان مكتوباً في ذلك العهد غير انه لم يكن مجموعاً في صحف ولا مصاحف عامة.

أدوات الكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

١ – العُسُب: جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض.

٢ – اللِّخاف – بكسر اللام: جمع لخفة – بفتح اللام وسكون الخاء–وهي الحجارة الرقيقة.

٣ – الرقاع : جمع رقعة، وتكون من ورق وغيره.

٤ – الاكتاف: عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان، وغيره.

٥ – الأديم: الجلد.

٦ – الكرانيف: أصول السعف الغلاظ.

أسباب عدم جمع القرآن في مصحف واحد أيام النبي صلى الله عليه وسلم:

لعدم جمع القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أسباب منها:

١ – عدم توفر الدواعي لجمعه في مصحف واحد، فالحفاظ كثر، والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، وأدوات الكتابة غير متيسرة، والأمية متفشية، ولذلك كانت عنايتهم بحفظه في الصدور أكثر من عنايتهم بالكتابة.

٢ – أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ماشاء الله من آية او آيات.

٣ – أن القرآن نزل منجماً، ولم ينزل دفعة واحدة.

٤ – أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله.

٥ – قصر المدة بين آخر القرآن نزولاً ووفاة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لم تتجاوز تسع ليالٍ، وهي فترة غير كافية للجمع.

٦ – طلباً لكثرة الحفاظ في الصدور.

والخلاصة أنه لو جمع القرآن في مصحف واحد والحال على ما ذكرنا لكان عرضة للتغيير والتبديل.

ترتيب الآيات توقيفي:

الآية: الجملة من كلام الله المندرجة في سورة من القرآن.

وترتيب الآيات توقيفي، قال السيوطي: (الاجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك)[١]، أما أدلته فكثيرة منها:

١ – أخرج البخاري عن ابن الزبير قلت لعثمان: {والذين يتوفون منكم}[٢] قد نسختها الآية الاخرى[٣] فلمَ تكتبها أو تدعها[٤]؟ قال: يا ابن أخي لا أُغير شيئاً من مكانه[٥].

٢ – ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سوراً في صلاته وكذا الصحابة الكرام.

٣ – قول زيد بن ثابت: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع، أي: نرتبه.

٤ – معارضة جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم القرآن كل عام مرة وفي العام الأخير مرتين.[٦].

٥ – أن جبريل كان ينزل بالآيات ويرشد النبي صلى الله عليه وسلم الى موضعها في السورة فيأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بكتابتها في موضعها.

من هنا اتفقت كلمة العلماء على أن ترتيب الآيات توقيفي، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب وأجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف.

الاختلاف في ترتيب السور:

السورة: هي الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع، وقد اختلف العلماء في ترتيب السور القرآنية، هل هو توقيفي كالآيات أم هو اجتهادي؟

---

١ - الاتقان ١/٦٠.
٢ - البقرة ٢٤٠.
٣ - البقرة ٢٣٤.
٤ - أي: فلم تدعُها.
٥ - رواه البخاري.
٦ - رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم.

١ – ذهب الجمهور ومنهم ابو بكر الانباري والكرماني والطيبي الى أن ترتيب السور توقيفي، وان اتساق السور كاتساق الآيات ومن قدّم سورة أو أخّرها فقد أفسد نظم القرآن.

واستدلوا بأدلة منها:

أ - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بعض السور مرتبة في صلاته، فجمع المفصل في ركعة مثلاً.

ب – أن بعض الصحابة كان يرتب السور اذا ذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول في سورة بني اسرائيل – الاسراء – والكهف ومريم وطه والانبياء انهن من العتاق الأُول وهُنَّ من تِلادي[١]، والمراد بالعتاق والتلاد: القديم الذي نزل أولاً، والشاهد أن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر السور مرتبة على ترتيب المصحف.

ت – أجمع الصحابة الكرام على ترتيب مصحف عثمان ولم ينازع أحد في ذلك مما يدل على عدم المخالفة والاجماع على ذلك.

٢ – ذهب بعض العلماء ومنهم الامام مالك الى أن ترتيب السور اجتهادي، واستدلوا بأدلة منها:

أ - اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور، فمنهم من رتبها على النزول، وهو مصحف علي كان أوله اقرأ ثم المدثر وهكذا الى آخر المكي والمدني، وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم آل عمران، وكذلك مصحف أبي، واختاره الزركشي في البرهان[٢].

ب – أن عثمان بن عثمان رضي الله عنه رتبه اجتهاداً فقد روي أنه أمرهم أن يتابعوا الطوال فجعلت سورة الانفال وسورة التوبة في السبع ولم يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم، فعن ابن عباس قال: (قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم الى الانفال وهي من المثاني والى براءَ ة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال: كان رسول الله صلى

---

[١] - رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن.

[٢] - البرهان في علوم القرآن ١/٢٦٢.

الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءَ ة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال)[١].

وأجيب عن الدليل الأول بانه لا يؤخذ على علاته، لأن اجتهاد الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختياراً شخصياً لم يحاولوا أن يُلزموا به أحداً ولم يدّعوا أن مخالفته محرمة اذ لم يكتبوا تلك المصاحف للناس وانما كتبوها لأنفسهم، بدليل أنهم لم يتمسكوا بها وحرقها عثمان رضي الله عنه[٢].

وأُجيب عن الدليل الثاني المتعلق بسورتي الانفال والتوبة بأن الرواية يدور اسنادها على يزيد الفارسي الذي يذكره البخاري في الضعفاء وفيه تشكيك في اثبات البسملة في أوائل السور، وهل كان عثمان يثبتها برأيه وينفيها برأيه؟ ولذا قال فيه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على الحديث في مسند الامام أحمد: إنه حديث لا أصل له[٣].

٣ – وذهب البيهقي الى أن ترتيب بعض السور فقط كان اجتهادياً، كالانفال وبراءة واستدل بحديث عثمان السابق.

ومال ابن عطية الى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال والحواميم والمفصل وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه الى الأمة بعد.

ورجحه السيوطي فقال: والذي ينشرح له الصدر ما ذهب اليه البيهقي.

والراجح أن ترتيب السور توقيفي، لأن الاجابة على أدلة المذهب الثاني تنفي أيضاً قول أصحاب المذهب الثالث، ويروى عن الامام مالك أن الخلاف لفظي، إذ قال:

---

١ - رواه الامام أحمد في المسند ١/٥٧ وانظر الاتقان ١/٦٢.

٢ - مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ٨٢.

٣ - مسند أحمد شرح وتعليق احمد شاكر ١/٣٢٩، وانظر مباحث في علوم القرآن للقطان ١٤٤.

انما الّفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم فمرجع الخلاف الى أنه هل هو بتوقيف قولي؟ أو بمجرد اسناد فعلي بحيث يبقى فيه مجال للنظر؟[١].

أقسام سور القرآن:

تنقسم سور القرآن الى أربعة أقسام:

أ - الطوال وهي:

١ – البقرة. ٢ – آل عمران. ٣ – النساء. ٤ – المائدة. ٥ – الأنعام. ٦ – الاعراف.

واختلف في السابعة، فقيل: هي الانفال وبراءَ ة لعدم الفصل، وقيل: هي يونس.

فعن ابن عباس قال: السبع الطوال البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف، قال الراوي: وذكر السابعة فنسيتها[٢].

ب – المِئون: السورة التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

ت – المثاني: السور التي تلي المئون، قيل في تسميتها المثاني: لأنها ثنت – المئون، أي كانت بعدها فهي لها ثوان، والمئون لها أوائل، وقيل: سميت بذلك لأنها تثنى في القراءَ ة وتكرر أكثر من الطوال والمئين، وقيل: لتثنية الامثال فيها بالعبر والخبر[٣].

ث – المفصل: ما ولي المثاني من قصار السور، سميت بذلك لكثرة الفواصل التي بين السور بالبسملة، وقيل: لقلة المنسوخ منه ولهذا يسمى بالمحكم.

واختلف في تحديد المفصل من القرآن على اثني عشر قولاً، أشهرها:

١ – انها من الحجرات الى الناس.

٢ – انها من ق الى الناس.

٣ – وقيل: إنها من الجاثية.

وأقسام المفصل ثلاثة:

١ – الطوال: من ق أو الحجرات الى عم أو البروج.

---

١ - الاتقان ١/٦٢.

٢ - الاتقان ١/٦٣.

٣ - الاتقان ١/٦٣.

٢ – أوساطه: عم أو البروج الى الضحى أو البينة.
٣ – قصاره: الضحى أو البينة الى آخر القرآن.

عدد السور القرآنية: فيه قولان:

١ – مائة وأربع عشرة سورة، وهو الراجح
٢ – مائة وثلاث عشرة بجعل الانفال وبراءَ ة سورة واحدة.

عدد الآيات القرآنية:

أشهر الأقوال فيه ستة الآف ومائتا آية، ومازاد عن ذلك مختلف فيه.

أطول آية قرآنية: آية الدين في سورة البقرة: {يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم...} الآية[1]، وأطول سورة في القرآن سورة البقرة.

٢ – جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه:

سببه: اشتد القتل في القراء في موقعة اليمامة سنة ١٢هـ بين المسلمين والمرتدين اتباع مسيلمة فقتل من القراء ما يزيد عن سبعين، فهال الامر المسلمين وعزّ على عمر بن الخطاب رضي عنه، فدخل على الصديق واقترح عليه جمع القرآن خشية الضياع فتردد أبو بكر رضي الله عنه للأمور التالية:

١ – خشي أن يكون مبتدعاً بفعل شي لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم.
٢ – لأنه وقاف عند حدود الله وقد يجره الجمع الى التبديل والتحريف.
٣ – خشية أن يتساهل الناس في حفظ القرآن غيباً باعتمادهم على المصاحف.

وبعد مفاوضة اقتنع الصديق بعد أن تجلت له المصلحة، وقد تيقن أن القرآن محفوظ، وما هو الا جامع لما كتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

---

[1] - البقرة ٢٨٢.

تنفيذ الفكرة:

أرسل ابو بكر الى زيد بن ثابت فأبى أول الأمر، وما زال ابو بكر يعالج شكوكه ويبين المصلحة حتى اطمأن، قال زيد بن ثابت: أرسل اليّ ابو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة، فاذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، واني أخشى إن استمر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال أبو بكر: انك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: هو والله خير، فلم يزل ابو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال) رواه البخاري)[1].

أما اسباب اختيار زيد بن ثابت لهذه المهمة فهي:

١ – أنه من كتبة الوحي وحفاظ القرآن.

٢ – شهد العرضة الاخيرة للقرآن في ختام حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

٣ - شبابه وقوته وقدرته على العمل الشاق.

٤ – ذكاؤه وخصوبة عقله وضبطه ودقته.

٥ – أمانته وشدة ورعه واستقامته يدل على ذلك قوله: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن.

---

[1] - صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن ١٩٠٧/٤.

خطة زيد في جمع القرآن:

انتهج زيد نهجاً ثابتاً دقيقاً في جمع القرآن اعتمد على مصدرين:

الأول: ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على كتابته شاهدان.

الثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال.

يدل على ذلك قوله: فتتبعت القرآن أجمعه من اللخاف والعسب وصدور الرجال والمراد بالشاهدين يظهر من قول أبي بكر لعمر وزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه، فالمراد بالشاهدين[1]:

١ – الحفظ والكتابة، قاله ابن حجر.

٢ – شاهدان يشهدان أن ذلك كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله السخاوي.

مزايا هذا المصحف: امتاز هذا المصحف بالميزات التالية:

١ – قام هذا الجمع على أدق وجوه البحث والتحري والتثبت العلمي.

٢ – اقتصر على مالم تنسخ تلاوته.

٣ – تواترت الامة عليه واجمعوا على قبوله.

٤ – أن الآيات رتبت كتابةً على نمط حفظها في الصدور.

٥ – أصبحت صحفاً مجتمعة بعد أن كانت متفرقة.

---

[1] - انظر الاتقان ١/٥٨.

نتائج هذا الجمع:

١ ـ يعد أبو بكر أول جامع لكتاب الله.

٢ – اتصال السند الكتابي بالأخذ عن الصحف التي كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣ – استطاعوا جمع كتاب الله في وقت قصير لا يتجاوز العام الواحد.

٤ – سمي القرآن بعد هذا الجمع مصحفاً باجماع الصحابة عليه، اذ لما جمعوا القرآن قال أبو بكر: التمسوا له اسماً فقال بعضهم: السفر، قال: ذلك اسم تسمية اليهود فتوافقوا على تسميته مصحفاً.

ومما ينبغي ملاحظته أن الصديق متيقن أن الله سيحفظ القرآن بحفظه كما يشاء، ولكنه خشي أن يذهب من يحفظ شيئاً من القرآن كتابةً ولا يحفظه غيره، وأن يفقد من القطع المبعثرة التي كتب عليها القرآن فيترتب على ذلك المشقة عند حفظه.

ثم إنه لم يثبت أن واحداً من الصحابة جاء بشيء ولم يكتب.

كانت الصحف عند أبي بكر رضي الله عنه حتى توفاه الله، ثم عند عمر رضي الله عنه حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها بوصية سيدنا عمر، لأنها أم المؤمنين، وتحفظ القرآن، وتقرأ وتكتب ولأن أمير المؤمنين رضي الله عنه ما اراد تعيين خليفة له، ولو وصى لرجل لكانت وصية بالخلافة.

٣ – جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه.

سببه: عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك، فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتهم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا

الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[1].

لقد شرع عثمان رضي الله عنه بالجمع سنة خمس وعشرين للهجرة، وكلف فيه أربعة من خيرة الصحابة آنذاك كلهم قرشيون عدا زيد بن ثابت الانصاري.

ولما تمّ له ذلك، وأعاد نسخة حفصه، أرسلت النسخ الى الامصار، وحمل المسلمين على الجادة في كتاب الله تعالى معتمداً على الأصل الذي جمعه ابو بكر الصديق رضي الله عنه.

أسباب الجمع:

يظهر من حديث الامام البخاري آنف الذكر أن من أسباب الجمع في ذلك العهد:

١ – اتساع الفتوحات في زمن عثمان رضي الله عنه ودخول اللحن.

٢ – تفرق الصحابة القراء في الامصار، فكان كل أناس يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة وحصل الاختلاف.

٣ – حصول النزاع والملاحاة التي كادت أن تطيح الرؤوس من جراء تلك الفتنة، ولذلك قال حذيفة: يا أمير المؤمنين أدرك الأمة.

دستور الكتابة:

١ – الاعتماد على النسخة التي جمعت في عهد الصديق وحفظت عند عمر ثم حفصة رضي الله عنهم.

٢ – اعتماد اللسان القرشي عند الاختلاف في الكتابة، كما في كلمة التابوت هل تكتب التاء مربوطة أو مفتوحة.

---

[1] - رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن.

٣ – أن ترسم الكلمة بما تحتمله من القراءات ككلمة {فتبينوا} يمكن أن تقرأ من غير نقط {فتثبتوا} وهما قراءَ اتان.

٤ – اذا اختلف شكل الكلمة بحيث لا يرسم بما يحتمله من قراءات كتبت كل قراءة في نسخة ككلمة {وصى} و {أوصى}.

٥ – أن لا يكتب اللفظ برسمين في مصحف واحد.

٦ – أن لا يكتب الا ما تحققوا أنه قرآن من خلال العرضة الأخيرة.

٧ – كتابة مصاحف متعددة لإرسالها الى الامصار.

مزايا الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه:

يتميز جمع عثمان رضي الله عنه بالميزات التالية:

١ – ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن.

٢ – رسم القرآن بطريقة تجمع وجوه القراءات المختلفة.

٣ – الاقتصار على ما ثبت بالتواتر من القراءات دون الآحاد.

٤ – تجريد نص القرآن من التفسيرات التي كانت تكتب بجانب الكلمات القرآنية كما كان يفعل ابن مسعود رضي الله عنه.

٥ – ترك ما نسخت تلاوته ولم يستقر في العرضة الاخيرة.

عدد النسخ:

قال السيوطي: (اختلف في عدة المصاحف التي أرسل بها عثمان الى الآفاق، المشهور أنها خمسة، واخرج ابن ابي داوود من طريق حمزة الزيات قال: أرسل عثمان اربعة مصاحف، قال ابن أبي داوود: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: كتب

سبعة مصاحف فأرسل الى مكة والى الشام والى اليمن والى البحرين والى البصرة والى الكوفة وحبس بالمدينة واحداً) انتهى[١].

أما نسخة حفصة فقد ظلت عندها حتى ماتت، ثم غسلت غسلاً[٢] وقيل: أخذها مروان بن الحكم وأحرقها(٣)، كما حرقت الكثير من المصاحف، التي تشتمل على تفسيرات وقراءات شاذة ليست متواترة، ولهذا لم ينكر أحد على عثمان رضي الله عنه، ورد علي رضي الله عنه على المنكرين فقال: لا تقولوا في عثمان الا خيراً فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف الا على ملأ منا[٤].

أين المصاحف العثمانية الآن؟

قال الزرقاني: (ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلاً عن تعيين أمكنتها، وقصارى ما علمنا أخيراً أن ابن الجزري رأى في زمانه مصحف أهل الشام، ورأى في مصر مصحفاً أيضاً) انتهى[٥].

أقول: ابن الجزري المتوفي سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وهو صاحب النشر في القراءات العشر، لعله آخر من رأى واحداً من مصاحف عثمان رضي الله عنه، وأما المصاحف الأخرى فقد ثبتت رؤيتها لكثير قبله، كابن فضل الله العمري المتوفي سنة تسع واربعين وسبعمائة صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الامصار، وكذا ابن كثير المتوفي سنة اربع وسبعين وسبعمائة إذ قال: (أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها الى دمشق في حدود سنة ثماني عشرة وخمسمائة وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي

---

١ - الاتقان ١/٦٠.
٢ - تفسير الطبري (جامع البيان) ١/٦١.
٣ - مباحث في علوم القرآن للقطان ١٣٤.
٤ - الاتقان ١/٦١.
٥ - مناهل العرفان ١/٤٠٤.

بحبر محكم في رق أظنه من جلود الابل)[1] ويذكر أن الرحالة المشهور ابن بطوطة المتوفي بعد عام ثلاثمائة رأى بعض تلك المصاحف في غرناطة ومراكش والبصرة.

ولا يخفى أن عدم بقاء المصاحف العثمانية الآن لا يضرنا شيئاً ما دام المعول عليه هو النقل والتلقي ثقة عن ثقة وذلك متوافر مستفيض، وقد نسخت المصاحف العثمانية الآف المرات بحمد الله.

التفريق بين الجمعين:

يفرق بين العهدين الذين جمع فيهما القرآن مرتباً: عهد الصديق وعهد عثمان من وجوه وباعتبارات مختلفة، من أشهرها:

١ – الباعث: فإن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شي بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوا بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك ببعضهم الى تخطئة بعض فخشي من تفاقم الأمر في ذلك.

٢ – اسلوب الجمع: ففي عهد أبي بكر جمع المتفرق من العسب واللخاف والاكتاف وصدور الرجال ورتب الآيات، وأما في عهد عثمان فتم نسخ نسخة الصديق أبي بكر وتجريد النسخ الاخرى من الشاذ أو التفسيرات التي كان يضعها بعض الصحابة على مصاحفهم.

---

[1] - انظر فضائل القرآن ص ٤٩، وانظر مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ٨٨.

علم مرسوم الخط القرآني

علم الخط: هو معرفة كيفية تصوير اللفظ بحروف هجائية الى اسماء الحروف إذا قصد بها المسمى[١]، والخط لسان اليد، وما من أمر الا والكتابة معبرة عنه، وبه ظهرت خاصية النوع الانساني من القوة الى الفعل، وامتاز به عن سائر الحيوانات.

وناهيك بالخط شرفاً أن الله سبحانه وتعالى أضاف تعليم الخط الى نفسه وامتن به على عباده في قوله تعالى: {علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم}[٢]، وجعل النقوش دالة على الاسماء التي علّمها الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام بقوله تعالى: {وعلّم آدم الاسماء كلها}[٣] ومن هذه الالفاظ ينتقل الناظرون الى المعاني الحاصلة في الاذهان، ومن ثمّ يظهر وجه الحاجة الى الخط، ولعله يؤيد ما روي أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين وطبخه، فلما أصاب الارض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه، فأصاب اسماعيل الكتاب العربي[٤].

(واتفقت كلمة المؤرخين على أن قريشاً في مكة لم تأخذ الخط الا عن طريق حرب ابن أمية بن عبد شمس لكنهم اختلفوا فيمن أخذ عنه حرب)، كذا قال الزرقاني[٥]، ولكن الأمية تفشت في ذلك المجتمع، وتحدث القرآن عن أميتها، فقال سبحانه: {هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين}[٦]، الا أن فيهم من يقرأ ويكتب، وممن أسلم منهم كان من كُتّاب الوحي لاحقاً، ومنهم من جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، وهم ثلاثة من اللجنة الرباعية الذين كلفهم عثمان رضي الله عنه باستثناء زيد بن ثابت الانصاري الذي تولى الجمع ابان عهد الصديق، وقد سبق الحديث عن ذلك باسهاب، الا أن جمع القرآن في عهد عثمان متميز برسم خاص، خالف الكتبة فيه في كثير من

١ - يختلف اسم الحرف عن مسماه، فالحرف الأول من جعفر مثلاً اسمه جيم ومسماه جه، انظر ابجد العلوم للقنوجي ١/٢٦٣.
٢ - العلق ٤ – ٥.
٣ - البقرة ٣١.
٤ - الاتقان ٢/١٦٦.
٥ - مناهل العرفان ١/٣٦٢.
٦ - سورة الجمعة آيه رقم ٢.

الحروف والاعلام، قال الزركشي: (لما كان خط المصحف هو الامام، الذي يعتمده القارىء في الوقف والتمام، ولا يعدو رسومه، ولا يتجاوز مرسومه، قد خالف خط الإمام في كثير من الحروف والأعلام، ولم يكن ذلك منهم كيف اتفق، بل على أمر عندهم قد تحقق، وجب الاعتناء به والوقوف على سببه) انتهى[1].

هل رسم المصحف توقيفي؟

رسم المصحف: هو الوضع الذي ارتضاه عثمان رضي الله عنه في كتابة كلمات القرآن وحروفه.

ولقد اختلف العلماء فيه،أتوقيفي أم اجتهادي مستنبط؟ وكان اختلافهم فيه على النحو الآتي:

١ – ذهب جماعة الى أن رسم المصحف توقيفي، واستدلوا على ذلك بأدلة، منها:

أ - أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له كُتّاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم، وأقرهم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم.

ب – أن السلف الصالح اتفقوا على هذا الرسم، فلقد سار التابعون على نهج الصحابة، وهكذا فعل تابعوهم، ولم ينقل أن أحداً منهم فكر أن يستبدل به رسماً آخر من الرسوم التي حدثت في عهد ازدهار التأليف ونشاط التدوين وتقدم العلوم، وهو بمثابة الاجماع، واجماع الأمة في أي عصر واجب الاتباع.

إن هذا القول يُفيد من وجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ويكتب، وهي قضية مختلف فيها عند العلماء ولهم فيها قولان:

الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يكتب بدليل قوله تعالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون}[2]، ففيه دلالة على أن

[1] - البرهان في علوم القرآن الزركشي ١/٣٧٦.
[2] - العنكبوت ٤٨.

النبي صلى الله عليه وسلم بعد الوحي كان يخط بيمينه، ومن أدلتهم ما رواه البخاري[١] عن البراء رضي الله عنه قال: اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدَعَوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: لا نُقر بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبدالله، ثم قال لعلي: أمح (رسول الله) قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله لا يدخل مكة سلاح الا في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وان لا يمنع أحداً من أصحابه اراد أن يقيم بها) الحديث، واستدلوا بما روى ابن أبي شيبة وغيره: (ما مات صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ) وما رواه ابن ماجة عن أنس قال: قال صلى الله عليه وسلم: رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على باب الجنة: الصدقة بعشر امثالها والقرض بثمانية عشر)[٢].

وممن ذهب الى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروي، وابو الفتح النيسابوري وابو الوليد الباجي من المغاربة، وحكاه عن السمناني، وصنف فيه كتاباً[٣].

ومن أدلتهم أيضاً أن معرفة الكتابة بعد الأمية لاتنافي المعجزة، بل هي معجزة أخرى، لأنها من غير تعليم.

الثاني: أكثر العلماء على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب ولم يقرأ، ولقد اشتهرت أميته، قال تعالى: {فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون}[٤]، وهو صريح في أمية النبي صلى الله عليه وسلم.

---

١ - كتاب الصلح باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان... الخ.
٢ - مناهل العرفان ١/٣٦٥.
٣ - مناهل العرفان ١/٣٦٥.
٤ - الاعراف ١٥٨.

قلت: أما كتابة النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية إن لم تحمل على أن النبي أمر كاتباً آخر كما هي عادة الرؤساء- يُنسب فعل المرؤوسين اليهم- فانها معجزة أن يكتب رسول الله من غير تعليم سابق.

ويمكن الجمع بين الأقوال بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتب أول حياته، ثم كتب في آخر حياته، وهذا لا ينفي الأمية التي كان موصوفاً بها أول الأمر.

٢ – وذهب آخرون منهم ابن خلدون والباقلاني الى أن رسم المصاحف اصطلاحي لا توقيفي، وذلك أنه لم يؤخذ عن كُتّاب الوحي وخطاط المصاحف رسم معين دون غيره، ولم يرد فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يكون الرسم توقيفاً، وانما اصطلح الكتبة على هذا الرسم في زمن عثمان، ورضي به، وجعل لهم ضابطاً لذلك عند الاختلاف، فقد روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه (قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم)[١]، قال القاضي أبو بكر الباقلاني[٢]: أما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره، أوجبه عليهم، وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك الا بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز الا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في اجماع الامة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى احداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بان ذلك اصطلاح، وان الناس لا يخفى عليهم الحال، ولاجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوّج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه،

---

١ - رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن.

٢ - محمد بن الطيب الباقلاني صاحب كتاب اعجاز القرآن، توفي سنة ٤٠٣، انظر وفيات الاعيان ١/٤٨١، شذرات الذهب ٢/٧٥.

وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى، من غير تأثيم ولا تناكر عُلم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص، كما أخذ عليهم في القراءة والاذان، والسبب في ذلك أن الخطوط انما هي علامات ورسوم تجري مجرى الاشارات والعقود والرموز فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت.

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه وأنى له ذلك؟ [١].

وبناء على هذا يدعو بعض الناس الى كتابة القرآن بالقواعد الاملائية الحديثة، حتى تسهل القراءة على الدارسين.

٣ – ذهب الكثير من العلماء الى أن الرسم العثماني ليس توقيفاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان، وتلقته الأمة بالقبول، فيجب التزامه والأخذ به ولا تجوز مخالفته، قال السيوطي:

(قال أشهب: سئل مالك: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا الا على الكتبة الاولى رواه الداني في المقنع[٢]، ثم قال: ولا مخالف له من علماء الامة، وقال في موضع آخر: سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو والالف، أترى أن يُغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال: لا، قال أبو عمرو: يعني الواو والالف المزيدتين في الرسم المعدومتين في اللفظ نحو "اولوا"، وقال الامام أحمد[٣]: يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أوياء أو الف أو غير ذلك، وقال

---

١ - مناهل العرفان ١/٣٨٠.
٢ - المقنع ص١٠، وانظر البرهان للزركشي ١/٣٧٩.
٣ - نقله صاحب البرهان ١/٣٧٩.

البيهقي في شعب الايمان[1]: من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئاً، فانهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن نظن بانفسنا استدراكاً عليهم) انتهى.

ومن القائلين بوجوب المحافظة على الرسم عز الدين بن عبدالسلام، إذ قال: (لا تجوز كتابة المصحف الا على الرسوم الأولى باصطلاح الائمة، لئلا يُوقع في تغيير من الجهال، ولكن لا ينبغي اجراء هذا على اطلاقه، لئلا يؤدي الى دروس العلم، وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين، ولن تخلو الارض من قائم لله بالحجة)[2].

وهذا الرأي الاخير هو الراجح لأسباب منها:

١ – ان هذا الرأي يقوم على رعاية الاحتياط للقرآن من ناحيتين، ناحية كتابته في كل عصر بالرسم المعروف فيه، ابعاداً للناس عن اللبس والخلط في القرآن، وناحية ابقاء رسمه الأول المأثور، يقرأه العارفون، ومن لا يخشى عليهم الالتباس ولا شك أن الاحتياط مطلب ديني جليل، خصوصاً في جانب حماية التنزيل[3].

٢ – لا ريب أنه لا غلو في تقديس الرسم العثماني في هذا الرأي، وليس فيه تكلف، إذ لم يصح في التوقيف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانما هو اصطلاح الكتبة الذي وافق عليه المسلمون.

٣ – أن عثمان رضي الله عنه وضع دستوراً يرجعون اليه في الرسم عند الاختلاف في قوله للثلاثة القرشيين: اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم)[4].

٤ – انه يوجب المحافظة على الرسم العثماني الأول لفوائده الجمة، ويقرأه العارفون ومن لا يخشى عليهم الالتباس.

---

[1] - نقله صاحب البرهان ١/٣٧٩.
[2] - البرهان ١/٣٧٩.
[3] - مناهل العرفان ١/٣٨٦.
[4] - مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ٢٧٧.

٥ – أن المحافظة على الرسم العثماني تثمر بقاء الفوائد والحكم الكثيرة له فلا تضيع ولا تفوت.

قواعد رسم المصحف:

قال السيوطي: (ينحصر أمر الرسم في ست قواعد، الحذف والزيادة، والهمز، والبدل، والوصل، والفصل وما فيه قراءتان فكتب على احداهما)[1]، ثم سرد السيوطي أمثلة كثيرة معتمداً على كتاب البرهان الذي اسهب الزركشي فيه[2] من ذلك وأكثرَ من الأمثلة، وتتلخص القواعد على النحو الآتي:

١ – قاعدة الحذف، ويكون في حروف الألف والياء والواو واللام، وامثلته كالآتي:

أ - مثال حذف الالف من ياء النداء نحو (يأيها الناس) و (هؤلاء).

ب – حذف ياء المنقوص المنون رفعاً وجراً نحو (باغٍ) و (عادٍ).

ت – حذف الواو اذا وقعت مع أخرى نحو (يستوون) و (الموؤدة).

ث – حذف اللام مدغمة في مثلها نحو (الذي).

وهناك حذف لا يدخل تحت القاعدة نحو حذف الالف من (ملك) وحذف الياء من (الداع) وحذف الواو من (يدع الانسان) وغيرها نحو (يمح) و (يدع الداع) و (سندع الزبانية)، قال السيوطي: (قال المراكشي: السرُّ في حذفها – أي الواو – من هذه الاربعة التنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المنفعل – المتأثر – به في الوجود، وأما (ويدع الانسان) فيدل على أنه سهل عليه ويسارع فيه كما يسارع في الخير بل اثبات الشر اليه من جهة ذاته أقرب اليه من الخير، واما (ويمح الله الباطل) فللاشارة الى سرعة ذهابه واضمحلاله، وأما (يدع الداع) فللاشارة الى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين، وأما الاخيرة – (سندع الزبانية) – فللاشارة الى السرعة في الفعل واجابة الزبانية وقوة البطش.

---

[1] - الاتقان ٢/١٦٧.

[2] - في المجلد الأول صفحة ٣٨٠ وما بعدها من كتاب البرهان في علوم القرآن.

٢ – قاعدة الزيادة: كزيادة الالف في آخر كل اسم مجموع أو في حكم المجموع نحو (ملاقوا ربهم) و (بنوا اسرائيل) وزيادة الياء في بعض الكلمات نحو (بابيد) وزيادة الواو في نحو (أولاء)، و (أولات).
٣ – القاعدة الثالثة في الهمز: إذ تكتب الساكنة بحرف حركة ما قبلها، نحو (ائذن) و (اوتمن) و (البأساء)، وان سكن ماقبلها حذفت نحو (ملء) و (الخبء).
وأما المتحركة فلها أحوال:
أ - إن كانت أول الكلمة واتصل بها حرف زائد كتبت بالالف مطلقاً نحو (أيوب).
ب – إن كانت وسطاً تكتب بحرف من جنس حركتها نحو (سأل) و (سئل).
ت – إن كانت متطرفة تكتب بحرف من جنس حركة ما قبلها نحو (سبأ) و (شاطىء).
٤ – البدل: أ - الالف تكتب واواً للتفخيم (الصلواة).
ب – الالف ترسم ياءً اذا كانت منقلبة عن ياء (يا حسرتى) (يا أسفى).
جـ ترسم النون الفاً في نون التوكيد الخفيفة (اذاً).
د - ترسم هاء التانيث تاء مفتوحة (رحمت) (امرأت).
٥ – الوصل والفصل:
١) أن بفتح الهمزة توصل بلا (الا).
٢) ومن بما، (مما).
٣) وعن بما، (عما).
٤) إن بما، (إنما).
٥) أن بما، (أنما).
٦) كل + ما (كلما).
وهناك مستثنيات من القاعدة.
٦ – ما فيه قراءتان اذا قرئت الكلمة على وجهين تكتب برسم احدهما نحو (ملك) تقرأ مالك.
(فوائد الرسم العثماني ومزاياه):
للرسم العثماني فوائد اشهرها:
١ – الدلالة على القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة (ملك) (مالك) وقوله {إن هذان لساحران} كتبت (ان) من غير تشكيل ولا نقط ولا تشديد فتقرأ بكل قراءته، حيث قرئت كالتالي أ – نافع (إنّ) ب – ابن كثير (إن) وهكذا.

٢ – افادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة مثال ذلك:
أ - (أم من يكون عليهم وكيلاً) كتبت (أم من) للدلالة على أنها بمعنى بل للاضراب.
ب – (أمن يمشي سوياً) متصلة ليست بمعنى بل، وانما استفهام.
٣ – الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في قوله تعالى: {بأييد} كما مرّ سابقاً للدلالة على القوة .
٤ – الدلالة أصل الحركة {وايتائي ذي القربى} و (سأوريكم)، فكتبت الكسرة في الاولى ياءً، وكتبت الضمة في الثانية واواً.
٥ – افادة بعض اللغات الفصيحة (رحمت) (يوم يأت) وهي لغة هذيل.
٦ – حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال، ولا يتكلوا على الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة، وفيه فائدتان.
أ - التوثق من الفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده، اذ لابد من التثبت في الاداء والقراءة وعدم الاعتماد على المكتوب كما في فواتح السور وكما في قوله: (تأمنا) بالاشمام وغيرهما.
ب – اتصال السند برسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه خاصة من خواص الامة الاسلامية.

الكتب المؤلفة في هذا الفن:

قال السيوطي: (أفرده بالتصنيف خلائق من المتقدمين والمتأخرين، منهم أبو عمرو الداني، وألف في توجيه ما خالف قواعد الخط منه أبو عباس المراكشي كتاباً سماه ((عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل)) بيّن فيه أن هذه الأحرف انما اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها) انتهى[١].

وزاد القنّوجي فذكر القصيدة الرائية الموسومة بالعقلية للشيخ الشاطبي وشرحها برهان الدين ابراهيم بن عمر الجعبري المتوفي سنة ٧٣٣ وسماه جميلة ارباب المراصد[٢].

أقول: كتاب ابي عمرو الداني اسمه المقنع.

وفي العصر الحديث ظهرت مؤلفات في هذا الفن ضمن كتب علوم القرآن أحياناً واستقلالاً أحياناً أخرى، ومما أُلف للرد على أوهام المستشرقين كتاب رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم ودوافعها ودفعها للدكتور عبدالفتاح اسماعيل شلبي.

تحسين الرسم العثماني:

ظل الناس يقرأون المصحف العثماني على خطة الأول أربعين سنة ونيفاً، ثم كثرت التصنيفات وانتشرت في الأمصار وأحسن أولو الامر بضرورة تحسين كتابة المصحف بالشكل والنقط.

بيد إن المؤرخين يختلفون فمنهم من يرى أن الاعجام كان معروفاً قبل الاسلام ولكن تركوه عمداً، ومنهم من يرى أن النقط لم يعرف الا على يد أبي الأسود الدؤلي.

وأما الشكل فيرى كثير من العلماء أن ابا الاسود الدؤلي وضع ضوابط للعربية بأمر من علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه، وذلك انه سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: {إن الله بريء من المشركين ورسوله}[٣] فقرأها بجر اللام من كلمة (رسوله) فأفزع هذا

---

١ - الاتقان ٢/١٦٦.

٢ - انظر أبجد العلوم (الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم) صديق القنوجي المجلد الأول ص ٢٢٩.

٣ - التوبة ١٥٠.

اللحن ابا الاسود، وانتهى به اجتهاده أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين[1]، وقيل: إن ذلك تم في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ فأمر أبا الأسود بذلك، ويذكر في هذا المجال كل من عبيدالله بن زياد المتوفي سنة ٦٧ هـ و الحجاج الثقفي المتوفي سنة ٩٥ هـ.

وقيل فعل ذلك تلميذا أبي الاسود، نصر بن عاصم الليثي (ت ٨٩) ويحيى بن يعمر (ت ١١٨)قال السيوطي: (اختلف في نقط المصحف وشكله ويقال: اول من فعل ذلك ابو الاسود الدؤلي بأمر من عبدالملك بن مروان، وقيل: الحسن البصري ويحيى بن يعمر وقيل: نصر بن عاصم الليثي، وأول من وضع الهمز والتشديد والروم والاشمام الخليل، وقال قتادة: بداوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا) انتهى[2].

وذكر ابن خلكان في ترجمة الحجاج انه لما كثر التصحيف وانتشر بالعراق فزع الحجاج الى كتابه، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فيقال: إن نصر بن عاصم وقيل: يحيى بن يعمر قام بذلك فوضع النقط.

ولعل أبا الأسود هو الذي بدأ وأسس، ثم أتم هذه السلسلة من تلاميذه يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم فلا يتعذر القول بأنهم اسهموا جميعاً في تحسين الرسوم وتيسير قراءة القرآن على الناس.

واختلف العلماء في حكم نقط المصحف وشكله، الظاهر أنه يجوز قال الامام مالك: لابأس بالنقط في المصاحف التي تتعلم فيها العلماء أما الامهات فلا، وقال النووي: نقط المصحف وشكله مستحب لأنه صيانة له من اللحن والتحريف[3].

إن المتأمل ليظهر له بوضوح أن النقط ليس سبباً في اختلاف القراءة، لأنه ليس له صورة فيتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآناً، وانما هي دلالات على هيئة المقروء فلا يضر اثباتها لمن يحتاج اليها.

[1] - مباحث في علوم القرآن للقطان ١٥٠.
[2] - الاتقان للسيوطي ٢/١٧١.
[3] - انظر الأقوال في الاتقان ٢/١٧١.

وأما الشكل والضبط بالحركات المأخوذة والحروف فهو الذي فعله الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥) وهو أكثر وأوضح وعليه العمل، فالفتحة شكلة مستطيلة فوق الحرف، والكسرة كذلك تحته والضمة واوصغرى فوقه، والتنوين زيادة مثلها، وهكذا، قال السيوطي: (كان الشكل في الصدر الأول نقطاً فالفتحة نقطة على أول الحرف والفتحة على آخره والكسرة تحت أوله، ثم اشتهر ضبط الحركات المأخوذة من الحروف، وهو الذي اخرجه الخليل وهذا أكثر وعليه العمل) انتهى[1].

ثم تدرج الناس فوضعوا اسماء السور وعدد الآيات والرموز التي تشير الى رؤوس الآي، وعلامات الوقف كل ذلك بخط جميل واضح بسهولة ويسر.

تجزئة القرآن:

قُسم القرآن الى ثلاثين جزءً اذ لا ينبغي أن يمر على المسلم القادر شهر الا وقد قرأ كتاب الله.

والجزء يعادل حزبين، والحزب أربعة أرباع.

وأما التعشير والتخميس، فهما اشارة الى كل عشر آيات، أو خمس آيات برمز معين ككلمة خمس عند كل خمس آيات أو وضع حرف الخاء وهكذا.

وشاء الله سبحانه أن ينتشر كتابه في الآفاق بواسطة الطباعة، وظهر القرآن مطبوعاً لأول مرة في البندقية في حدود سنة ١٥٣٠، ولكن السلطات الكنسية هناك حاربته حال ظهوره، ثم قام هنكلمان بطبع القرآن في مدينة هانبورغ سنة ١٦٩٤، ثم تلاه مراكي بطبعه في بادو سنة ١٦٩٨، ولم يكن لأي واحدة من هذه الطبعات الثلاث أثر في العالم الاسلامي.

ثم ظهرت طبعات هنا وهناك الى أن طبع بايران سنة ١٨٢٨ بخط املائي سهل ولا يخفى دور الطبعات الانيقة في هذا العصر التي ملأت الدنيا وتنافس اليها الناس.

---

[1] - الاتقان ٢/١٧١.

الأحرف السبعة

أشهر مرويات نزول القرآن على سبعة أحرف :

عقد الامام البخاري في صحيحه، باباً سماه (باب أنزل القرآن على سبعة أحرف)، وكذا مسلم في صحيحه، لكنه سماه (باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه)، وقد رويا فيهما أحاديث صحيحة، كما روى غيرهما أحاديث أيضاً، ومن أشهرها:

١ – روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف)[١].

٢ – أخرج مسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة[٢] بني غفار، قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وان أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وان أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا)[٣].

٣ – روى البخاري بسنده أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة، لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره في الصلاة، فتصبّرت حتى سلّم فلببته بردائه، فقلت، من أقرأك هذه السورة

---

١ - صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، حديث ٤٩٩١.
٢ - الاضاة – بفتح الهمزة وكسرها الماء المستنقع كالغدير، وجمعها أضا، نحو حصاة وحصا، قاله النووي في شرح صحيح مسلم، ج٥، ص ١٠٤.
٣ - صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين حديث ٨٢١.

التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: كذبت[١]، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسله، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك أُنزلت، إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه)[٢]، ورواه مسلم[٣]، مع اختلاف بعض الألفاظ.

٤ – روى مسلم عن أبي بن كعب، قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ، فحسّن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما، فَسُقِطَ في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية[٤]، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً، وكأنما أنظر الى الله عزّ وجلّ فَرَقاً، فقال لي: يا أبي! أُرسل اليَّ أنِ اقرأ القرآن على حرف، فرددت اليه أنْ هوّن على أُمتي، فَرَدَّ اليَّ الثانية اقرأه على حرفين، فرددت اليه أن هوِّن على أُمتي، فردَّ اليّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرفٍ، فلك بكل ردَّة رددتكها مسألة تسألُنيها[٥]، فقلت: اللهم اغفر لأُمتي، اللهم اغفر لأُمتي، واخّرتُ الثالثة ليومٍ يرغبُ اليَّ الخلقُ كلهم حتى ابراهيم صلى الله عليه وسلم)[٦].

٥ – روى أبو داوود عن أبي بن كعب قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أبي، اني أُقرئت القرآن، فقيل لي: على حرف أو حرفين؟ فقال الملك الذي معي: قل: على

---

١ - فيه اطلاق الكذب على غلبة الظن، أو المراد بقوله: (كذبت): أخطأت، لأن أهل الحجاز يطلقون الكذب في موضع الخطأ، قاله ابن حجر في فتح الباري، ج٩، ص٣٥.

٢ - صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، حديث ٤٩٩٢.

٣ - صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، حديث ٨١٨.

٤ - (معناه: وسوس لي الشيطان تكذيباً للنبوة أشد مما كنت عليه في الجاهلية، لانه في الجاهلية كان غافلاً أو متشككاً فوسوس له الشيطان الجزم بالتكذيب) قاله النووي، في شرح صحيح مسلم، ج٦ ص ١٠٢.

٥ - (معناه: مسألة مجابة قطعاً، أما باقي الدعوات فمرجوة ليست قطعية الاجابة). قاله النووي، في شرح صحيح مسلم، ج٦ ص١٠٣.

٦ - صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، حديث ٨٢١.

حرفين، قلت: على حرفين، فقيل لي: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال الملك الذي معي: قل: على ثلاثة، قلت: على ثلاثة، حتى بلغ سبعة أحرف، ثم قال: ليس منها إلا شافٍ كافٍ، إن قلت: سميعاً عليماً، عزيزاً حكيماً، مالم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب)[1].

٦ – روى الترمذي عن أبي بن كعب قال: (لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل، فقال: يا جبريل إني بُعثت إلى أُمة أميين، منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، قال: يا محمد، إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف)[2].

هذه أشهر الروايات في نزول القرآن على سبعة أحرف، وردتنا عن واحدٍ وعشرين صحابياً، وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال على المنبر: أذكرُ الله رجلاً سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ) لَمَا قام، فقاموا حتى لم يحصوا، فشهدوا بذلك، فقال: وأنا أشهد معكم[3].

تظهر من الروايات السابقة مُسلَّمات كثيرة، منها ما يتعلق بالأحرف القرآنية السبعة، ومنها ما لا يتعلق بها، ومن القسم الأول الحقائق التالية:

١ – أن الغاية من طلب النبي صلى الله عليه وسلم للأحرف والاستزادة الى الحد السابع هي التيسير، يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إن أمتي لا تطيق ذلك) عند السماح بحرف وحرفين وثلاثة، وقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً: (فاقرأوا ما تيسر منه).

٢ – لم يحتج النبي صلى الله عليه وسلم للأحرف في مكة، إبان نزول القرآن المكي، وظهرت الحاجة في المدينة المنورة، فقد ثبت أن ورود التخفيف بذلك كان بعد الهجرة، كما تقدم في حديث أبي بن كعب (أن جبريل لقي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عند أضاة بني غِفار)، وأضاة بني غفار موضع بالمدينة النبوية ينسب الى بني غفار، نزلوا عنده[4] بعد الهجرة.

---

[1] - سنن ابي داوود، كتاب الصلاة، حديث ١٤٧٧.

[2] - جامع الترمذي، (السنن)، كتاب القراءات، حديث ٢٩٤٤.

[3] - نسبة جلال الدين السيوطي لأبي يعلى في مسنده، انظر الاتقان في علوم القرآن، ج١ ص ٤٥.

[4] - كذا قال ابن حجر في فتح الباري، ج٩، ص ٢٨.

٣ – أن حصول التيسير بالأحرف السبعة كان قبل القراء السبعة تحديداً، فلا رابط بين عدد القراءات السبع والأحرف السبعة، على أنه لا دليل على عدم تداخل الأحرف بالقراءات.

٤ – حرص الصحابة الكرام على القرآن الكريم، وعنايتهم بتلاوته كما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وامتناعهم عن قبول ما لم يُسمع من النبي صلى الله عليه وسلم مشافهة، بخلاف من يظن أن القراءات نشأت بسبب احتمالات الرسم العثماني،دون تفريق بين القراءات المتواترة والشاذة، فالشاذة غير المسندة هي التي قد تكون نشأت بهذا السبب وأشباهه.

٥ – اختلاف قراءة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ونبيهم بين أظهرهم، يدل على أنه بادىء الامر لم يسمح الا بحرف واحد، ثم طرأ السماح عند الحاجة لكن ضمن ما نزل به الوحي، وليس مطلقاً، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤيد قراءتهم بقوله: (كذلك أُنزلت) وهذا يؤكد أن لا رابط بين ثبوتها وكيفية رسم عثمان رضي الله عنه لها، الا من جهة أن عثمان رضي الله عنه رسم القرآن بما يوافق النازل لا العكس.

٦ – الأحرف السبعة كافية شافية بنص الحديث الشريف.

٧ – الأحرف السبعة تفسح المجال أمام القارىء أن ينطق بالكلمة القرآنية على وجوه متعددة، لكن التشهي لا يُقبل في هذا المجال، فلا بد أن يكون الوجه أو الوجوه الأخرى وحياً من السماء، نزل به جبريل عليه السلام على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثم قرأ به الرسول صلى الله عليه وسلم، فليس من الجائز على العرب الذين يكسرون نون المضارع أن يفعلوا ذلك الا اذا نزل به الوحي.

٨ – اتفقت الأمة على تواتر القرآن بتمامه، دون نقص، ودون زيادة، ومن ثمَّ لا يجوز أن تترك بعض الأحرف، ولا أن يسمح بزيادة حرف أو بتغيير كلمة أو ابدالها، لأن الزائد حينئذ لا يكون قرآناً.

٩ – نزول الأحرف السبعة ثابت بالجملة، أما تحديدها فغير ثابت، ولم يثبت نسخها، ولا الغاؤها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا الغاءُ الصحابة لها، ولا تركها، ولا نسيانها، ومن هنا ظهر الاختلاف في معنى الأحرف وتحديدها.
١٠- كان جبريل يعارض النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في كل عام مرة،وفي العام الأخير مرتين، وكان بعض الصحابة يشهدون هذه العرضات، فيحتمل أن يكون جبريل عارض رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل مرة بحرف، ليوسع على الأمة، فسمع الصحابي ذلك الحرف، أو حضر تلك العرضة، فقرأ به، ومن هنا اختلف عددٌ من الصحابة في القراءة، فوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم على قراآتهم، لكن بعد أن سمع من كل واحد منهم[1].

١١- اتفقت الأمة على أنه لا يجوز أن يقرأ القرآن بكل ما يحتمله الرسم القرآني، فمطلع سورة البقرة لا يقرأ كما يقرأ مطلع سورة الشرح، مع اتفاقهما في الرسم هكذا {الم}.
١٢- انما ساغ لعمر رضي الله عنه ذلك الاختلاف مع هشام رضي الله عنه، لرسوخ قدم عمر في الاسلام، وسابقته، بخلاف هشام فانه كان قريب عهد بالاسلام، فخشي عمر من ذلك الا يكون أتقن القراءة، وكان سبب اختلاف قراءتهما أن عمر حفظ هذه السورة (الفرقان) قديماً، ثم لم يسمع ما نزل فيها بخلاف ما حفظه وشاهده، ولان هشاماً من مُسلِمة الفتح، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه على ما نزل أخيراً، فنشأ اختلافهما من ذلك، ومبادرة عمر للانكار محمولة على أنه لم يكن سمع حديث الأحرف السبعة الا في هذه الوقعة[2].

[1] - انظر الجامع لأحكام القرآن، ج٣ ص ٤٧.
[2] - فتح الباري، ج٩، ص٢٦.

نشأة الأحرف السبعة:

تعددت القبائل العربية، وتغايرت انماط حياتهم، وتفاوتت قدراتهم، فاختلفت لغاتهم، اضافة الى ما اقتبسوه من جيرانهم، ومن أسواق أشعارهم، فكان لكل قبيلة لهجة، ليست في القبائل الأخرى مثل كشكشة قيس، وعنعنة تميم، أما كشكشة قيس فانهم يجعلون كاف المؤنث شيناً فيقولون في {جعل ربك تحتك سرّيا}[1]: ربش تحتش، وأما عنعنة تميم فانهم يقولون في (أن): (عن)، ففي قوله تعالى: {فعسى الله أن يأتي بالفتح}[2] يبدلون أن بعن فيقولون: عن يأتي بالفتح، وبعضهم يُبدل السين تاءً، فيقول في (الناس): النات[3]،ومثل ذلك قبيلة حمير التي تُبدّل لام التعريف ميماً، فيقولون في البر: امبر، إذ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس من امبر امصيام في امسفر)[4] بلغة بعض أهل اليمن.

وليس غريباً أن تختلف لغات القبائل العربية، لان بُعد المسافة، وتعصب القبيلة الواحدة، وانعزال أفرادها، واختلاف عاداتها، اسباب تفرض اختلاف اللهجة، كما هو واضح في بلادنا العربية الآن مع تيسر أسباب الاتصال، الا أن عدة عوامل هيأت لقريش، فجعلت للغتها الصدارة، كجوار البيت، وعمارة المسجد الحرام، واقتضت حكمة الباري سبحانه أن يرسل كل رسول بلغة قومه قال تعالى: {وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم}[5]، لأجل هذا نزل القرآن بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، تأليفاً للقلوب، وتحقيقاً لاعجاز القرآن، وتيسيراً للحفظ والفهم.

وهكذا بقي الامر في مكة المكرمة، ينزل القرآن على قوم يتفقون في اللهجة، فلا يجدون مشقة في قراءته، ولما اتسعت الرقعة في المدينة المنورة، وشملت القبائل المنتشرة برزت الحاجة الى مراعاة اللهجات، فسهل الله سبحانه وتعالى على الناس أن

---

[1] - سورة مريم ٢٤.

[2] - سورة المائدة ٥٢.

[3] - انظر، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٢٢٠.

[4] - رواه الامام أحمد عن كعب بن عاصم الاشعري، انظر رواية الامام أحمد بن حنبل في المسند، ج٥، ص ٤٣٤، وفي تعليق على الرواية قال ابن حجر (هذه لغة لبعض أهل اليمن يجعلون لام التعريف ميماً، ويحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم خاطب بهذا الاشعري كذلك، لانها لغته، ويحتمل أن يكون نطق بها على ما ألف من لغته، فحملها الراوي عنه، وأداها باللفظ الذي سمعها به، وهذا الثاني أوجه عندي) انتهى، أنظر قول ابن حجر في كتابه تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ج٢، ص٢١٧.

[5] - سورة ابراهيم آية ٤.

يقرأوا القرآن على سبعة أوجه، وهي التي جرت عادتهم باستعمالها غالباً، ولم يكلف أحداً منهم أن ينتقل من لغته الى لغة أخرى، للمشقة ولما كان فيهم من الحمية، كل ذلك مع اتفاق المعنى[1].

ولا يغيبن عن بالك أن الاباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، فلا يجوز تغيير الكلمة بمرادفها كيفما اتفق، بل المراعى في ذلك السماع من النبي صلى الله عليه وسلم، ويشير الى ذلك قول كل من عمر وهشام رضي الله عنهما: (أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أقرأني جبريل) وقد سبق بيان هذا في الروايات سالفة الذكر.

لقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهون على أمته، التي لا تطيق أن تقرأ القرآن على حرف واحد، والتسهيل في هذا المجال لا يخلو أن يكون بأحد التسهيلات الآتية أو جميعها أو بعضٍ منها، وهي:

١ – أن ينزل جبريل بحرف في كل عام حين يعارض النبي القرآن في رمضان، فيسمع بذلك الصحابي، أو يأمر النبي صلى الله عليه وسلم صحابياً من كُتّاب الوحي أن يكتب ذلك الحرف كما نزل، وبذلك يكون الحرف الذي سمعه عمر بن الخطاب غير الحرف الذي سمعه هشام، وهكذا، فيبلّغ الصحابي ذلك الحرف، وفي ذلك توسعة لقراءة القرآن بأكثر من وجه.

٢ – أن يأتي الحرف النازل موافقاً لأشهر اللهجات، ولا يخفى مدى التوسعة على أصحاب تلك اللهجات ومن جاورهم عند تمكينهم النطق بلغتهم.

٣ – أن يُسمح لمن يقرأ القرآن غيباً تبديل الكلمة بمعناها بشرط أن يكون التبديل ضمن الوحي، وتكون حينئذٍ من المعاني التي اتفق مفهومها، واختلف مسموعها، ولا يكون في شيء منها معنى وضده، فيقول: سميعاً عليماً، عزيزاً حكيماً، مالم يختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، كما ورد في المرويات المذكورة سابقاً، مع صرف النظر عن التشهي والغفلة عما نزل به جبريل وحياً، وبلّغه رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمة، وكل ذلك شافٍ كافٍ، إذ هي ألفاظ مختلفة لمعنى متفق، ولا يجرؤ أحد أن يدعي أنه يُسمح بالتبديل خارج اطار الوحي، لكن هذا لا يمنع العفو عمن بدل من غير

---

[1] - فتح الباري، ج٩ ص ٢٧.

قصد، أو أتى بكلمة في نفس معنى الكلمة القرآنية من غير أن يدري، إذ لايدور هذا الحكم في دائرة الأحرف السبعة والله أعلم.

وظلت الأحرف تنزل في القرآن المدني، ويسمع الصحابة حروفاً سبعة، ويكتبونها، ولم يثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألغى حرفاً، كما لم يثبت في هذا المجال أن حرفاً قرآنياً نسخ حرفاً آخر، وجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق دون تحديد للحروف السبعة، وظل الصحابة يعلّمون الناس تلك الأوجه، وقد تفرقوا في الامصار، ولا شك أن تلاميذهم من التابعين كانوا يكتبون بين أيديهم، كما كتب كُتاب الوحي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، فاختلفت كتابة بعض كلمات القرآن حسب الأحرف التي نزلت عليها.

هذا بالاضافة الى أن بعض الصحابة كان له مصحف خاص، وكان بعضهم يضع معنى الكلمة القرآنية بجانبها، مما أدى الى القراءة بغير المسند الى الرسول صلى الله عليه وسلم، وازداد الأمر خطورة عندما دخل الاعاجم في الدين، وهم الذين لا يقدرون على نطق بعض الأحرف العربية كالضاد والحاء، ولا يبدلون حرفاً منها بحرف آخر، وهذا لا يجوز في كتاب الله، فدخل اللحن واختلفت القراءات والقراء، ورفع الامر الى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجمع القرآن ثانية معتمداً على حقائق ثابتة كثيرة حافظت عليها الأمة ابان تلك الفترة، منها:

١ ـ النسخة التي جمعها أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

٢ ـ الشهود الذين شهدوا العرضة الاخيرة التي عرضها جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان من العام الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد حضرها عدد من الصحابة الذين جمعوا القرآن في عهد عثمان.

٣ ـ الكثير من القرشيين الذين نزل القرآن بلغتهم، وتلقوا مشافهة من فم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن بقراءاته كافة، تلك القراءات التي انبثقت من الأحرف قطعاً.

وكانت النتيجة أن استقر الامر على القراءات المتواترة، وحرق ما سواها من الشواذ والقراءات التفسيرية، فان سأل سائل كيف دونت القراءات حينئذ؟ أُجيب بان الكلمة ترسم بما تحتمله من وجوه القراءات فرسم كلمة (ملك) تحتمل قراءة (مالك) وهما

قراءتان متواترتان، فان اختلفت القراءات وصعب جمعها في رسم واحد، رسمت في كل مصحف بوجه، واتفق الموجودون من الصحابة الكرام على ذلك.

وأُرسلت المصاحف الى الامصار، وهي تتضمن القراءات المختلفة تامة، غير ناقصة، بل هي متواترة سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحافظ عثمان رضي الله عنه على هذا الرسم الذي يسمى الى يومنا هذا بالمصحف الامام[١].

وحدث المحذور مرة اخرى باتساع الرقعة، ودخول اللحن، واختلاف القراء، والخطأ، ومحاولة نصرة الرأي، وحذف الاسناد وغير ذلك، فأدى الى دخول الشاذ من القراءات وغير المتواتر، مما حدا بعلماء القراءات أن يضبطوا المتواتر بالسند، وموافقة الرسم العثماني وموافقة اللغة العربية من وجه، وهذه ضوابط القراءة الصحيحة المتواترة.

لكن مصطلح القراءات السبع لا يعني الأحرف السبعة تحديداً باتفاق أهل العلم، ذلك لأن مُسبّع السبعة انما صنع ذلك بالاجتهاد، والاختيار بناء على ضوابط القراءة الصحيحة، فهؤلاء السبعة ضمن غيرهم من القراء هم الذين نقلوا القراءات مشافهة، ثم اختلطت بما لم يصح اسناده، فليست السبع مُتعينة للجواز، ولا ينفي الصحة عن غيرها أنها ليست منها.

أما السبب في اختلاف القراءات فمرده الى أن المصاحف العثمانية كانت خالية من النقط والشكل ووزعت على الامصار، فثبت أهل كل ناحية على ما تلقوه من الصحابة بشرط موافقة الخط وترك ما يخالفه[٢]، فليست القراءات الصحيحة بخارجة عن الأحرف والله أعلم.

---

١ - هناك من يخالف من العلماء كابن جرير الطبري إذ يرى أن الموجود الآن هو حرف واحد من الأحرف، وهو الذي درجت عليه الالسن، وذهبت الأحرف الباقية!! وسيأتي بيان ذلك ان شاء الله.

٢ - فتح الباري، ج٩ ص٣١.

الاختلاف في معنى الأحرف السبعة:

لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيهم في معنى الأحرف السبعة شيء، ولعل ذلك راجع الى معرفتهم بالواقع ونفس الأمر لذلك المعنى، لأنهم لا يسكتون على ايهام، والأمر كان مشتهراً منتشراً، لا يحتاج الى بيان وتوضيح.

أما اللاحقون فاحتدم النزاع بينهم حول معنى الأحرف، وكثر فيه القيل والقال، واليك أشهر أقوالهم:

القول الأول:

إن هذا من المشكل الذي لا يعرف معناه[١]، ذلك أن الاشكال حاصل في الحرف وفي الرقم سبعة.

أما الحرف في اللغة فهو طرف الشيء، يقال: حرف السيف، وحرف الجبل، وحروف الهجاء: أطراف الكلمة، والحروف العوامل في النحو: أطراف الكلمات الرابطة بعضها ببعض[٢].

والعرب تسمي الكلمة المنظومة حرفاً، وتسمي القصيدة بأسرها كلمة والحرف يقع على المقطوع من الحروف المعجمة[٣]،والحرف بمعنى الجهة والطريقة، ومنه قول الله تعالى: {ومن الناس من يعبد الله على حرف}[٤].

وكذا العدد سبعة مشكل، فقد يراد به الكثرة، اذ لفظ السبعة يطلق على الكثرة في الآحاد، كما تطلق السبعون في العشرات، والسبعمائة في المئين، ولا يراد العدد المعين[٥]، والقائلون بهذا يستنيرون لرأيهم بشاهد من القرآن، وهو قوله تعالى: {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم}[٦]، فذكر

---

[١] - نسبه جلال الدين السيوطي الى ابن سعدان النحوي، انظر الاتقان، ج١، ص٤٥، ومحمد بن سعدان أحد القراء، وكان يقرأ بقراءة حمزة الزيات، ثم اختار لنفسه قراءة نسبت اليه.

[٢] - المفردات، للراغب الاصفهاني، صفحة ١١٤.

[٣] - البرهان في علوم القرآن، ج١ ص٢١٣.

[٤] - الحج ١١.

[٥] - الاتقان في علوم القرآن، ج١ ص٤٥.

[٦] - التوبة ٨٠.

سبعين مرة وأراد بها الكثرة المطلقة، أي: مهما تكثر لهم من الاستغفار فلن يغفر الله لهم.

ويجاب على هذا القول بان الاشكال لا ينبغي أن يبقى مشكلاً اذا كان يتعلق بالقرآن العظيم، وقد وصفه الله تعالى بانه المبين، ثم إنه مع التسليم بصحة ما قيل عن الاعداد سبعة وسبعين وسبعمائة يستبعد أن يكون المراد هنا الكثرة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم راجع جبريل مرة بعد مرة، وهو يعلل سبب مراجعته، وهو في كل مرة يزيد حرفاً، حتى وقف على هذا العدد حقيقة، فأصبح نصاً محدداً في السبعة لا يتعداها، ثم إن القول بالكثرة يعني جواز قراءة القرآن بغير ما نزل، وهذا غير مقبول.

القول الثاني:

إن المراد سبعة أنواع من القرآن، كالامر، والنهي، وغيرهما، وأصحاب هذا القول اختلفوا في تعيين السبعة، فقيل: هي أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال، وقيل: هي أمر ونهي وحلال وحرام ومتشابه ومحكم وأمثال، وقيل غير ذلك، حتى تجاوزت أقوالهم العشرين.

وهؤلاء يستدلون بحديث: (كان الكتاب الأول نزل من باب واحد، على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف، زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: {آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب}[1].

ومبنى هذا القول أن الحرف هو الجهة، وهذه جهات متعددة في القرآن، وردّ هذا القول بأمور، منها:

١ – أن التوسعة التي طلبها النبي صلى الله عليه وسلم لم تقع في تحليل حلال، ولا في تغيير شيء من المعاني[2].

٢ – هذا الحديث لا يثبت عند أهل العلم، كما هو واضح من تخريجه.

---

١ - رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين، ج٢، ص٢٨٩، وقال: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه، ولم يوافقه الذهبي، وقال: منقطع.

٢ - الجامع لاحكام القرآن للقرطبي، ج١ ص ٤٦.

٣ – محال أن يكون الحرف حراماً لا ما سواه، أو يكون حلالاً لا ما سواه، لأنه لا يجوز أن يكون القرآن يقرأ على أنه حلال كله، أو حرام كله، أو أمثال كله[١].
٤ – لو كانت الأحرف كذلك لما أدى الى الاختلاف بين عمر وهشام رضي الله عنهما، ولو اختلفا عليه لما أقرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم.
٥ – يحتمل أن تكون الرواية تفسيراً للابواب لا للأحرف[٢].
٦ – لا معنى لتخصيص الأحرف بما ذكروا، وهو معارض لحديث عمر وهشام، فانهما لم يختلفا في تفسير القرآن، ولا في أحكامه، وانما اختلفا في قراءة حروفه.
القول الثالث:

إن الأحرف هي سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير عن أحد المعاني يأتي القرآن منزلاً بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد، وحيث لا يكون هناك اختلاف فانه يأتي بلفظ واحد، فهي معانٍ متفق مفهومها مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه ويضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب، نحو هلم، أقبل، تعال، عجل، أسرع، نحوي، قصدي، فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد.

وهذا القول منسوب لجمهور أهل الحديث والفقه، ومنهم شيخ المفسرين الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ)، واستدل على صحة قوله بروايات، أشهرها:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال جبريل: اقرأ القرآن على حرف، قال ميكائيل عليه السلام: استزده، فقال: على حرفين، حتى بلغ ستّة أو سبعة أحرف، فقال: كلها شافٍ كافٍ، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة، أو آية رحمة بآية عذاب، كقوله: (هلم وتعال)[٣].

---

[١] - البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج١ ص ٢٦.
[٢] - الاتقان في علوم القرآن للسيوطي،ج١ ص٤٩.
[٣] - جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، ج١، ص ٤٨.

ثم أجاب الطبري على الشبهات فقال: (فان قال: ففي أي كتاب الله نجد حرفاً واحداً مقروءاً بلغات سبع مختلفات الألفاظ متفقات المعنى، فنسلم لك صحة ما ادعيت من التأويل في ذلك؟

قيل: إنا لم ندع أن ذلك موجود اليوم، وانما أخبرنا أن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أنزل القرآن على سبعة أحرف) على نحو ما جاءت به الاخبار التي تقدم ذكرها دون ما ادعاه مخالفونا في ذلك.

فان قال: فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة إن كان الأمر في ذلك على ما وصفت، وقد أقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، وأمر بالقراءة بهن، وأنزلهن الله من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم؟ أنسخت فرفعت، فما الدلالة على نسخها ورفعها؟ أو نسيتهن الأمة، فذلك تضييع ما قد أمروا بحفظه؟ أم ما القصة في ذلك؟

قيل له: لم تنسخ فترفع، ولاضيعتها الأمة وهي مأمورة بحفظها، ولكن الامة أمرت بحفظ القرآن، وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت، كما أمرت اذا هي حنثت في يمين وهي موسرة أن تكفر بأيّ الكفارات الثلاث شاءت، اما بعتق أو اطعام أو كسوة، فلو أجمع جميعها على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث دون حظرها التكفير بأي الثلاث شاء المكفّر كانت مصيبة حكم الله، مؤدية في ذلك الواجب عليها من حق الله، فكذلك الامة، أمرت بحفظ القرآن وقراءته، وخيّرت في قراءته بأي الأحرف السبعة شاءت، فرأت – لعله من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد – قراءته بحرف واحد، ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية، ولم تحظر قراءته بجميع حروفه على قارئه بما أذن له في قراءته به) انتهى كلام ابن جرير الطبري.

وُرد هذا القول من وجوه[١]:

احدها: صعوبة حصر الأحرف السبعة بناءً على هذا القول إذ المذكورات (هلم وتعال...) من قبيل ضرب المثل فقط.

ثانيها: يلزم قصر الأحرف السبعة على بعضها، وذهاب الأحرف الستة الأخرى دون نسخ أو رفع، وتلك ورطة لا تخفى على كل ذي لب، ولعلها اسلمت أصحاب هذا القول الى ورطة أخرى هي دعوى إجماع الأمة على أن تَثْبُت على حرف واحد، ولا دليل على ذلك الاجماع، وقد لا يستساغ الغاء الرخصة بالنطق بألفاظ القرآن بوجوه متعددة، والحاجة قائمة الى يومنا هذا، فاننا نشاهد الالسنة غير العربية لا يتيسر لها أن تحسن النطق ببعض الحروف، فاغلاق باب الرحمة غير مقبول، فكيف اذا كان في الغاء أحرف نزلت من السماء تيسيراً وتخفيفاً؟

ثالثها: ان الذين شايعوا هذا المذهب يقولون: القراءات على اختلافها اليوم ترجع الى حرف واحد من الأحرف السبعة، ولا دليل على ذلك، ثم إن القراءات المنقولة الى اليوم منها ما هو من لغات القبائل، ومنها ألفاظ مترادفة لمعنى واحد، فكيف تكون لحرف واحد؟!

القول الرابع:

إنها سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات هي أفصح لغاتهم، ولكن اكثره بلغة قريش[٢]، واحتج أصحاب هذا الرأي بقول عثمان رضي الله عنه حين أمرهم بكتب المصاحف: ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش فإنه أكثر ما نزل بلسانهم[٣].

وجمع بين هذا القول وسابقه صاحب فتح الباري[٤] فقال: (يمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد بالأحرف تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى مع انحصار ذلك في سبع لغات) انتهى.

---

١ - انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، ج١ ص ١٧٥.

٢ - (الى هذا ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام وأحمد بن يحيى ثعلب، وحكاه ابن دريد عن ابي حاتم السجستاني وحكاه بعضهم عن القاضي ابي بكر)، كذا قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن، ج١ ص ٢١٧.

٣ - المرجع السابق نفسه، مجلد ١ ص ٢١٨.

٤ - فتح الباري، ج٩ ص ٢٨.

وأجيب عن كون الأحرف هي اللغات بان القرآن نزل بلسان قريش لقوله تعالى: {وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه}[١]، وبأن لغات العرب اكثر من سبع، وبأن عمر وهشام رضي الله عنهما كلاهما قرشي، لغتهما واحدة، ومن قبيلة واحدة، وقد اختلفت

قراءتهما في الفاظ سورة واحدة، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته، فدلّ على أن المراد بالأحرف السبعة غير ما يقصدونه، ثم انه لم يثبت أن القرآن قرىء بمثل كشكشة قبيلة قيس وعنعنة تميم، وقد سبق بيانهما في قصة الأحرف السبعة فارجع اليه راشداً.

ومما رُدّ به على هذا القول أن العرب لا تركب لغة بعضها بعضاً، ومحال أن يقرىء النبي صلى الله عليه وسلم أحداً بغير لغته[٢].

القول الخامس:

المراد بالأحرف السبعة الاوجه التي يقع فيها التغاير، وحصرها ابن قتيبة[٣] في سبعة أوجه، فقال[٤]:

(قد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه:

أولها: الاختلاف في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها، نحو قوله تعالى: {وهل نُجازي الا الكفور}[٥]، قُرىء {وهل يُجازى الا الكفورُ}.

والوجه الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة، وحركات بنائها بما يُغير معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب[٦]، نحو قوله تعالى: {ربّنا باعِدْ بين أسفارنا}([٧]) قرىء {ربُّنا باعدَ بين أسفارنا}.

---

[١] - سورة ابراهيم آية ٤.

[٢] - البرهان في علوم القرآن ج١ ص ٢٢٠.

[٣] - ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، أبو محمد، ولد ببغداد، وقيل: بالكوفة سنة (٢١٣)، صاحب المصنفات الكثيرة، توفي سنة (٢٧٦).

[٤] - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٦ بتصريف يسير.

[٥] - سورة سبأ آية ١٧.

[٦] - يراد به الاختلاف في تصريف الأفعال.

[٧] - سورة سبأ آية ١٩.

والوجه الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون اعرابها، بما يُغير معناها، ولا يزيل صورتها[1]، نحو قوله تعالى: {وانظر الى العظام كيف نُنْشزها}[2] قرىء {كيف ننشرها}.
الوجه الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يُغيّر صورتها في الكتاب، ولا يُغير معناها، نحو قوله تعالى: {كالعهن المنفوش}[3]، قرىء {كالصوف المنفوش}.
الوجه الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها، نحو قوله تعالى: {وطلح منضود}[4] قرىء {وطلع منضود}.
الوجه السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير، نحو قوله تعالى: {وجاءَت سكرة الموت بالحق}[5] قرىء {وجاءَت سكرة الحق بالموت}.
الوجه السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان، نحو قوله تعالى: {وما عملته أيديهم}[6]، قرىء {وما عملت أيديهم} وكل هذه الحروف لكلام الله تعالى، نزل بها الروح الأمين على رسوله عليه السلام، وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن فيُحدث الله اليه من ذلك ما يشاء، وينسخ ما يشاء، وييسر على عباده ما يشاء، فكان من تيسيره أن أمره بأن يُقرىء كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم، فالهذلي يقرأ {عتى حين} يريد {حتى حين}[7]، لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها) انتهى قول ابن قتيبة.
ومن العلماء من نقح هذا الكلام ونقله[8]، دون نسبته لابن قتيبة وذهب الى هذا القول كثير من العلماء، ولا يخفى أن أصحاب هذا القول حريصون على اثبات أن المصاحف الموجودة الآن مشتملة على الأحرف السبعة جميعها، ورُدَّ هذا القول بأن بعض وجوه التغاير والاختلاف التي يذكرونها ورد بقراءات الآحاد، ولا خلاف في أن

---

١ - أي: الاختلاف بالابدال.
٢ - سورة البقرة آية ٢٥٩.
٣ - سورة القارعة آية ٥.
٤ - سورة الواقعة آية ٢٩.
٥ - سورة ق آية ١٩.
٦ - سورة يس آية ٣٥.
٧ - سورة المؤمنون آية ٥٤.
٨ - انظر فتح الباري مجلد ٩ ص ٢٩.

كل ما هو قرآن يجب أن يكون متواتراً وهذا كاف لرد هذا القول ثم ان الرخصة في الأحرف كانت واكثرهم يومئذٍ لا يكتب ولا يعرف الرسم وانما كانوا يعرفون الحروف بمخارجها، وما ذكروه من أوجه التغاير يرجع الى الخط.

القول السادس:

الأحرف السبعة هي القراءات السبع[١]، لانها صحت كلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي جمع عليه عثمان رضي الله عنه المصحف، وهي اختيارات القراء، فان كل واحد منهم اختار ما هو الأحسن عنده والأقوى سنداً، واشتهرت عنه ونسبت اليه وهم الذين اشتهروا، ونسبت الأحرف اليهم، فقيل: حرف نافع، وحرف ابن كثير، ولم يمنع واحد منهم حرف الآخر، ولا أنكره، بل سوّغه وحسّنه، وكل واحد من هؤلاء السبعة روي عنه اختياران أو أكثر، وكلٌ صحيح وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ماصح عنهم توسعة على الأمة.

وليس المراد أن كل كلمة قرآنية تقرأ على سبعة أوجه، بل قد تقرأ بوجه واحد أو بوجهين أو ثلاثة أو أكثر.

وُردّ هذا القول بأنه ظاهر البطلان[٢]، ويكفي لبيان بطلانه أن الأحرف السبعة القرآنية موجودة قبل وجود القراء السبعة، وقد تم اختيارهم بالاجتهاد أوائل القرن الرابع الهجري، وجاء حصرهم بالعدد سبعة محض مصادفة، وفي الائمة القراء غير السبعة من هو مشهور بجلالة القدر، حتى قيل[٣]: لقد فعل مُسبّع السبعة مالاينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بايهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته اذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل هذه الشبهة.

[١] - نسب الزركشي هذا القول للخليل بن أحمد الفراهيدي، انظر البرهان في علوم القرآن، المجلد الأول، الصفحة ٢١٤.

[٢] - قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن، المجلد الأول، صفحة ٤٦.

[٣] - قاله أبو العباس بن عمار المهدوي، يلوم ابن مجاهد الذي اختارهم، ونقل جلال الدين السيوطي هذا القول، انظر الاتقان في علوم القرآن المجلد الأول، ص١٣٨.

مناقشة الأقوال والترجيح:

باستعراض الأقوال السابقة يمكن استحضار بعض الملاحظات واستخلاص بعض الثمرات والنتائج، وحينئذٍ يسهل الوصول الى القول الجامع، ولعله أن يكون القول الراجح باذن الله تعالى، ومن هذه الملاحظات:

١ – أن القول الراجح يدور حول الأقوال التالية:

أ - اللهجات، بحيث يسمح للعربي أن ينطق الفاظ القرآن بلهجته، ولكن هذا لا يمكن أن يكون على اطلاقه، وتحديده ببعض اللهجات دون بعض يحتاج الى دليل، وهو مفقود.

ب – القراءات السبع، لانها متواترة، فهي في الظاهر أقرب ما تكون الى الأحرف السبعة، ويمنع منه أن تحديد السبع والقراء السبعة كان متأخراً عن التيسير بالأحرف السبعة، وقد تم حصرهم بالاجتهاد لا بالنص، ولا يخفى أن هذا القول متفق مع سابقه بأن الحرف هو النطق بالكلمة القرآنية على وجوه، ان كانت لهجة فنزل بها جبريل أصبحت حرفاً ثم قراءة.

ت – أوجه التغاير السبعة التي ذكرت، لولا ذلك الحصر والتحديد الذي لم يعتمد على نص، وانما تم بالاستقراء فقط، وهو متفق مع سابقيه بأن القراءات هي الأحرف، وقد تغايرت القراءات على الوجوه المذكورة ولولا الحصر لكان أرجح الاقوال.

٢ – الترجيح بين الأقوال ينبني على الثوابت التالية:

أ - القرآن منقول بالتواتر، وكذا القراءات المتواترة.

ب – كل ما نقل من القرآن متواتراً لا يجوز الغاؤه بالاجتهاد، والصحابة يتقدمهم عثمان ابن عفان رضي الله عنهم أحرص الناس على نقل القرآن كما نزل.

ت – لا يجوز للاعجمي ولا للعربي أن ينطق بالقرآن بغير الكيفية التي أوحي بها الى النبي صلى الله عليه وسلم.

٣ – جرت محاولات كثيرة وباخلاص في ميدان الترجيح بين الأقوال من غير وصول للغاية بما يقنع ويدفع الشُبه، ولعل بعض العلماء ينتقل بين الاقوال مرجحاً كلما برق له دليل.

٤ – بعض القراءات غير المتواترة لا يجوز الحكم بقرآنيتها، لأنها قد تكون ناشئة عن قراءة الكلمة القرآنية على غير الوجه الذي نزلت عليه بالوحي، أو تكون تفسيراً، فظنها البعض قراءة، فليست القراءات كافة هي الأحرف.

٥ – لا يجوز الحكم على تواتر قراءة، مالم ينص السابقون على تواترها.

٦ – لم يُكلف الصحابة الكرام بتحديد كل حرف من السبعة مستقلاً، ولم يحددوها، فلا يجوز تحديدها اجتهاداً.

القول الراجح:

يظهر أن الأحرف السبعة هي القراءات المتواترة من غير تحديد بالقراءات السبع، ولا بأوجه التغاير، وانما هي سبعة أوجه نزل بها جبريل ابان معارضته رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن كل عام، ومن غير تحديد كل وجه على صفة الاستقلال.

ويدل على رجحان هذا القول الأدلة التالية:

١ – أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكل من عمر وهشام رضي الله عنهما: (هكذا أنزلت)، فليست مطلقة، بل مقيدة بالوحي، فجعل الأحرف هي القراءات المتواترة موافق للروايات كافة.

٢ – أن هذا القول لا يلغي حرفاً من الحروف التي نزل القرآن عليها، فهي مبثوثة في القراءات المتواترة، التي يؤمن فيها تواطؤ الرواة على الكذب، بل هي قطعية الورود.

٣ – لا يقتصر على السبع المتواترات من القراءات، بل يشمل كل قراءة متواترة، فقد يكون الحرف من العشر، ومن الاربع عشرة، ومن كل قراءة منقولة، حسب تواتر القراءة.

٤ – لا يمنع من دخول لهجات العرب في الأوجه، فانها داخلة في القراءات لكنها هذه المرة أوحي بها الى النبي صلى الله عليه وسلم وتواترت الينا.

٥ – نزل القرآن على أوجه، لم يثبت الغاؤها، والقرآن محفوظ، فلا يمكن لأحد ان يحذف شيئاً، فلا بد أن تكون الأحرف ضمن القراءات، والأسلم اعتبارها المتواترة.

٦ – هذا القول يجمع بين الأقوال الراجحة عند العلماء، فالأحرف السبعة منها القراءات السبع ومنها لهجات، ومنها ما يتعلق اختلافه باوجه التغاير، فهو جامع لها جميعاً.

٧ – يدفع الشُبه التي قد تثار أو أثيرت حول حفظ القرآن من النقص والزيادة، اذ يقع في حرج من يظن أن عثمان بن عفان رضي الله عنه جمع الناس على حرف واحد، والغى ستة أحرف من غير نسخ ولا الغاء، فالأسلم أن تبقى الأحرف موجودة سالمة من التحريف والنقص، والمصاحف الموجودة الآن مشتملة على الأحرف السبعة.

٨ – الكل متفق على أن القراءات المتواترة ناتجة عن الأحرف السبعة، فإما أن تكون بتمامها لحرف واحد، واما لكل الأحرف، ولا يخفى أن جعلها لحرف واحد يثير مسألة لا جواب عليها، وهي: أين الستة الباقية؟.
٩ – القراءات المتواترة تتضمن تيسيراً يتوافق مع طلب النبي صلى الله عليه وسلم الاستزادة من الأحرف، فهاهم المسلمون مع كثرتهم يتقنون قراءته، ولعل الأعجمي كثيراً ما يتفوق على العربي في هذا المجال.

هل الأحرف السبعة موجودة الآن في المصاحف؟

أصل المصاحف الآن هو المصحف الامام العثماني، واشتمال المصاحف العثمانية التي أرسلت الى الامصار على الأحرف السبعة كلها أو بعضها يتوقف معرفة ذلك على تحديد المراد من الأحرف السبعة، وذلك مختلف فيه على النحو الآتي:

١ – ذهب ابن جرير الطبري[١] ومن تابعه الى أن المصاحف العثمانية لم تشتمل الا على حرف واحد من الأحرف السبعة، ولم يسلّموا لمن قال: إن المصاحف العثمانية اشتملت على الأحرف السبعة، إذ لو كانت هذه الأحرف تشتمل عليها المصاحف لما كان مصحف عثمان حسماً للنزاع في اختلاف القراءات، ولكن لما صارت لقريش السيادة الدينية وصار العرب يؤثرون هذه اللغة لم يعد من الضروري الاستمرار على القراءة بغير القرشية، وأما الأحرف الستة الباقية فلم تنقل محافظة على وحدة الأمة ودرءاً للاختلاف في القرآن، ولانها كانت لرفع الحرج والمشقة في بداية الأمر وقد انتهت الحاجة اليها، فوفّق عثمان رضي الله عنه لأمر عظيم، لأنه رفع الاختلاف، وجمع الكلمة، وأراح الامة، واستمر الاجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب.

ولا يخفى أن أصحاب هذا القول اختلفوا: هل استقر الأمر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أم بعد وفاته؟ والأكثرون على الأول، يرون أن الضرورة اقتضت التوسعة

١ - جامع البيان في تأويل القرآن، المجلد الأول، صفحة ٤٨.

ثم انضبط الأمر، وتدربت الألسن، وتمكن الناس من الاقتصار على الطريقة الواحدة، فعارض جبريل النبي صلى الله عليه وسلم القرآن مرتين في السنة الأخيرة، واستقر على ما هو عليه الآن، فنسخ الله سبحانه تلك القراءة المأذون فيها بما أوجبه من الاقتصار على هذه القراءة التي تلقاها الناس، فالذي في المصاحف العثمانية انما هو الحرف الذي ارتضته الأمة زمن عثمان، وهو الذي وافق العرضة الأخيرة، وأما الأحرف الاخرى فقد ذهبت لأن القراءة بها لم تكن على سبيل الالزام وانما كانت على سبيل الرخصة، الا أن مصحف عثمان الذي بأيدي الناس اليوم هو حرف واحد وعلى هذا أهل العلم[١].

ومن هؤلاء من يرى أن مصحف عثمان مشتمل على ما يحتمله الرسم من الأحرف، فقد يشتمل على حرفين أو ثلاثة وهكذا[٢].

٢ – اكثر العلماء أن الأحرف هي أوجه التغاير في الالفاظ، وهو يعني أن القراءات المتواترة هي الأحرف، سواء من السبع أو من غيرها، وهو قول جامع لأقوال أهل العلم، فالمصاحف اليوم مشتملة على الأحرف كلها، وردت الينا بطريق التواتر، ويتأيد هذا القول بالأدلة التالية:

١ – لم يثبت نسخ الأحرف الستة، ولم يُرو ذلك عن السلف الذين جمعوا القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، بل الأدلة مع الثاني.
٢ – يتوافق هذا القول مع حفظ القرآن من النقص والزيادة بحفظ الله سبحانه وتعالى له.
٣ – عدم استقرار أصحاب القول الأول على دليل، بل هم مختلفون في اسلوب ذهاب تلك الأحرف.
٤ – الحاجة الى الأحرف السبعة ما زالت ماثلة الى يومنا هذا والى يوم الدين، فكيف تحذف!

١ - البرهان في علوم القرآن، المجلد الأول، صفحة ٢١٢.
٢ - الاتقان في علوم القرآن، المجلد الأول، صفحة ٤٩.

٥ – الذي حرقه سيدنا عثمان تلك القراءات الشاذة والتفسيرية وما أخطأ بعض الأعاجم في قراءاته، وليس نص القرآن.
٦ – لاوجه لتعلق الناس بقول ابن جرير الطبري وقد سبقه العلماء بعكسه، كما لا وجه لتلك الروايات من مثل هلم وتعال وأقبل، فانما هي من باب المثل، وليست بشيء في مجال القرآن، إذ أين هي كلمة هلمّ التي تقرأ على هذه الوجوه؟ وما القراءات المتواترة الا من هذا الباب لو دققنا النظر.
٧ – الصحابة الذين تلقوا الأحرف مشافهة من النبي صلى الله عليه وسلم هم الذين علموه التابعين ثم تعلم منهم من تبعهم، وذلك ما نراه اليوم من القراءات المتواترة، إذ غير المتواترة لم تثبت بالسند الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله تعالى أعلم.
٨ – بهذا القول نسلم من المداخلات ونفند الشبهات التي تثار حول حرق المصاحف في زمن عثمان رضي الله عنه.

الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف:

إن لنزول القرآن على سبعة أحرف حكماً كثيرة، من أهمها:
١ – التيسير على الأمة الاسلامية، وارادة اليسر بها، والتهوين عليها حفظاً وفهماً ونطقاً، وذلك لأميتهم، ورفع الحرج عنهم، توسعة ورحمة، وخصوصية لفضلها وشرفها.
٢ – اجابة قصد النبي صلى الله عليه وسلم، أفضل الخلق، وحبيب الحق، إذ رأى أن أمته لا تطيق قراءته على حرف أو حرفين أو غير ذلك الى سبعة أحرف.
٣ – اعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب، فتعدد مناحي النطق بالقرآن تعدداً يكافىء الفروع اللسانية عند العرب مع بقاء الاعجاز الذي تحدى به القرآن العرب مع اليأس من معارضته لا يكون اعجازاً للسان دون آخر، وانما هو اعجاز للفطرة اللغوية عند العرب[1].
٤ – اثبات اعجاز القرآن، اذ يحافظ القرآن على المعنى بالفاظ مختلفة وصور متقلبة.

[1] - مباحث في علوم القرآن للقطان ، صفحة ١٦٩.

٥ – تعدد الأحكام المستنبطة من النص إذا قرىء باكثر من وجه، وتلك حكمة ظاهرة من القراءات التي هي أثر الأحرف.
٦ – من أصاب حرفاً من الأحرف السبعة فقد أصاب شاكلة الصواب.
٧ – تثبيت قلوب المؤمنين والاطمئنان الى أن القرآن متواتر النقل بالقراءات وان اختلفت الالفاظ فالأحرف بتمامها توقيفية.

أما حكمة الوقوف عند سبعة فهي مراعاة اكثر الأوجه المحتملة فانك قليلاً ما تجد لفظاً يقرأ على سبعة أوجه، ويمكن مع ذلك مراعاة اللهجات المنتشرة المشهورة والقريبة من الاشتهار.

ثم ان عِلم الله سبحانه أوسع وأدق، وهو الذي أراد الوقوف عند سبعٍ، كما أراد الوقوف في عدد الصلوات عند خمس، والطواف عند سبعة أشواط وغير ذلك، ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم بيان هذه السبع، ولا تعليل الوقوف عند سبعٍ.

القراءات والقراء

القراءات: علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة، ولذلك عرّفها العلماء بقولهم: **القراءة: مذهب يذهب اليه امام من الأئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن مع اتفاق الروايات والطرق عنه.**

أحوال الاسناد: قسّم القراء أحوال الاسناد الى قراءة ورواية وطريق ووجه، وقد بيّنهما السيوطي في الاتقان[1] فقال: (الخلاف إن كان لأحد الائمة السبعة أو العشرة أو نحوهم واتفقت عليه الروايات والطرق عنه فهو قراءة، وإن كان – أي الخلاف – للراوي عنه فرواية، أو لمن بعده فنازلاً فطريق، أو لا على هذه الصفة مما هو راجع الى تخيير القارىء فيه فوجه).

نشأة القراءات:

القراءات أثر للأحرف السبعة التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم تيسيراً وتخفيفاً ومن القراءات ما هو من الأحرف، فيرجع عهد القراء الى الصحابة الكرام، الذين تلقوا القرآن مشافهة من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أشتهر من الصحابة أبي بن كعب وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت، وأبو موسى الاشعري، والخلفاء الاربعة وغيرهم.

وقد قرأ على كل واحد منهم جماعة من الصحابة، ثم أخذ عنهم خلف من التابعين، فمنهم من كان بالمدينة كسعيد بن المسيب وعمر بن عبدالعزيز وعطاء بن يسار وابن شهاب الزهري، ومنهم من كان بمكة كعطاء ابن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، ومجاهد، وعكرمة، ومنهم من كان بالكوفة كعلقمة ومسروق وعمرو بن شراحيل والشعبي، ومنهم من كان بالبصرة كنصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر وابن سيرين وقتادة، ومنهم من كان بغير هذه الاماكن كالشام وغيرها.

---

[1] - الاتقان ١/٧٤.

وحين دعت الحاجة تجرد قوم واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية حتى صاروا ائمة يُقتدى بهم ويرحل اليهم، ومن هؤلاء القراء السبعة، ثم انتشرت القراءات في الاقطار وتفرقوا أمماً بعد أمم، واشتهر من رواة كل طريق من طرق السبعة راويان.

ولما دخل اللحن وكاد الباطل يلتبس بالحق قام جهابذة الأمة وبالغوا في الاجتهاد، وجمعوا الحروف والقراءات وعزوا الوجوه والروايات، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ بأصول أصلوها، وأركان فصلوها، فليس في القراءات السبع دون غيرها سنة ولا أثر، وإنما هو جمع المتأخرين فلو أن السابقين ذكروا غير هؤلاء السبعة بالاضافة اليهم لاشتهروا.

السبب في الاقتصار على القراءات السبع:

قراءات اؤلئك القراء السبعة هي المتفق عليها، الا أن بعض العلماء اختار من الأئمة القراء ثلاثة تواترت قراءاتهم، فاضحوا مع أولئك أصحاب القراءات العشر، الا أن هذا الاجتهاد في ضبط القراءات لا ينفي عنها وجود الشواذ، لان صحة السند وعدم صحته تثبت باجتهاد المجتهدين ولأسانيد المحدثين أثر في تسلسل القراءات، ولذلك لم يقبلوا قراءة واحد الا اذا ثبت أخذه عمن فوقه بطريق المشافهة، خاصة وأن الاجتهاد في القراءات تم في المائة الثالثة.

أما السبب في الاقتصار على القراءات السبع فلعله راجع الى أمور كثيرة، من أهمها:

أولاً : كثرة الرواة للقراءات تطلبت الاقتصار على ما يوافق خط المصحف ويسهل حفظه وتنضبط به القراءة.

ثانياً : النظر الى من يشتهر بصفات منها الثقة والأمانة وملازمة القراءة، والاتفاق على الأخذ منه.

ثالثاً : محاولة افراد امام واحد من كل مصر من الامصار التي أُرسلت اليها المصاحف العثمانية، وليس الاقتصار على واحد مطرد، بل الغالب، فقد يكون العدد أكثر من واحد في المصر الواحد.

رابعاً : اسهام المؤلفين في الاقتصار على عدد معين لأنه أدعى الى شهرتهم، وان كان غيرهم أجل منهم قدراً، ولو كتب غيرهم لاشتهروا كاشتهارهم.

ولم يلق هذا الحصر القبول لدى العلماء، لثبوت القراءات الصحيحة في غير ما ذكر في المحصور، وقالوا[1]: لقد فعل مسبِّع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الامر على العامة بايهامه كل من قلَّ نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة.

أول من صنف في القراءات[2]:

أول من صنف في القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ، وجعلهم خمسة وعشرين قارئاً، ثم أحمد بن جبير، وصنف غيرهما، حتى جاء أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤، فكان أول من اقتصر على سبع قراءات، وحظيت هذه القراءات بشهرة واسعة، حتى توهم الكثيرون أنها هي المراد من الأحرف السبعة التي ذكرت في الحديث النبوي الشريف.

سبب اختلاف القراءات وفوائده:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن على وجوه متعددة كما نزل بذلك جبريل عليه السلام، وأثبت عثمان رضي الله عنه هذه الوجوه في المصاحف التي أرسلها الى الامصار، وكان في تلك الامصار من الصحابة من يُعلم الناس القرآن، وربما ثبت من القراءات في أحد مصاحف عثمان ما ليس في الآخر مما لم يحتمله الرسم، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل، فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعاً من الصحابة، بشرط موافقة المكتوب في المصحف، امتثالاً لأمر عثمان الذي وافقه الصحابة عليه لما رأوا في ذلك من الاحتياط للقرآن[3]، ثم نشأ اختلاف فيما بعد، وذلك لاختلاف قراءة الكلمة القرآنية، وتفاوت الناقلين عن الصحابة أو عن

---

[1] - قاله ابن عمار، ونقله ابن حجر في فتح الباري ٩/٣٠.
[2] - انظر الاتقان ١/٧٣.
[3] - فتح الباري ٩/٣١.

الرواة، مما حدا بالجهابذة من العلماء الاجتهاد لتميز القراءات المنقولة المتواترة عن غيرها من الشاذ غير الصحيح.

وتبقى فوائد الاختلاف جمة منها:

١ – التيسير على الأمة والتخفيف، إذ يشق عليها أن تقرأ القرآن على وجه واحد.

٢ – الدلالة على صيانة كتاب الله، وحفظه من التحريف والتبديل مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة، ومن هذه الفائدة تنبع أخرى وهي بيان مدى عناية السلف الصالح بالقرآن كتابة وتلاوة.

٣ – إختلاف الأحكام الفقهية بإختلاف القراءات، كقوله تعالى: {وأرجلكم الى الكعبين}[1] قرىء بكسر اللام عطفاً على الممسوحات قبلها، فيكون فرض الرجلين في الوضوء المسح، وقرىء بفتح اللام عطفاً على المغسولات، فيكون فرضهما الغسل لا المسح.

٤ – بيان ما يحتمل أن يكون مجملاً في قراءة أخرى، كقوله تعالى: {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما}[2] قرىء (أيمانهما) بدلاً من (أيديهما)، وتبين بهذه القراءة أن التي تقطع أولاً هي اليمين.

٥ – تجلية اعجاز القرآن من خلال ايجازه، اذ يمكن أن ينطق بالكلمات القرآنية على وجوه مختلفة دون انحراف عن المعنى، كما يمكن أن تتعدد المعاني والأحكام برسم واحد، وكل القراءات مثال لهذه الفائدة.

٦ – بيان لفظ مبهم، كما في {العهن المنفوش} قرىء {الصوف المنفوش}.

والخلاصة أن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات.

---

[1] - المائدة ٦.

[2] - المائدة ٣٨.

ضابط قبول القراءات:

لما تعددت القراءات واختلفت من جهة الاسناد وموافقة الرسم العثماني وغير ذلك انتشرت القراءات الشاذة، فوضع العلماء ضابطاً للقراءات المقبولة، لتمييز الصحيحة من الشاذة، فالقراءة الصحيحة هي:

"كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً، ووافقت العربية ولو بوجه، وصح اسنادها"، فشروطها هي:

١ – أن توافق أحد المصاحف العثمانية، ولو احتمالاً، ومعنى ولو احتمالاً أنه يكفى أن توافق الرسم ولو موافقة غير صريحة، فكلمة (مالك) كتبت في الفاتحة (ملك) ووضع فوق الميم الف صغيرة، فتقرأ ملك فتوافق الرسم تحقيقاً، وتقرأ مالك فتوافقه احتمالاً.

٢ – ان توافق اللغة العربية، ولو بوجه، سواء كان الوجه أفصح أو فصيحاً وينبغي التنبه هنا أن قواعد اللغة العربية مستمدة من كتاب الله لا العكس، فلا يجوز تخطئة القراءة الصحيحة لمجرد مخالفتها لقواعدهم النحوية، بل القراءة الصحيحة هي الحاكمة.

٣ – أن يصح اسنادها بنقل العدل الضابط عن مثله، لأن القراءة سنة متبعة يعتمد فيها على سلامة النقل وصحة التواتر.

ويلاحظ من هذه الشروط أمور عدة:

أولها : لم يشترط التواتر، لأن التواتر وارد في تعريف القرآن فلا حاجة لايراده في الضابط ولو شرط لصعب التمييز، والشروط المذكورة مساوية للمتواتر.

ثانيها : كثير من القراءات توافق رسم المصحف ولا يقرأ بها.

ثالثها : لو وافقت القراءة شرطين دون الثالث لم تقبل.

انواع القراءات من حيث أسانيدها[1]:

تتنوع القراءات من حيث سندها الى ستة أنواع هي:

١ – المتواتر، وهو: ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم الى منتهى السند، ومثاله القراءات السبع[2]، وقد يكون من العشر متواتر أيضاً، لأن الاعتماد في هذا الميدان على السند.

٢ – المشهور، وهو: ما صح سنده ولم يبلغ درجة المتواتر ووافق العربية والرسم واشتهر عند القراءة فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، ويقرأ به، مثاله: ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض، وذلك كثير في فرش الحروف.

٣ – الآحاد، وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، وهذا النوع لا يقرأ به، ولا يجب اعتقاده، قال السيوطي[3]: عقد الترمذي في جامعه والحاكم في مستدركه لذلك باباً، أخرجا فيه شيئاً كثيراً صحيح الاسناد ومن ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدري عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: (متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان)، وذكر السيوطي امثلة أخرى يمكن الرجوع اليها لمن شاء.

٤ – الشاذ وهو: مالم يصح سنده ومثاله قراءة {ملك يوم الدين} بصيغة الماضي، ونصب {يوم الدين}.

---

[1] - انظر تفصيل الانواع في النشر ١/١٤، والاتقان للسيوطي ١/٧٩.

[2] - البرهان للزركشي ١/٣١٨.

[3] - الاتقان ١/٧٩.

٥ – الموضوع، وهو: ما ينسب الى قائله من غير أصل، كالقراءات التي نسبت لأبي حنيفة، كقراءة: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}[1] برفع اسم الجلالة ونصب العلماء.

٦ – ما يشبه المدرج من أنواع الحديث وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كزيادة (في مواسم الحج) بعد قوله تعالى: {ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم}[2] رواه البخاري.

الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع:

يظن كثيرمن الناس أن الأحرف السبعة هي القراءات السبع، وذلك لاتفاق الأحرف والقراءات في العدد سبعة، والحق أن بينهما أوجه اتفاق وأوجه افتراق، أما أوجه الاتفاق فمنها:

١ - الاتفاق في العدد سبعة.

٢ – أن الغاية منهما التيسير،إذ بهما تقرأ اللفظة القرآنية بأكثر من وجه.

٣ - كلاهما يثبت اعجاز القرآن، إذ بهما تختلف الالفاظ مع المحافظة على أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، ثم إن تعدد المعاني للفظة الواحدة يمنح النص القوة والجمال، فكيف إذا أمكن تعدد اللفظ أيضاً؟

٤ – كلاهما توقيفي، إذ أوحي الى النبي صلى الله عليه وسلم بهما، ونقلتهما الصحابة بعد تلقيهما مشافهة، وكذلك التابعون ومن بعدهم الى يومنا هذا.

٥ – انهما متداخلان، فالقراءات أثرُ الأحرف، ومن هنا قيل: حرف نافع، وحرف حمزة، وغير ذلك من القراء السبعة.

---

[1] - فاطر ٢٨.
[2] - البقرة ١٩٨.

أما أوجه الافتراق فمن أشهرها:

١ – الأحرف السبعة تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مشافهة من جبريل، ثم تلاها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه، وعلمهم اياها، أما القراءات السبع فقد تم حصرها وضبطها بالاجتهاد فيما بعد.

٢ – الأحرف السبعة أعم، إذ شملت القراءات المتواترة من القراءات العشر وغيرها، أما السبع فلم تشمل، إذ القراءات المتواترة وجدت في غير السبع.

٣ – كل قراءة من القراءات السبع محددة باستقلال، ومنضبطة بأسس، ومنسوبة للقارىء بها وللرواة، أما الأحرف السبعة فلا تحديد لها.

٤ – تنسب القراءات للقراء بخلاف الأحرف.

٥ – غاية ما تنتهي اليه الأحرف سبعة أحرف، أما من ضبط القراءات السبع فلم يدّعِ استيعابها للمتواتر من القراءات.

٦ – لا وجود للقراء السبعة أيام النبي صلى الله عليه وسلم، فمصطلح القراءات السبع لم يكن في العصر الأول ولم تكن حين نطق رسول الله باحاديث الأحرف، بخلاف الأحرف السبعة، فمعروفة في ذلك العصر.

٧ – الأحرف هي الاصل، والقراءات الفرع والثمرة.

٨ – الأحرف تقتضي اختلاف اللفظ واتفاق المعنى عند من يرجح أن الأحرف هي اللهجات، والقراءة قد يختلف اللفظ والمعنى بها.

٩ – عند من يرجح أن الأحرف هي اللهجات تكون الأحرف قرآناً منزلاً للبيان والاعجاز، والقراءات كيفية النطق بالفاظ الوحي، ولا يرد هذا الفرق في الترجيح الذي سبق بيانه.

١٠ – انتقلت القراءات السبع الينا بالاتفاق، وفي انتقال الأحرف بتمامها خلاف.

هذا في السبع اما القراءات بشكل عام فتفترق عن الأحرف من وجوه أخرى، منها:

١ – أن من القراءات ماليس قرآناً، لأنها لم تنقل بالتواتر كالقراءات الشاذة، أما الأحرف فمتواترة.

٢ – نشأت بعض القراءات نتيجة الخطأ في قراءة الالفاظ القرآنية غير المعجمة وغير المشكولة، أو تلك القراءات التفسيرية، التي كتبها بعض الصحابة بجانب الكلمة فظنها البعض من القراءات وليس كذلك، أما الأحرف فمتواترة وليست خطأ في قراءة المرسوم القرآني.
٣ – لا حد للقراءات، ومنها مالم يوح به، والأحرف كافة متلقاة بالوحي.
٤ – القراءات تنتظم بعض الأوجه التي اجتهد فيها المتأخرون، حتى إن بعضهم أخطأ فرأى أن القراءة تابعة للغة، فحيثما صح في اللغة وجه جازت القراءة به عنده، أما الأحرف فوحي يشترط فيها السند.
٥ – القراءات عموماً أعم من الأحرف، إذ بعض القراءات ليست من الأحرف.

أشهر القراء:

القارىء : امام تنسب اليه أحد القراءات، وقد اشتهر كثير من قراء القرآن عبر القرون، وكان الأكثر اشتهاراً القراء السبعة، ثم الثلاثة باقي العشرة، ثم تمام الاربعة عشر، والقراء المشهورون هم:

أ - **القراء السبعة:** وهم الذين اقتصر عليهم ابو بكر بن مجاهد، المتوفى سنة (٣٢٤)هـ، واشتهروا بتواتر قراءاتهم حتى ظن البعض ان قراءاتهم فقط هي المتواترة، وهم:

١ – عبدالله بن عامر، اليحصبي، الشامي، الدمشقي، تابعي جليل، قرأ على عثمان ابن عفان رضي الله عنهما، توفي بدمشق سنة (١١٨) هـ، وراوياه هما: هشام المتوفى بدمشق سنة ٢٤٥، وابن ذكوان القرشي المتوفى سنة (٢٤٢).

٢ – عبدالله بن كثير، الداري، المكي، تابعي، لقي عدداً من الصحابة الكرام، وتوفي سنة (١٢٠)هـ وراوياه هما: البزّي المكي إمام المسجد الحرام، المتوفى سنة (٢٥٠)، وقنبل المكي، لقب بذلك لشدته وتوفي سنة (٢٩١).

٣ – عاصم بن أبي النجود، الأسدي، الكوفي، القارىء المتقن توفي بالكوفة سنة (١٢٨)، وراوياه هما: شعبة المشهور بابن عياش الأسدي المتوفى سنة (١٩٣)، وحفص ربيب عاصم، توفي سنة (١٨٠).

٤ – زَبَّان بن العلاء، أبو عمرو، البصري، ثقة في الدين المتوفى سنة (١٥٤)، وراوياه بواسطة اليزيدي المتوفى سنة (٢٠٢) هما: الدوري المقرىء الضرير البغدادي أول من جمع القراءات المتوفى سنة (٢٤٦)، والسوسي المتوفى سنة (٢٦١).

٥ – حمزة بن حبيب الزيات، الكوفي، العالم بالفرائض والحديث والعربية، المتوفى بحلوان سنة (١٥٦)، وراوياه بواسطة أبي عيسى الحنفي المتوفى سنة (١٨٨) هما: خلف ابن هشام البزار المتوفى سنة (٢٢٩) وخلاد الصيرفي المتوفى سنة (٢٢٠).

٦ – نافع بن عبدالرحمن المدني، أخذ القراءة عن سبعين من التابعين، المتوفى سنة (١٦٩)، وراوياه هم قالون النحوي، الملقب بهذا لجودة قراءته، لأن قالون معناه الجيد، توفي سنة (٢٢٠)، وورش بن سعيد المصري الملقب بورش لشدة بياضه توفي سنة (١٩٧).

٧ – الكسائي، علي بن حمزة، لقب بالكسائي لأنه كان في الإحرام لابساً كساءً، توفي سنة (١٨٩) وراوياه المروزي الليث بن خالد المتوفى سنة (٢٤٠) والدوري حفص ابن عمر الذي روى عن أبي عمرو، وسبق الحديث عنه.

ب - باقي العشرة:

٨ – أبو جعفر يزيد بن القعقاع المتوفى سنة (١٣٠)، وهو تابعي، وراوياه وردان المدني المتوفى سنة (١٦٠)، وابن جماز المدني المتوفى سنة (١٧٠).

٩ – يعقوب بن اسحق الحضرمي، البصري، المتوفى سنة (٢٠٥)، وراوياه هما: روح بن عبدالمؤمن المتوفى سنة (٢٣٤)، ورويس البصري المتوفى سنة (٢٣٨).

١٠- خلف بن هشام، المتوفى سنة (٢٢٩) وراوياه الوراق المتوفى سنة(٢٨٦)، وادريس الحداد المتوفى سنة (٢٩٢).

ت – تمام القراء الأربعة عشر:

١١ – الحسن البصري، المتوفى سنة (١١٠).

١٢- ابن محيصن المكي، المتوفى سنة (١٢٣).

١٣- يحيى اليزيدي البصري، المتوفى سنة (٢٠٢).

١٤- الشنبوذي البغدادي، المتوفى سنة (٣٨٨).

تواتر القراءات السبع:

القرآن الكريم متواتر، لأنه أصل الدين القويم، والصراط المستقيم، فينبغي توفر الدواعي على نقله، أما القراءات السبع ففي تواترها خلاف، إذ ذهب الجمهور الى أنها متواترة، وقيل: بل مشهورة والتحقيق أنها متواترة[١]، وبالغ بعضهم فقال: من زعم أن القراءات السبع لا يلزم فيها التواتر فقوله كفر، لأنه يؤدي الى عدم تواتر القرآن جملة[٢]، وهو قول مردود، لأن عدم تواتر القراءات السبع لا يستلزم عدم تواتر القرآن، فقد يكون القرآن متواتراً في غير السبع.

وذهب ابو عمرو بن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦هـ الى أن بعض القراءات السبع غير متواتر، وذلك ما ليس من قبيل الأداء كالمد والامالة وتخفيف الهمزة، وهذا ضعيف أيضاً، لأنه لا شك في تواتر المشترك بينهما وهو المد من حيث هو مد والامالة من حيث هي امالة، ولكن المختلف فيه بين القراء هو تقدير المدّ والامالة.

وبالغ بعضهم في توهين القراءات السبع والغض من شأنها، فيزعم أنه لا فرق بينها وبين سائر القراءات، ويحكم بأن الجميع روايات آحاد، بدليل أن من طعن في شيء منها يكفر، وقد وقع الطعن فعلاً من بعض العلماء فيها، فكيف نحكم بتواترها؟

---

١ - البرهان ١/٣١٩.

٢ - يعزى هذا القول الى مفتي البلاد الاندلسية فرج بن لب، انظر مناهل العرفان ١/٤٣٥.

والصواب أنه لا يكفر من طعن فيها، بل من علم التواتر وأنكره كفر، والا فلا، فقد يكون الشيء متواتراً عند قوم غير متواتر عن آخرين

والراجح ان القراءات السبع متواترة تواتراً تاماً، إذ نقلت عن النبي صلى الله عليه وسلم جمعاً عن جمع، يمتنع تواطؤهم على الكذب.

هذا في القراءات السبع، وبعض المحققين من العلماء كابن الجزري يرى أن القراءات العشر كلها متواترة.

القراءات الشاذة:

القراءات الشاذة: هي التي لم يصح سندها الى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا تجوز قراءة القرآن بالشواذ، قال الزركشي: (لا تجوز قراءته بالشواذ، وقد نقل ابن عبدالبر الاجماع على منعه)[١]، إذ القرآن يثبت بالتواتر، والقراءات الشاذة ليست متواترة.

ومنع قراءة القرآن بالشاذ يستلزم منع الصلاة به من باب أولى، فلو خالف وقرأ بالشاذ أنكر عليه، وقال بعض الفقهاء: يستتاب من تعمد القراءة بالشاذ ولا يصلى خلف من يقرأ بها، فإن كان جاهلاً بالتحريم عُرِّف به، وأمر بتركها، وإن كان عالماً أُدب وإن أصر على ذلك حبس الى أن يرتدع[٢].

وللقراءة الشاذة فائدة تتعلق بتفسير كتاب الله، ذلك أنها تُعين على فهم كتاب الله أحياناً، قال السيوطي: (احتج الاصحاب على قطع يمين السارق بقراءة ابن مسعود[٣]، وعليه أبو حنيفة أيضاً، واحتج على وجوب التتابع في صوم كفارة اليمين بقراءته متتابعات[٤]، ولم يحتج بها اصحابنا[٥] لثبوت نسخها) انتهى[٦] فاختلاف القراءات

---

١ - البرهان ١/٤٦٧.

٢ - نقل هذا القول عن المالكية. انظر البرهان ١/٣٣٣.

٣ - يعني قول الله تعالى : {والسارق والسارقة فاقطعوا أيدهما} المائدة ١٣٨، فقد قرأ ابن مسعود (ايمانهما) بدل "ايديهما" فدل على أن القطع أولاً لليد اليمنى.

٤ - يعني قوله تعالى: {فصيام ثلاثة أيام} المائدة ٨٩، فقد زاد ابن مسعود في قراءته فقال: (ثلاثة ايام متتابعات).

٥ - يعني الشافعية.

٦ - انظر الاتقان ١/٨٢.

يظهر اختلاف الأحكام[1]، ويعين على فهم كتاب الله، إذ كان يروى مثل هذا عن بعض التابعين في التفسير فيستحسن ذلك، فكيف إذا روي عن كبار الصحابة، ثم صار في نفس القراءة، فهو الآن أكثر من التفسير وأقوى، فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف صحة التأويل.

وأما التأليف في الشاذ فكثير، اذ ألف فيه ابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ كتاباً سماه المختصر في شواذ القرآن، كما صنف ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ كتاباً سماه المحتسب في توجيه القراءات الشاذة. وغيرهما.

[1] - ضرب السيوطي أمثلة اخرى على ذلك. انظر الاتقان ١/٨٢.

المحكم والمتشابه

المحكم لغة مأخوذ من حكم وأحكم، بمعنى منع، وإحكام الشي إتقانه[1]، ومنه الحُكم وهو الفصل بين الشيئين، ومنه الحاكم، وهو الذي يمنع الظالم، ويفصل بين الخصمين، والحكمة تمنع صاحبها عما لا يليق.

والمتشابه في اللغة مأخوذ من التشابه، والمتشابهات المتماثلات، والتشبيه التمثيل[2]، والتشابه أن يشبه أحد الشيئين الآخر عيناً أو معنى.

هذا في اللغة، وأما في الاصطلاح فقد اختلف في المراد بهما، إذ وُصف القرآن بانه محكم كله، ومتشابه كله، وبعضه محكم وبعضه متشابه، ففي قوله تعالى {كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت}[3] وُصف الكتاب بأنه محكم كله، وفي قوله تعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم}[4]، وُصف بأنه متشابه كله، بينما في سورة آل عمران وصف القرآن بأنه محكم في بعض آياته، متشابه في غيرها فقال تعالى: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب}[5]،ومن هنا أثيرت مسألة هي: ما الفرق بين المحكم والمتشابه من الآيات القرآنية؟.

وأجيب عن وصف القرآن بأنه محكم كله أو متشابه كله بأن المراد بإحكامه إتقانه، وعدم تطرق النقص والاختلاف اليه، وأن المراد بتشابهه تماثله وتناسبه وكونه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز[6]، فكل من المحكم والمتشابه بمعناه الكلي المطلق لا ينافي الآخر.

---

[1] - الصحاح للجوهري ٥/١٩٠١.
[2] - الصحاح ١/٢٢٣٦.
[3] - سورة هود ١.
[4] - سورة الزمر ٢٣.
[5] - آل عمران ٧.
[6] - انظر الاتقان للسيوطي ٣ /٢.

أما الآية في سورة آل عمران فلا خلاف في أن المحكم فيها يقابل المتشابه فاختلف في تعينهما على أقوال ذكر السيوطي[1] ما يزيد عن عشرة أقوال، أشهرها:

١ – المحكم ما عرف المراد منه إما بالظهور واما بالتأويل، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، فهو نقيض المتشابه من جهة وضوح المعنى وعدم وضوحه.

٢ – المحكم مالا يحتمل الا وجهاً واحداً فتأويله تنزيله، والمتشابه ما احتمل أوجهاً فلا يدرك الا بالتأويل.

٣ – المحكم ما كان معقول المعنى، والمتشابه غير معقول المعنى، كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون غيره وهكذا.

٤ – المحكم ما استقل بنفسه، والمتشابه مالا يستقل بنفسه الا برده الى غيره.

٥ – المحكم الذي يعمل به، والمتشابه الذي يجب الايمان به، ولا يعمل به.

٦ – المحكم ما ثبتت تلاوته ولم ينسخ، والمتشابه المنسوخ.

هل يُعلم المتشابه؟

أُختلف هل المتشابه مما يمكن علمه أو لا يعمله الا الله؟ على أقوال، منشؤها الاختلاف في قوله تعالى: {والراسخون في العلم}[2]، هل هو معطوف أو مبتدأ مستأنف؟

القول الأول: إنه معطوف، ويكون حينئذٍ قوله تعالى: {يقولون آمنا به} حالاً، فالراسخون يعلمون التأويل، ومن هنا يمكن فهم قول ابن عباس رضي الله عنهما: انا ممن يعلم تأويله، وقول مجاهد: يعلمون تأويله ويقولون: آمنا به، ودليلهم أنهم لو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه، ولا حلاله من حرامه، وهذا هو اختيار النووي إذ قال: "اختلف العلماء في الراسخين في العلم، هل يعلمون تأويل المتشابه، وتكون الواو في "والراسخون" عاطفة أم لا؟ ويكون الوقف على "وما يعلم تأويله الا الله" ثم يبتدىء قوله تعالى: {والراسخون في العلم يقولون آمنا به}؟ وكل واحد من القولين محتمل، واختاره طوائف، والأصح الأول، وأن الراسخين يعلمونه، لأنه يبعد

---

[1] - الاتقان ٢/٣.
[2] - آل عمران ٧.

أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق الى معرفته، وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يفيد والله أعلم" انتهى[1].

القول الثاني: إنه مبتدأ، خبره "يقولون"، والواو للاستئناف، فالراسخون في العلم لا يعلمون تأويل القرآن، وانما يقولون: "آمنا به كل من عند ربنا" وهو قول الأكثر من الصحابة والتابعين، ورجحه السيوطي في الاتقان وقال: "يدل لصحة مذهب الاكثرين ما أخرجه عبدالرزاق في تفسيره والحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ {وما يعلم تأويله الا الله ويقول الراسخون في العلم: آمنا به}، فهذا يدل على أن الواو للاستئناف، لأن هذه الرواية إن لم تثبت بها القراءة فأقل درجتها أن تكون جبراً باسناد صحيح الى ترجمان القرآن، فيتقدم كلامه في ذلك على من دونه، ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم الى الله وسلموا اليه كما مدح الله المؤمنين بالغيب" انتهى[2].

ومن أدلتهم حديث عائشة قالت: "تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية {هو الذي أنزل عليك الكتاب} الى قوله: {اولو الالباب} قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم" متفق عليه.

وعن عائشة: كان رسوخهم في العلم أن آمنوا بمتشابهه ولا يعلمونه، ويمكن التوفيق بين القولين بأن ذلك راجع الى معنى التأويل فإن كان المراد بالتأويل الحقيقة التي يؤول اليها الكلام فالراسخون لا يعلمون تأويل المتشابه وأنى لهم أن يعلموا حقيقة ذات الله التي أخبر عنها؟

وإن كان التأويل بمعنى التفسير فالراسخون يعلمون تأويله كما لا يخفى.

القول الثالث: التوسط، وهو رأي الراغب الاصفهاني إذ قال: (جميع المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل للوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة وكيفية الدابة

---

[1] - صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٢٨١.

[2] - انظر الاتقان في علوم القرآن٢/٣.

ونحو ذلك، وضرب للانسان سبيل الى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام الغَلِقه، وضرب متردد بين الأمرين، يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم وهو الضرب المشار اليه في قوله عليه السلام: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" وإذا عرفت هذه الجملة عُلمَ أن الوقف على قوله: {وما يعلم تأويله الا الله} ووصله بقوله: {والراسخون في العلم} جائز، وأن لكل واحد منهما وجهاً حسبما دل عليه التفصيل المتقدم) انتهى[1].

المتشابه من صفات الله تعالى:

أكثر المتشابه آيات الصفات، كقوله تعالى: {الرحمن على العرش استوى}[2] وقوله تعالى: {كل شيء هالك الا وجهه}[3] وقوله تعالى: {يد الله فوق ايديهم}[4] وقد ذهبت طائفة من أهل السنة وأهل الحديث على الايمان بها وتفويض معناها المراد منها الى الله تعالى، وقالوا: لا نؤولها تنزيهاً لله تعالى، وعلى هذا يحمل قول الامام مالك وقد سئل عن {الرحمن على العرش استوى} فقال: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعه[5].

وذهبت طائفة أخرى من أهل السنة الى تأويلها على ما يليق بجلاله تعالى، فيؤولون الاستواء بالاستيلاء، والوجه بالذات، واليد بالقدرة، وذلك حسب سياق النص الوارد.

---

[1] - انظر المفردات للراغب ص ٢٥٥.
[2] - سورة طه ٥.
[3] - القصص ٨٨.
[4] - الفتح ١٠.
[5] - الاتقان ٢/٦.

الحكمة من وجود المتشابه في القرآن:

لا شك أن لوجود المتشابه في القرآن حكماً كثيرة، قد تظهر وقد لا تظهر، ولكنها كدأب القرآن بتمامه فهو كثير الفوائد، جليل المقاصد، ومما ظهر من حكمة وجود المتشابه ما نقله السيوطي عن بعضهم إذ قال: (قال بعضهم: العقل مبتلى باعتقاد حقية المتشابه، كابتلاء البدن بأداء العبادة، كالحكيم إذا صنف كتاباً أجمل فيه أحياناً ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه، وكالملك يتخذ علامة يمتاز بها من يطلعه على سره، وقيل: لو لم يُبتل العقل الذي هو أشرف البدن لاستمر العالِم في أبهة العلم على التمرد، فبذلك يستأنس الى التذلل بعز العبودية، والمتشابه هو موضع خضوع العقل لبارئها استسلاماً واعترافاً بقصورها) انتهى[1].

ويمكن أن يقال في الحكمة من وجود المتشابه: إنه للابتلاء والاختبار، إذ يفتن به أهل الريب والشك، كما يكشف به عن الراسخين في الايمان، إذ هم الذين يردونها الى الله، ووجود المتشابه يحفز العلماء على التدبر والتحري محاولين فهمه ويجتهدون في معناه، والله تعالى أعلم.

---

[1] - الاتقان ٢/٤.

إعجاز القرآن الكريم

جعل الله سبحانه وتعالى آيات باهرات في الكون تدل على وجوده ووحدانيته لمن تدبر وتأمل، ثم وهب الانسان عقلاً يُعينه على الوصول الى تلك الحقيقة متآزراً مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولما كان العقل البشري في كثير من أحواله قاصراً عن فهم الحقائق الكونية كافة أمده الله سبحانه وتعالى بالوحي، وأرسل الرسل، وأيدهم بالمعجزات، وبها يثبت الاعجاز، فما هي المعجزة؟ وما هو الاعجاز؟

المعجزة : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة[١]، يظهره الله على يد نبي تأييداً لنبوته.

ويلاحظ في التعريف أن الأمر الخارق للعادة غير جارٍ على ما اعتاد الناس عليه في سنن الكون والظواهر الطبيعية، وأن الذين يُتحدون قادرون على اتيان مثل المعجزة لو لم تكن من عند الله تعالى، والا فإن التحدي لا يتصور.

والمعجزة قسمان:

١ – حسية، كمعجزات أنبياء بني اسرائيل كالعصا واليد وغيرهما.

٢ – معنوية عقلية، كمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من الانبياء نبيّ الا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله اليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" متفق عليه[٢] وفي معناه وجوه، من أشهرها:

١ – أن معجزات الانبياء انقرضت بانقراض اعصارهم فلم يشاهدها الا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة الى يوم القيامة، وخرقه العادة في اسلوبه وبلاغته واخباره بالمغيبات دائم، فلا يمر عصر من الاعصار الا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون دليلاً على صحته[٣].

٢ – المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسيّة تشاهد بالابصار كناقة صالح وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر

---

١ - الاتقان ٢/١١٦.

٢ - صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن حديث ٤٩٨١، صحيح مسلم كتاب الايمان حديث ١٥٢.

٣ - انظر شرح النووي على صحيح مسلم ٢/١٨٨.

لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً.
٣ – ان كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره، تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشياً عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره، وكذلك احياء عيسى الموتى باذن الله وابراء الاكمه والأبرص لكون الاطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم اليه، ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك[1].
٤ – معناه أن الذي أوتيته لا يتطرق اليه تخييل بسحر وشبهه بخلاف معجزة غيري فانه قد يخيل الساحر بشي مما يقارب صورتها كما خيلت السحرة في صورة عصا موسى صلى الله عليه وسلم، والخيال قد يروج على بعض العوام، والفرق بين المعجزة والسحر والتخييل يحتاج الى فكر ونظر، وقد يخطىء الناظر فيعتقدهما[2].
وقيل غير ذلك، وذكر ابن حجر هذه الأقوال وقال: (قلت: ويمكن نظم هذه الأقوال كلها في كلام واحد، فإن محصلها لاينافي بعضه بعضاً) انتهى[3].
وأما اسباب كون معجزات الانبياء السابقين حسيّة ومعجزة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم عقلية فمن أشهرها:
١ – أن الأمة الإسلامية تتمتع بذكاء وكمال فهم بعكس من قبلهم ممن يتصفون بالبلادة.
٢ – أن الشريعة الإسلامية باقية وشرائع السابقين محصورة فيناسبها المحسوس، ولا يناسب الشريعة الخالدة الا المعقول.
وفي هذين يقول السيوطي: (اكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن

---

[1] - فتح الباري ٩/٦.
[2] - ذكره النووي في شرح صحيح مسلم ٢/١٨٨.
[3] - فتح الباري٩/٧.

هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر) انتهى[١].
٣ – لعل السبب ما ذكر سابقاً أن معجزات الانبياء تناسب ما أبدعوا فيه وبرعوا، وقد برع العرب بالبلاغة والفصاحة، وأقاموا في ذلك اسواقهم الشعرية والنثرية، فجاء القرآن موافقاً لحالهم متفوقاً عليهم فيما اشتهروا به.

فالقرآن معجزة جابهت العقول، وتحدت الملكات والمواهب، ولم يزل ما بقي الزمان وتتابع الجديدان يصدق النبي صلى الله عليه وسلم ويثبت الرسالة.

تعريف الاعجاز:

الاعجاز: اثبات العجز، والعَجْز: عدم القدرة[٢] في اللغة، وفي الاصطلاح الاعجاز القرآني هو: اثبات القرآن عجز الخلق عن الاتيان بما تحداهم به[٣]، أو: اظهار صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة باظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة[٤].

ومما يجدر الانتباه اليه أن التعجيز المذكور ليس مقصوداً لذاته، بل المقصود لازمه، وهو اظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي جاء به رسول صدق.

مراحل التحدي:

ثبت اعجاز القرآن للبشر لما تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب، وكانوا أفصح الفصحاء، ومصاقع الخطباء، وتوفرت الدواعي لديهم فعجزوا، وتحقق الاعجاز بتحديهم على مراحل، هي:

---

١ - الاتقان في علوم القرآن ٢/١١٦.
٢ - لسان العرب لابن منظور ٥/٣٦٩.
٣ - مناهل العرفان ٢/٣٢١.
٤ - مباحث في علوم القرآن للقطان ٢٥٨.

اولاً: تحداهم بالقرآن كله، أن يأتوا بمثله وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا، قال تعالى: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين}[1].
ثانياً: تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله}[2].
ثالثاً: ثم تحداهم بسورة واحدة في قوله تعالى: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله}[3]، ثم كرر في قوله تعالى: {وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين}[4].

فلما عجزوا عن معارضته والاتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء نادى عليهم باظهار العجز واعجاز القرآن فقال تعالى: {قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا}[5]، هذا وهم الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على اطفاء نوره، واخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا اليها قطعاً للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشي من ذلك ولا رامه، بل عدلوا الى العناد تارة والى الاستهزاء اخرى، وتارة قالوا: اساطير الأولين، ثم رضوا بتحكيم السيف في اعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم، واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنف شيء، وأشد حمية، فلو علموا أن الاتيان بمثله في قدرتهم لبادروا اليه، لأنه كان أهون عليهم[6].

القدر المعجز من القرآن[7]*:*

اختلف في قدر المعجز من القرآن، على النحو الآتي:

---
١ - سورة الطور ٣٤.
٢ - سورة هود ١٣-١٤.
٣ - سورة يونس ٣٨.
٤ - البقرة ٢٣.
٥ - الاسراء ٨٨.
٦ - الاتقان ٢/١١٧.
٧ - انظر هذا المبحث في الاتقان للسيوطي ٢/١٢٣.

١ – ذهب بعض المعتزلة الى أنه متعلق بجميع القرآن، وهو مردود بالتحدي بعشر سور وبمثل سورة منه، كما ثبت سابقاً.
٢ – وقال البعض: يتعلق الاعجاز بسورة طويلة كانت أو قصيرة، تشبثاً بظاهر قوله: {فأتوا بسورة}، ويحصل بقدر سورة من الكلام بحيث يتبين فيه تفاضل قوى البلاغة، سواء بآية أو بآيات.
٣ – قال آخرون: يتعلق الاعجاز بقليل القرآن وكثيره، لقوله تعالى: {فليأتوا بحديث مثله}، ورد هذا القول بان الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة.

والظاهر أن القرآن معجز من غير تحديد قدر فيه فقد يصعب على البليغ أن يأتي بمثل بعض كلمات القرآن في سياقها ومعانيها وما ترمز اليه، كما يصعب عليه أن يأتي بمثل آية أو سورة أو عشر سور.

وجوه اعجاز القرآن:

لما ثبت كون القرآن معجزاً وجب الاهتمام بمعرفة وجه الاعجاز، وقد خاض الناس في ذلك كثيراً، وتعددت أقوالهم، ومن أشهرها:
١ – إن إعجاز القرآن ليس من ذات القرآن، وانما هو من أمر خارج عنه، فقد ذهب أبو اسحق ابراهيم النظام[1]، الى أن اعجاز القرآن بالصرفة، أي: أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم، وكان مقدوراً لهم، لكن عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات.

وهو قول مردود، قال السيوطي[2]: (وهو قول فاسد، بدليل: {قل لئن اجتمعت الانس والجن} الآية[3]، فانه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل

[1] - أبو اسحق ابراهيم بن سيار النظام، شيخ الجاحظ، واحد من رؤوس المعتزلة، توفي بعد سنة مائة وعشرين هجرية.
[2] - الاتقان ٢/١١٨.
[3] - الاسراء ٨٨.

بذكره، هذا مع أن الاجماع منعقد على اضافة الاعجاز الى القرآن، فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة اعجاز؟) انتهى.

ومما يُرد به هذا القول أمور، منها:

اولاً : يلزم من القول بالصرفة زوال الاعجاز بزوال زمان التحدي، وخلو القرآن من الاعجاز، وفي ذلك خرق لاجماع الامة، حيث أجمعت على أن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم العظمى باقية.

ثانياً: لو كانت المعارضة ممكنة وانما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وانما يكون بالمنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه، وهذا مردود.

ثالثا: ان الباعث على الصرفة لا يخلو أن يكون واحداً من ثلاثة كلها باطلة، وهي:

أ - أن بواعث المعارضة ودواعيها لم تتوفر لديهم، وهذا منقوض لأن القرآن تحداهم اكثر من مرة، وهم مضرب المثل في الحمية والأنفة، وهم أهل البيان الذي تحداهم القرآن به، وسفه احلامهم، ونعى عليهم حالهم، فكيف يسكتون؟

ب – أن صارفاً الهياً زهدهم في المعارضة، فلم تتعلق ارادتهم بمعارضته، ولم تنبعث اليها عزائمهم فكسلوا، وهذا منقوض بأنهم لم يتركوا طريقاً الا سلكوه، وآذوا النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه، وقاطعوهم حتى أكلوا أوراق الشجر، واتهموا النبي بالسحر والجنون والكهانة، فهل هؤلاء كانوا مصروفين عن معارضته؟

ت – أن عارضاً مفاجئاً عطل مواهبهم البيانية، وعاق قدرتهم البلاغية، وسلبهم أسبابهم العادية، رغم تعلق ارادتهم بالمعارضة، وهذا منقوض أيضاً إذ لم يشتهر عنهم أن أعلنوا عن مثل ذلك العارض المفاجيء، وهل دام ذلك العارض؟ أو سيدوم اثره الى يوم الدين؟

٢ – أن اعجاز القرآن من ذاته وليس خارجاً عنه، وهؤلاء اختلفوا في وجه اعجازه، وتعددت أقوالهم، ومنها:

اولاً: إن إعجازه في أخباره عن الغيوب المستقبلة، ولم يكن ذلك العلم من شأن العرب، وقال آخرون: ما تضمنه من الاخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين، حكاية من شاهدها وحضرها، ورد بعضهم هذا القول لأنه يستلزم أن الآيات التي لا خبر فيها عن المغيبات المستقبلة والماضية لا اعجاز فيها، وهو باطل، فقد جعل الله كل سورة

معجزة بنفسها[1]، والظاهر أنه من وجوه الاعجاز لتلك الآيات على وجه الخصوص ولغيرها وجوه أخرى.
ثانياً: أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة الفاظه، وذلك أن الله أحاط بكل شيء علماً واحاط بالكلام كله فترتبت اللفظة من القرآن بعد الاخرى على أبين الوجوه من جهة المعنى، من أول القرآن الى آخره، بما يعجز عنه البشر.
ثالثاً: وجه الاعجاز الفصاحة، وغرابة الاسلوب، والسلامة من جميع العيوب، فقد استمرت فصاحته وبلاغته من جميع انحائها في جميعه استمراراً لا يقدر عليه البشر.
رابعاً: وجه الاعجاز فيه من جهة البلاغة، لكن صعب عليهم تفصيلها، وذلك أن الاحاطة باغراض الله من كلامه واسراره في كتابه غير ممكنة، لذلك حارت العقول، وتاهت البصائر.
خامساً: أنه معجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم قديماً وحديثاً.

والتحقيق أن اعجاز القرآن وقع بجميع ما سبق من الأقوال عدا الصرفة، لا بكل واحد على انفراد، فان القرآن جمع ذلك كله فلا معنى لنسبته الى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق، فمنها الروعة التي له في قلوب السامعين واسماعهم والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة، ومنها أنه آخر الكتب السماوية، وهو غني عن غيره من الكتب المتقدمة، فالقرآن منطوٍ على وجوه من الاعجاز كثيرة، فمن تأمل القرآن لم يجد أفصح ولا أعذب من الفاظه، ولم ير نظماً أحسن تاليفاً، وأشد تلاوة وتشاكلاً من نظمه، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه، والترقي الى أعلى درجاته، يجمع بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ونهي، وأمر، وزجر، ودعا، وحث واضعاً كل شيء منها موضعه، الذي لا يُرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، فوجوه اعجازه كثيرة منها العددي والطبي، والتاريخي، والعلمي، واللغوي، وقد آثرت الاقتصار على ثلاثة أوجه أفصّل الكلام فيها بإذن الله تعالى.

أ - **الاعجاز اللغوي**: إذ أنزل الله عز وجل القرآن بلغة العرب، وعجز عن معارضته أساطين الفصحاء، ووقع التحدي به على مراحل، وكان عجزهم في كل

[1] - البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/٩٥.

مرحلة أشنع وأبشع، وسجل عليهم الهزيمة أبد الدهر، واعتبر الاعجاز اللغوي هو الاعجاز الحقيقي الذي تحدى به القرآن العرب، وهو متأكد في كل سورة بل في كل آية من القرآن، قال سبحانه وتعالى: {كتاب أحكمت آياته ثم فصلت}[1].

لقد حاول شرذمة من الناس أن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثل ما أتى به، ولم تتعدَّ أن تكون محاولاتهم مضحكة مخجلة، فهذا مسيلمة الكذاب يطلع بهذا الهذر (انا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر) وبهذا السخف (والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً) ويروي التاريخ أن المتنبي وابن المقفع والمعري حدثتهم نفوسهم مرة أن يعارضوا القرآن فما كادوا يبدأون حتى انتهوا الى تكسير اقلامهم، بل ان المتذوقين من الناس دهش للقرآن عندما سمعه أول مرة، فقد روى الحاكم[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن الوليد بن المغيرة جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك ابا جهل، فأتاه فقال له: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فانك أتيت محمداً لتتعرض لما قِبلَه قال: قد علمت قريش أني من اكثرهم مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيده، ولا باشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وانه لمثمر اعلاه، مغدق اسفله، وانه ليعلو وما يعلى، وانه ليحطم ما تحته، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره فنزلت: {ذرني ومن خلقت وحيداً}[3].

وصدق الله العظيم: {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله}[4].

ب – الاعجاز العلمي:

تضمن القرآن الكريم كثيراً من الاصطلاحات العلمية الكونية، استدل بها في مجال الهداية والدعوة، وذلك أن الحقائق العلمية التي تكتشف ويتوصل اليها توافق

---

[1] - سورة هود ١.
[2] - ذكره السيوطي في الاتقان ٢/١١٧.
[3] - المدثر ١١.
[4] - الزمر ٢٣.

القرآن الكريم صراحة فيثبت بذلك اعجازه على مر الدهور وكر العصور، بالاضافة الى انه ليس في القرآن الكريم ما يخالف الحقائق العلمية الثابتة.

ومن هنا وجدنا علماء التفسير يجتهدون في استخراج مختلف العلوم وتطبيقها على نصوص القرآن، حتى أدى الى تحكيم الاصطلاحات العلمية في نصوص القرآن وهذا خطأ فاحش، ولذلك اختلف العلماء في مثل هذا النوع من التفسير – الاعجاز العلمي في القرآن – فمنهم الموافق ومنهم المخالف، وجاء اختلافهم على النحو الآتي:

١ – الغزالي والرازي والسيوطي يؤيدون هذا النوع ويدعمونه، لأن القرآن كما يشمل العلوم الدينية والاعتقادية فهو أيضاً يشمل علوم الدنيا بما يجعله وجهاً مستقلاً من أوجه اعجاز القرآن.

٢ – الشاطبي في كتابه الموافقات أنكر هذا النوع، ولعله انكره بسبب ما قد يظنه البعض من أن الحقائق العلمية هي الأصل، والقرآن يوافقها، ولذلك وجدناهم يطوعون نصوص القرآن بتفسيرها بما يوافق اهواءهم.

والذي ينبغي تقريره ازاء هذا الخلاف أن هدف القرآن الكريم هو الهداية وتوجيه الخلق الى المنهج السوي، ليكون معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد حاكم الناس الى عقولهم، ودعاهم الى التدبر في آيات القرآن المتعلقة بالكون وهي التي يظهر لهم على الازمنة حقائق كونية علمية ثابتة لا تتغير.

مجالات التدبر التي حث عليها القرآن:

حث القرآن الكريم على التفكير السديد والنظر الصائب في عدة مجالات منها:

١ – مخلوقات الله في السموات والأرض، {إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار}[١].

٢ – نفس الانسان: {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}[٢].

٣ – الارض: {وفي الارض آيات للموقنين}[٣].

٤ – الطبيعة المحيطة به: {افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت}[٤].

٥ – علوم الفلك والنبات وطبقات الارض: {الم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء}[٥].

ويلاحظ أن القرآن يحث على التفكير والتدبر، ويفتح ابواب المعرفة ويجعل ذلك من بواعث خشيته، ولذلك رفع الله مكانة العلم والعلماء فقال سبحانه: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات}[٦].

---

[١] - آل عمران ١٩٠ – ١٩١.
[٢] - الذاريات ٢١.
[٣] - الذاريات ٢٠.
[٤] - الغاشية ١٧ – ٢٠.
[٥] - فاطر ٢٧ – ٢٨.
[٦] - المجادلة ١١.

اشارات علمية قرآنية:

ورد في القرآن اشارات علمية سبقت مساق الهداية منها:

١ – التلقيح بالرياح، اذ ثبت علمياً أن بعض النبات ذات التلقيح الخلطي لا الذاتي، يكون تلقيحها بالنقل، ومن وسائل النقل للقاح تلك الرياح، وقد ثبتت هذه الحقيقة العلمية في قوله تعالى: {وأرسلنا الرياح لواقح}[١].

٢ – ليست الذرة أصغر شيء، فقد ساد الاعتقاد ان الذرة هي الجزء الذي لا يقبل التجزئة، فثبت بصريح القرآن ان هناك ما هو أصغر قال تعالى: {وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين}[٢]، فلا أصغر من الذرة الا تحطيم الذرة.

٣ – نقص الاوكسجين بالصعود في السماء، أثبت العلم الحديث أن الانسان كلما ارتفع في أجواء السماء أحس بضيق الصدر وصعوبة التنفس، مما يؤكد أن نقص الاوكسجين يتناسب عكسياً مع الارتفاع الى الاعلى، كلما ارتفع في السماء نقص الاوكسجين، وقد اشار القرآن الى هذا بقوله تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء}[٣].

٤ – عسل النحل وفوائده الغذائية والطبية، قال تعالى: {يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}[٤]، وقد اكد العلم هذه الحقيقة باحتواء العسل على الكثير من الفوائد الغذائية والطبية باحتوائه على اصناف الفيتامينات واستعمل في علاج الامراض المستعصية، وقلما تجد مستحضراً طبياً يخلو من العسل.

---

١ - الحجر ٢٢.
٢ - يونس ٦١.
٣ - الانعام ١٢٥.
٤ - النحل ٦٩.

٥ – تسوية البنان، قال تعالى: {أيحسب الانسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه}[1]، والظاهر من هذا النص القرآني أن تسوية البنان أمر في غاية الدقة، ولكن هذا لم يفهم سابقاً حتى اهتدى الناس في القرن التاسع عشر الى سر البصمة، اذ ثبت أن لكل انسان بصمته الخاصة، لا تنطبق على غيره.

هذه بعض الامثلة التي تثبت توافق الحقائق العلمية مع نصوص قرآنية أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الالهي، وصدق الله العظيم، {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}[2].

وينبغي التفريق هنا بين الحقائق العلمية والنظريات، اذ النظريات متجددة يكتنفها الغموض، حتى اذا خضعت للتجربة ثبتت أحقيتها، أو اتضح زيفها، ولهذا تزعزت بعض القواعد العلمية التي ظنها الناس أول الامر حقائق.

إن الحقائق القرآنية نهائية قاطعة مطلقة، وغيرها من النظريات غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود التجربة وظروفها وادواتها، ومن حاول تطويع تفسير نصوص القرآن للنظريات العلمية فقد وقع في الخطأ من أوجه عديدة منها:

١ – الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن، وأن القرآن تابع، فيحاولون الاستدلال للقرآن بالعلم.

٢ – سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، إذ يعالج القرآن بناء الانسان بما يتفق مع الوجود، حتى لا يصطدم بالكون من حوله بل يصادقه ويعرف أسراره.

٣ – التأويل المستمر مع التكلف لنصوص القرآن، كي نحملها ونلهث بها وراء الفرضيات والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر وكل يوم فيها جديد.

جـ – الاعجاز التشريعي:

تميز القرآن عن الكتب السماوية باحتوائه الكثير من التشريعات التي تربي الفرد وتقومه، وتحدد علاقته بغيره، كما تبني المجتمع الاسلامي وتنظم علاقته بالمجتمعات الأخرى، ولا شك أن هذه التربية الجماعية قامت على أسس وثوابت كثيرة، من أهمها:

---

[1] - القيامة ٣ – ٤.
[2] - فصلت ٥٣.

١ ـ **تصحيح العقائد،** وتحرير المسلم من عبادة المخلوقات، واخلاص النية لله تعالى، والتأثر باسمائه الحسنى، فهو الأحد الصمد الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وعدم الانقياد وراء مخلوق في أساسيات الحياة كالرزق والأجل ودفع الضر وجلب النفع، لأن ذلك مما اختص الله سبحانه وتعالى به.

٢ ـ **تطهير العبد بالعبادات وتزكيته،** فالصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر وتقرب العبد من المعبود، وتوثق صلته به، والزكاة تقتلع من النفس جذور الشح وعبادة المال، والحرص والطمع، وتشعر النفس بتكافل الجماعة، والحج مؤتمر اسلامي وسياحة تروض النفس وتهذبها، والصيام ضبط للنفس عن الانجراف وراء الشهوات، وهكذا سائر تفصيلات العبادة تقوم شخصية العابد وتوثق علاقتها بخالقها.

٣ ـ **ارساء علاقته بأسرته،** وجعلها نواة المجتمع، فشرع الزواج ابقاء على النوع الانساني، وشرع الطلاق إن عجز الزواج عن اداء اغراضه الشريفة، ونظم الميراث، ووثق الأحوال الشخصية كافة.

٤ ـ **ايفاء حاجات افراد المجتمع،** لأن الانسان مدني بالطبع، والتعاون ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشري، فشرع البيع والشراء، والمضاربة والشركة والمزارعة والمساقاة، وحرم كل ما يؤدي الى ثمرة تلك التشريعات فحرم الربا والسرقة والغش والاحتكار وغير ذلك من منغصات حرية المعاملات.

٥ ـ تنظيم الحكم وتقرير قواعد الحكومة الاسلامية التي يعيش فيها المسلم، فطالب بالعدل والتسوية والاخوة، وامر بالشورى واوجب طاعة الحاكم ما دام في طاعة الله، ونظم علاقة الدولة الاسلامية بالدول الاخرى فشرع الجهاد والهدنة والجزية حسب متطلبات الدعوة الى الله.

٦ ـ **تشريع العقوبات والحدود،** ليحافظ على الكليات الخمس الضرورية وهي النفس والدين والعرض والمال والعقل، فحرم القتل العمد، وجعل على الخطا الدية، وضبط ذلك بضوابط واضحة جلية، وحرم الزنا وجعل عقوبة الزاني الجلد أو الرجم حسب حاله في مجال الاحصان، كما حرم السرقة والخمر، وغير ذلك مما يتعدى فيه على تلك الكليات التي حافظت عليها الاديان.

ولما كانت حاجات الأمة متجددة غير متناهية أباح القرآن الاجتهاد الذي يتولاه العلماء من الامة، ويقدرون على استنباط الاحكام لما لا نص فيه من الحوادث الجديدة فأشبع حاجات المجتمع، وأكد صلاحية الاسلام لكل الازمنة والأمكنة.

وخلاصة القول إن القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الانسانية على أفضل صورة وأرقى مثال، فهل يقدر المخلوق على تنظيم مجتمع صغير في زمن معين كما نظم القرآن المجتمعات على مر الدهور وكر العصور؟!

المصنفات في اعجاز القرآن:

لعل الجاحظ (ت٢٥٥) أول من صنف في الاعجاز في كتابه (نظم القرآن) ولم يصلنا كتابه، أما العلماء الذين أفردوه بالتصنيف فذكرهم السيوطي اذ قال: (افرده بالتصنيف خلائق منهم الخطابي، والرماني، والزملكاني، والرازي، وابن سراقة، وابو بكر الباقلاني)[١].

ووصلنا من هذه الكتب كتاب (اعجاز القرآن) للباقلاني (٤٠٣) وكتاب عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١) المسمى (دلائل الاعجاز)، وغيرهما.

وفي العصر الحديث توجهت انظار الباحثين الى مقالات جديدة في الاعجاز كالجمال الفني في القرآن ومنها كتاب (التصوير الفني في القرآن لسيد قطب) وكتاب اعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي، وغيرهما.

---

١ - الاتقان ٢/١١٦.

ترجمة القرآن

الترجمة في اللغة تطلق على تفسير الكلام بلسان آخر[1]، فتكون بمعنى التبيين والترجمان – بضم التاء والجيم وفتحهما – هو الذي يترجم الكلام، ينقله من لغة إلى أخرى، وقد يفسره بلغته التي جاء بها، ومنه قيل لابن عباس رضي الله عنهما: ترجمان القرآن.

وفي الاصطلاح تطلق الترجمة على معانٍ عدة، منها:

١ – **الترجمة الحرفية :** وهي نقل الالفاظ من لغة إلى نظائرها في لغة أخرى بحيث يكون النظم موافقاً للنظم، والترتيب موافقاً للترتيب، فهي محاكاة الأصل في نظمه وتركيبه، ولا تخفى حرمة هذه الترجمة إذا كانت لألفاظ القرآن الكريم، فلو وضع المترجم مكان قوله تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك} لم يزد على الوصول إلى معنى لم يرده الله تعالى من النص، إذ ليس المراد منها النهي عن ربط اليد بالعنق، وهو المعنى الذي تستلزمه الترجمة الحرفية للنص، ومن أسباب تحريم الترجمة الحرفية للقرآن:

١ – الخروج بالمُترجَم عن كونه قرآناً معجزاً متعبداً بتلاوته.

٢ – الجزم بأن الكلام المترجم ليس كلام الله.

٣ – صعوبة مراعاة قواعد اللغة العربية وأسسها، من تقديم الفعل على الفاعل، وغير ذلك.

٢ – **الترجمة المعنوية :** بيان معنى الكلام بلغة أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل أو مراعاة لنظمه.

وقبل بيان حكم هذه الترجمة ينبغي الوقوف على أقسام المعاني التي يحتملها اللفظ، إذ هناك قسمان من المعاني:

١ – **المعاني الأصلية :** وهي المعاني التي يستوي في فهمها كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة وعرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية كالقيام والجلوس وغير ذلك.

---

[1] - الصحاح للجوهري ٥/١٩٢٨.

٢ – **المعاني الثانوية :** خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام، وبها كان القرآن معجزاً، وفيه قال الزمخشري في الكشاف: إن في كلام العرب - خصوصاً القرآن - من لطائف المعاني مالا يستقل بأدائه لسان، مثال ذلك: أن تقديم {إياك} في قوله تعالى {إياك نعبد} يفيد معنى جديداً لا يوجد في قولنا: نعبدك، فان تقديم المفعول هنا يفيد الاختصاص.

وقال الشاطبي: في الموافقات: (للغة العربية من حيث هي ألفاظ دالة على معان نظرات:

أحدهما: من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مطلقة، دالة على معانٍ مطلقة، وهي الدلالة الأصلية.

والثاني: من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مقيدة دالة على معانٍ خادمة وهي الدلالة التابعة.

فالجهة الأولى هي التي يشترك فيها جميع الألسنة واليها تنتهي مقاصد المتكلمين ولا تختص بأمة دون أخرى، فإنه إذا حصل في الوجود فعل لزيد مثلاً كالقيام، ثم أراد كل صاحب لسان الاخبار عن زيد بالقيام تأتى له ما أراد من غير كلفة، ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الاخبار عن أقوال الأولين ممن ليسوا من أهل العربية وحكاية كلامهم، ويتأتى في لسان العجم حكاية أقوال العرب والاخبار عنها، وهذا لا اشكال فيه.

وأما الجهة الثانية فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الاخبار، فإن كل خبر يقتضي من هذه الجهة أموراً خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبر والمُخبر عنه، ونفس الاخبار، في الحال والمساق ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء، والإيجاز والإطناب وغير ذلك، وذلك انك تقول في ابتداء الاخبار: (قام زيد) إن لم تكن ثم عناية بالمخبر عنه، بل بالخبر، فان كانت العناية بالمخبر عنه قلت: زيد قام، وفي جواب السؤال أو ما هو منزل تلك المنزلة إن زيداً قام، وفي جواب المُنكر لقيامه: والله ان زيداً قام، وفي اخبار من يتوقع قيامه أو الاخبار بقيامه: قام زيد أو زيد قد قام، وفي التنكيث على من ينكر: إنما قام زيد... فمثل هذه التصرفات التي

يختلف معنى الكلام الواحد بحسبها ليست هي المقصود الأصلي، ولكنها من مكملاته ومتمماته)[١].

وأما حكم الترجمة المعنوية فغير ميسور، إذ لا توجد لغة توافق اللغة العربية في دلالة ألفاظها على هذه المعاني، المسماة عند علماء البيان خواص التركيب، وقد تسامت لغة القرآن بهذا الأسلوب المعجز.

وقد أباح بعض العلماء ترجمة المعاني الأصلية، كالشاطبي في الموافقات إذ قال: (وقد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة في القرآن – يعني على هذا الوجه الثاني[٢] – فأما على الوجه الأول فهو ممكن ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معناه للعامة، ومن له فهم يقوى على تحصيل معانيه وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي)[٣].

الا ان هذه الترجمة لا تخلو من فساد، فان اللفظ الواحد في القرآن قد يكون له معنيان أو معان تحتملها الآية، فيضع المترجم لفظاً يدل على معنى واحد، حيث لا يجد لفظاً يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة، وقد يستعمل القرآن اللفظ في معنى مجازي، أو في وجه بلاغي آخر، كقوله تعالى: {واشتعل الرأس شيباً} فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي فيقع في الخطأ.

وما ذهب اليه الشاطبي واعتبره حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي ليس على إطلاقه، فإن بعض العلماء يخص هذا بمقدار الضرورة في إبلاغ الدعوة بالتوحيد وأركان العبادات ولا يتعرض لما سوى ذلك.

٣ - **الترجمة التفسيرية:** شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، وهذا لا مانع منه، بل هو واجب، لان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام إلى البشرية كافة على اختلاف أجناسها وألوانها، وشرط لزوم الرسالة البلاغ، والقرآن الذي أنزل بلغة العرب صار إبلاغه للامة العربية ملزماً لها، ولكن سائر الامم التي لا تحسن العربية

---

١ - الموافقات للشاطبي ٢/٦٦.
٢ - وهو الوجه الذي نقلته عنه آنفاً، وقبله الوجه الأول، وهو المعنى الأصلي.
٣ - الموافقات ٢/٦٦.

أولا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمة القرآن بلسانها، وقد عرفنا استحالة الترجمة الحرفية وحرمتها، واستحالة ترجمة المعاني الثانوية، ومشقة ترجمة المعاني الأصلية وما فيها من أخطار، فلم يبق الا أن يترجم تفسير القرآن، والحاجة اليه ماسة للرد على أعداء الإسلام إذا غمزوا في القرآن، إضافة إلى أن الترجمة للمعاني الأصلية غير متيسرة للمعاني كافة.

الفرق بين الترجمة المعنوية والتفسيرية:

اشتبه على كثير من الباحثين الأمر، فخلطوا بين الترجمتين التفسيرية والمعنوية، ثم خلعوا على ذلك أن حكمهما واحد، والصحيح ان بينهما فروقاً، أهمها:

١ – أن الترجمة المعنوية يُراعى فيها الاستغناء بها عن أصلها، وحلولها محلها، وليس التفسير كذلك، بل هو قائم على الارتباط بأصله.

٢ – المترجم يقول: معنى هذا الكلام هو عين معنى الآية، ولا يستطرد، وأما المفسر فيتكلم بلهجة المبين لمعنى الكلام على حسب فهمه، فيجوز له الاستطراد وقد يجب، فالترجمة صورة مطابقة للأصل حاكية له مساوية له بدقة، والتفسير بيان للأصل وتوضيح له، والبيان يقتضي الشرح ويتضمن ذكر أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والعلوم الكونية وغير ذلك.

٣ – الترجمة التفسيرية ترجمة لفهم شخصي خاص، لا تتضمن وجوه التأويل المحتملة لمعاني القرآن، وإنما تتضمن ما أدركه المفسر منها، فهي ترجمة لمبادئ الشريعة كما تفهم من القرآن، وأما الترجمة المعنوية فهي ترجمة لمعنى القرآن، فالترجمة تتضمن عرفاً الوفاء بجميع معاني الأصل ومقاصده، وليس التفسير كذلك.

٤ – الترجمة المعنوية تتضمن بالعرف دعوى الاطمئنان إلى أن جميع المعاني والمقاصد التي نقلها المترجم هي مدلول كلام الأصل وإنها مراده لصاحب الأصل

منـه، ولـيس التفسير كذلك فتـارة يطمئن إذا تـوفر الـدليل، وتـارة لا يدعيـه إذا أعوزتـه الأدلة.

وبعد أن بينت أنواع الترجمة الثلاثـة الحرفيـة والتفسيرية والمعنويـة أسوق مثلاً يوضـح كيف تـتم كـل ترجمـة مـن هـذه التـراجم الـثلاث علـى فـرض إمكـان التـرجمتين الحرفية والمعنوية.

قال تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط}[1]، هذا النص القرآني لو جاز لنا أن نترجمه ترجمة حرفية فنقصد إلى كل كلمة في الأصل ثم نفهم ونستبدل بها كلمة تساويها في اللغة الأخرى، فاننا لن نعدو أن نأتي بنص يدل على النهي عن ربط اليد في العنق، وعن مدها غاية المد، وفي ذلك إخفاء بيّن للمعنى المراد.

وان أردت أن تترجم هذه النظم الكريم ترجمة معنوية فانك بعد أن تفهم المراد - وهو النهي عن التقتير والتبذير في ابشع صورة منفرة منها - تعمد إلى هذه الترجمة فتأتي منها بعبارة تدل على هذا النهي المراد في أسلوب يترك في نفس المُترجَم لهم اكبر الأثر في استبشاع التقتير والتبذير من غير مراعاة الأصل في نظمه وترتيبه، وفي هذا مشقة ظاهرة، إذ لا يمكن الإتيان بالصورة التي صورها القرآن مهما بلغ المترجم من العلم.

وأما أن يُترجم تفسير هذه الآية مع الاحتفاظ بالنص من غير ادعاء الإلمام بالمعاني كافة، وبيان أن هذا هو الفهم الشخصي لهذا النص فلا ضير في ذلك بل هو ممكن.

---

[1] - الاسراء ٢٩.

القراءة في الصلاة بغير العربية:

اختلف العلماء في جواز القراءة في الصلاة بغير العربية الى مذهبين:

١ – ذهب جمهور العلماء (الشافعية والمالكية والحنابلة) الى عدم جواز القراءة بترجمة القرآن في الصلاة، سواء كان المصلي قادراً على العربية أم عاجزاً، للأسباب التالية:

أ - قول الله سبحانه وتعالى: {ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي} فقد نفى أن يكون للعجمة اليه طريق، فكيف يُصرف الى ما نفى الله عنه[1].

ب – أن الاعجاز إنما يكون بلغة العرب، فلو قلب الى غير هذا لما كان قرآناً ولا بياناً ولا اقتضى اعجازاً، والقرآن هو النظم المعجز.

٢ – وذهب الحنفية الى جواز الصلاة بترجمة القرآن في حق من لا يقدر على القراءة بالعربية[2]، واستدلوا بأدلة منها:

أ - أن القرآن معجز باللفظ والمعنى.

ب – أن فرض القراءة ساقط عمن لا يقدر على قراءة المعجز أصلاً، ولم يسقط عنه الفرض، فيتأدى الفرض بالقراءة بغير العربية.

جـ – أن في هذا الترخيص تيسيراً للاعجمي، إذ عساه يعرف العربية ولم يروض لسانه بعد، فيتعسر نطقه، ويأكل بعض الحروف.

والراجح رأي الجمهور، لأن الروايات عن أبي حنيفة مضطربة، ويذكر انه رجع عن قوله، والمجتهد اذا رجع عن قوله لا يُعد المرجوع عنه قولاً، فالراجح رأي الجمهور.

---

[1] - انظر المدونة الكبرى ١/٦٢ المجموع للنووي ٣/٣٧٩، حاشية الدسوقي ١/٢٣٢ المغني لابن قدامة ١/٥٢٦.

[2] - اصول السرخسي ١/٢٨١.

سيادة اللغة العربية:

القرآن محفوظ بحفظ الله سبحانه وتعالى له، وهو بلسان عربي مبين، لا تجوز ترجمته، فيترجم تفسيره مع المحافظة على الاصل، ليصل الى الشعوب غير العربية نصاً وترجمة لتفسيره، فيقدر الاعجمي على فهم معانيه، ويتعلم اللغة العربية، وهذا هو السبب الأول الذي جعل للغة العربية سيادتها العالمية، والسبب الثاني هو انتشار دين الاسلام، وتفرق المسلمين في الامصار ومعهم لغة العرب في كل وادٍ وطئته أقدامهم، والسبب الثالث: سلطان الاسلام الذي تتوقف معرفة أحكامه على فهم لغة العرب، فالقرآن والسنة بلسان عربي مبين.

القصص القرآني

القصص من قص يقص، والقص تتبع الأثر[1]، ومنه قوله تعالى: {فارتدا على آثارهما قصصاً}[2]، أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به، والقصص الاخبار المتتبعة، قال تعالى: {إن هذا لهو القصص الحق}[3]، والقصة: الخبر والحال والشأن.

تعريف قصص القرآن:

هي : أخبار القرآن عن أحوال الانبياء السابقين والأمم الماضية والحوادث الواقعة زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

(أنواع القصص القرآني ونماذجه):

من التعريف السابق يظهر أن القصص القرآني أنواع ثلاثة:

الأول: قصص يتعلق بأحوال الانبياء السابقين على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويتضمن الحديث عن دعوتهم لأقوامهم، ومعجزاتهم، ومراحل دعوتهم الى قومهم، وموقف المعاندين، ونهاية أمرهم.

الثاني: قصص يتعلق بحوادث غابرة، سواء تعلقت بأقوام، أم باشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف وذي القرنين، وأصحاب السبت، وأصحاب الاخدود، وغيرهم.

الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كغزوة بدر، وأحد، وحنين، وتبوك، والهجرة والاسراء ونحو ذلك.

إن أي قصة في القرآن لا تعدو أن تكون واحدة من هذه الانواع الثلاثة، ولكل نوع من هذه الانواع أمثلة كثيرة، اكتفي منها بمثال.

---

١ - الصحاح للجوهري ٣/١٠٥١.
٢ - الكهف ٦٤.
٣ - آل عمران ٦٢.

أما النوع الاول الذي يتعلق بأحوال الانبياء السابقين فمثاله قصة النبي الأول آدم عليه السلام، وقد وردت قصته في سور كثيرة، كالبقرة والاعراف والحجر والكهف وغيرها، وملخص القصة أن الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة أنه خالق بشراً من طين، ليجعله خليفة، ثم أمرهم أن اذا سواه ونفخ فيه من روحه فليقعوا له ساجدين، فلما خلقه كما اراد سبحانه وتعالى سجد الملائكة كلهم أجمعون، الا ابليس، مع أنه كان من المأمورين بالسجود مع الملائكة وهو من الجن، فقال متذرعاً: خلقتني من نار، وخلقته من طين، فطرد الله ابليس مذموماً مدحوراً، وطلب الانظار والامهال الى يوم يبعثون، فأنظر الى يوم الوقت المعلوم، فأخذ ابليس على نفسه أن لا يدع ثغرة فيها سبيل لاغواء آدم وذريته الا وأتاها.

ومن مشاهد قصة آدم أن الله سبحانه وتعالى أمر آدم أن يسكن الجنة مع زوجه، وليأكلوا من كل شيء الا شجرة واحدة، ولكن الشيطان وسوس لهما مُدعياً أن ربهما ما نهاهما عن الشجرة الا ليحرمهما أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين، فدلاهما بغرور، فذاقا الشجرة، فبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما الم أنهكما عن تلكما الشجرة؟ وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين؟ فكانت الحادثة سبباً في اخراجهما من الجنة، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، ان الله هو التواب الرحيم.

قال تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون}[1]، الى قوله سبحانه وتعالى: {وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين}[2]، وقوله تعالى: {قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[3].

---

[1] - البقرة ٣٠.
[2] - البقرة ٣٥.
[3] - البقرة ٣٨.

واما النوع الثاني المتعلق بالحوادث الغابرة فمثاله قصة أصحاب الجنة الواردة في سورة القلم، وملخصها أنها جنة كان للمساكين فيها نصيب، ولما مات المالك هيمنت على اصحاب الجنة الانانية وسيطر الشح، فاقسموا ليصرمنها مبكرين، قبل أن يراهم أحد من ذوي الحاجات المساكين، ولا يتركوا شيئاً من ثمار جنتهم ولم يقولوا: ان شاء الله، وهي عبارة الاستثناء في اليمين، فطاف عليها طائف، وأصابها جائحة فلم تترك سرباً واحداً، فأصبحت كالصريم أي: الليل اذا اسود، بعد أن كانت خضراء.

أما هم فقاموا مصبحين ينادي بعضهم بعضاً قبل فوات الاوان، وهم يتخافتون، وغدو على حرد قادرين، أي على منع الفقراء، أو قادرون على جلب المقت والنكد لهم، فلما رأوها ظنوا أنهم ضلوا الطريق وتاهوا، وعندئذ يتكلم الاوسط الأعقل كما هو شأن الوسط، كالامة الوسط، فقال: بل نحن محرمون، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، قال تعالى: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ اقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون}[١]، إلى قوله تعالى: {كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون}[٢].

وأما النوع الثالث المتعلق بالحوادث التي وقعت زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمثلتها كثيرة أيضاً ومن ذلك قصة الاسراء والمعراج، فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يدعو عشيرته وأهل مكة الى توحيد الله سبحانه وتعالى بالعبادة فينكر عليه قومه، ويفر بدينه هنا وهناك - وقد ضاقت عليه الدنيا - فاشتكى الى ربه هوانه على الناس، فاكرمه الله سبحانه وتعالى برحلتين عظيمتين في آن واحد، احداهما الى المسجد الاقصى، قال تعالى: {سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير}[٣]، أما الآيات التي رآها في الاسراء ففصلتها السنة الشريفة، ثم عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم الى السموات، قال تعالى: {والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى}[٤]، الى

[١] - القلم ١٧-١٨.
[٢] - القلم ٣٣.
[٣] - الاسراء ١.
[٤] - النجم ١-٢.

قوله تعالى: {ولقد رآه نزله أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى}[1].

فوائد القصص القرآني:

للقصة القرآنية غايات، ويترتب على معرفتها آثار كثيرة، من أشهرها:

١ – ايضاح أُسس الدعوة الى الله، وبيان اصول الشرائع، وغرس العقيدة السليمة في النفوس، وسلوك أحسن الطرق لتثبيتها في القلوب، وترسيخها في العقول، قال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون}[2].

٢ – تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب أمته، وبعث الأمل في نفوسهم بالنصر كما نصر السابقين من خلال تذكرها وتلاوتها، قال تعالى: {وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين}[3].

٣ – تقرير ربانية القرآن الكريم، إذ لولا الوحي لعجز الناس عن بيان أحوال الأمم الغابرة والرسالات الماضية قال تعالى: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين}[4].

٤ – معرفة الانبياء السابقين، ومعرفة أحوالهم، واحياء ذكراهم، وتخليد آثارهم، وبيان أساليب دعوتهم ومحاججتهم لأقوامهم.

٥ – مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، ومن ذلك أنه ادعى بنو اسرائيل تحريم بعض الطعام الحلال، وتحليل بعض الحرام، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يطلب نصاً من

---

[1] - النجم ١٣-١٨.
[2] - الانبياء ٢٥
[3] - هود ١٢.
[4] - يوسف ٣.

التوراة يُصدق ما ادعوه، فقال سبحانه: {كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين}[1].

٦ – القصص القرآني هدى ورحمة للمؤمنين قال تعالى: {ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون}[2].

٧ – يمثل القصص القرآني تاريخ الانسانية، ويبرز الكثير من الحقائق المتعلقة بالكون، والشواهد من الآثار والمدائن تؤكد الحقيقة وتزيدها وضوحاً وجلاءً، خاصة وأن التاريخ قد تشوه لكثرة نقولات البشر واختلافها، أما القصة القرآنية فثابته راسخة بالوحي، متآزرة مع قصص الكتب السابقة.

٨ – تمكين العبرة في النفوس، وترسيخها في الأذهان، إذ تقص أسباب سعادة المؤمنين، وأسباب هلاك المجرمين وبها يقف الانسان على سنن الله تعالى في الأمم والمجتمعات، ولهذا أهمية بالغة للمجتمع المسلم، إذ يسعى لاستجلاب الخير بفعل الخيرات واتخاذ اسبابها، واجتناب أسباب الشر مخافة أن يحل به ما حلّ بالسابقين الذين أفسدوا قال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب}[3].

٩ – القصص القرآني ضرب من الأدب، يفيد منه الباحثون، وتطرب الاذن لسماعه ويترسخ في الذهن لما فيه من رونق الاسلوب، وبديع النظم، وجمال الصورة.

١٠- للقصة القرآنية اثر بالغ في التربية والتهذيب، يتمثل هذا الأثر في الجوانب التالية:

أ - تنفذ الى النفس البشرية بسهولة ويسر، فتقوم السلوك وتبلغ الغاية من غير شعور بالتعب.

ب – لا تمل النفس سماعها وإن طالت، بعكس الدروس الالقائية.

---

[1] - آل عمران ٩٣.
[2] - يوسف ١١١.
[3] - يوسف ١١١.

ت – القصة مثل تربة خصبة لا تلبث أن تثمر، فتساعد المربين للوصول الى مطلوبهم من اقصر الطرق.

ث – السمو الروحي والخلقي، والرقي بالانسان من خلال عرض نماذج بلغت القمة في الاخلاق، فهي ذات اثر بالغ في بناء الانسان الرباني.

واقعية القصة القرآنية:

القصة القرآنية حقيقة لا خيال، مؤيدة بالواقع لا تصادم التاريخ فإذا تحدثت فانما تتحدث عن اشخاص وجدوا حقيقة، وقصة لم تنسج خيالاً، كدأب القصة الأدبية.

وقد حاول بعض المؤلفين الطعن في واقعية القصة القرآنية، إذ قدم محمد خلف الله اطروحة جامعية سماها (الفن القصصي في القرآن) تقوم على أن القصص القرآني عمل فني خاضع لأسس الفن، من خَلْقٍ وابتكارٍ، من غير التزام بصدق التاريخ والواقع، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم فناناً كسائر الفنانين، وحاشاه، فإن ما ذكره القرآن الكريم مطلوب من المسلم الايمان به حقيقة واقعة.

والذي يحسن الظن به يرى أنه اشتبه عليه الأمر فخلط بين القصة الأدبية والقرآنية، والصواب أن بينهما من الفروق ما يميز كلام الله عن كلام البشر، ومن هذه الفروق:

١ – القصة القرآنية كلام الله، وكلام الله منزه عن التصوير الذي لا يلتزم الواقع التاريخي، أما القصة الأدبية فأكثرها خيال.

٢ – القصة القرآنية ربانية معجزة لا يقدر البشر على الاتيان بمثلها، والأدبية متطورة متجددة قد يفوق التلميذ فيها استاذه فشتان بينهما.

٣ – القصة القرآنية واحدة لا تتغير وان تعددت اساليب القصة الواحدة، أما القصة الادبية فقد يغير الكاتب عند اعادة نسخها فيغير شخصية أو يمحو مشهداً، اما القصة القرآنية فأزلية أبدية.

٤ – كثيراً ما تقترن القصة القرآنية بكلمة (بالحق)، كقوله تعالى: {نحن نقص عليك نبأهم بالحق}[١]، أما الأدبية فمن يقدر من ارباب القصة الأدبية أن يدعي حقيقة كل شي في قصته، فلا تخلو القصة الأدبية من قول الزور والكذب، ولا شك من خلو القرآن منهما إذ كيف ينهى القرآن عن الزور ويأتيه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.
٥ – يراعى في القصة القرآنية المناهج التعليمية في المراحل كافة، بينما تقتصر منفعة الأدبية على مرحلة تعليمية واحدة أولية ابتدائية أو ثانوية، فهي قاصرة عاجزة عن اللحاق بشمولية النفع التي تختص بها القصة القرآنية.

الحكمة من تكرار القصص القرآني:

تتكرر القصة القرآنية أحياناً في مواضع متعددة، أو في موضعين، وقد لا تتكرر، كما في قصة يوسف عليه السلام، ولم يخلُ تكرار القصة القرآنية عن الفوائد[٢]، ومن أشهرها:
١ – أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، وهذه عادة البلغاء، يكررون القصيدة أو الخطبة لزيادة كلمة أوصفة وهكذا.
٢ – تجديد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، بذكر ما وقع للأنبياء والمؤمنين مع المعاندين قال تعالى: {وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك}[٣].
٣ – ابراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة وقالب جديد، وفي ذلك مالا يخفى من البلاغة في أعلى مراتبها.
٤ – الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام، فلهذا كررت القصص دون الأحكام، لتقرأ القصة في القرآن بين الفينة والأخرى.

---

١ - الكهف ١٣.
٢ - ذكر الزركشي فوائد كثيرة لتكرر القصة القرآنية. انظر البرهان ٣/٢٥.
٣ - هود ١٢٠.

٥ – الاهتمام بشأن القصة، وذكر المعاني حسب المقامات ومقتضيات الأحوال.
٦ – تأكيد اعجاز القرآن، إذ كلما كرر القصة ذات المعنى الواحد، تحداهم به وقد تغير النظم، فيثبت عجزهم عن الاتيان بمثله بأي نظم جاءوا وبأي عبارة عبروا.
٧ – اختلاف سرد القصة يتبع اختلاف الغاية التي من أجلها سيقت القصة، فتكرارها أجمل لمناسبة السياق، والله تعالى أعلم.

شبهات مردودة

أثار الاعداء شبهات حول علوم القرآن الكريم، منها ما يتعلق بجمع القرآن وتدوينه، ومنها ما يتعلق بقراءته وترتيبه وغير ذلك، والغريب أنهم حاولوا التشكيك في ذات القرآن واعجازه، ولكن الشمس لا تغطى بغربال، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

ولما كانت هذه الشبهات واهية اندثر أكثرها، فحاول المستشرقون في العصر الحديث ترقيعها وتزينها، لتبدو بمظهر يحاولون به النيل من كتاب الله، وأنى لهم؟ وهو كلام الله تعالى المعجز، الا أن تفنيدها والرد عليها لم يحتج من العلماء الى كثير وقت أو تفكير، أما الشبهات فكانت حول الموضوعات الآتية:

أولاً : جمع القرآن الكريم:

أثير حول جمع القرآن شبهات واهية كثيرة منها:

١ – قالوا: إن القرآن جمع بعد ممات النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يجمع في حياته، فهو مظنة النقص أو الزيادة، ولو جمع القرآن في عهد النبي لما كانت علة لخوف ابي بكر وعمر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن يضيع القرآن.

والرد: أن القرآن جمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كما كتب بين يديه، إذ الجمع تم بطريقين:

اولاهما: الحفظ في الصدور، فقد انتشر في العهد الأول حفظ القرآن واشتهر الحفظة، وكان الحفظ في الصدور أشهر وأوسع، وذلك لأسباب منها: حب الصحابة للقرآن، وفطرتهم السليمة التي هيئت لهم ذاكرة حافظة، وقد انسجمت مع بيئتهم النقية الصافية، وحياتهم السهلة غير المعقدة، لذا كانت عنايتهم بهذا اللون أكثر من اللون الثاني.

وثانيهما: الحفظ في السطور، إذ كتب القرآن بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، واشتهر كُتاب الوحي بعد أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن ومحو غيره، ولذا كان المكتوب في عهد النبوة الزاهر هو معتمد الجمع في عهد الصديق رضي الله عنه، فادعاء أن القرآن لم يجمع في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ادعاء واهٍ باطل، وأما دافع ابي بكر وعمر بجمع القرآن فهو الحيطة والحرص على القرآن،

ولم يكن غائباً عنهما أن الله تكفل بحفظ القرآن، وانما كان الصديق رضي الله عنه يخشى أن يذهب من يحفظ شيئاً من القرآن، ولا يحفظه غيره من الحاضرين، فتحصل المشقة في جمعه، أو أن يُفقد من القطع المبعثرة التي كتب عليها من القرآن.

٢ – يقولون: إن كتابة القرآن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، لا يطمأن لها كثيراً، لأن نزول القرآن لم يكن في وقت معين، بل ينتظم أوقاتاً كثيرة، ولم يكن من الممكن أن يُستدعى كاتب الوحي كل وقت حين نزل القرآن، فيحتمل أن يكون فقد من القرآن شيء.

الجواب: لقد تكفل الله حفظ القرآن، وكان الصحابة الكرام يحدثون عن نزول بعض الآيات ليلاً كان نزولها أو نهاراً، حضراً أو سفراً، شتاءً أو صيفاً، وقد أثبت هذا العلماء في كتبهم كما لا يخفى، ثم إن العرضة الأخيرة شهدها عدد من الصحابة رضي الله عنهم، وفيها عُرض كلُ القرآن، ولقد شرفت الحياة بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه العرضة بما يزيد على ستة أشهر، وهي مدة كافية ليعلم الصحابة الوضع الأخير للقرآن.

٣ – يدّعون أن بعض كتاب الوحي ليس موضع ثقة، إذ كانوا يغيرون ما يمليه النبي صلى الله عليه وسلم، فيكتبون (غفوراً رحيماً) بدل (عزيزاً حكيماً).

والرد على هذه القول من وجهين مشهورين:

أولها: أن الفرق واضح بين الخطأ في القراءة وبين ما هو ثابت في القرآن، فلو غيّر القارىء كلمة بكلمة دون تعمد لا يأثم ولكنه لا يُغيّر نص القرآن، لأن الصحابة كانوا أحرص الناس على حفظ كتاب الله، وفي كل عام يعارض جبريل النبي صلى الله عليه وسلم القرآن وهم حاضرون، فأي تحريف سيبقى بعد هذا؟ ومما يُذكر في هذا الباب أن أعرابياً سمع القارىء يتلو: {فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم} فقال ذلكم الأعرابي: والله ما هذا بكلام الله، كيف يذكر المغفرة

والرحمة بعد الزلل؟ فتليت عليه الآية كما أنزلها الله: {فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم}[1]، فقال: الان، فسكن واطمأن.

ثانيهما: أن العلماء يدركون مدى تعلق الفاصل القرآني – ختم الآية – بالآية، إذ هو المتتم لمعنى الآية، إن لم يكن الجامع لكل المعاني الواردة فيها، فكيف يمكن تغييره؟!

٤ – يقولون: ورد في القرآن ما يشير الى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ينسى شيئاً من القرآن، وذلك في قوله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله}[2]، إذ علق النسيان بالمشيئة، فالنسيان محتمل.

والجواب من وجوه:

الأول: أن المشيئة هنا هي المشيئة العامة، فالاستثناء صوري، ومن فوائد ذكر هذه المشيئة أن يشعر النبي صلى الله عليه وسلم أنه مغمور بنعمة الله وعنايته.

الثاني: أن المشيئة موافقة لعدم النسيان، فالمعنى: الا ما شاء ربك، وما شاء الا عدم النسيان، فلم تحصل المشيئة على نسيانه، ومثله ما ورد في خلود الكافرين في النار معلقاً بالمشيئة.

الثالث: أن الاستثناء متعلق بقوله تعالى: {سنقرئك} أي: سنقرئك في الوقت الذي نشاء.

الرابع: ان المراد به منسوخ التلاوة، ولا مانع من نسيانه.

٥ – يقولون: إن جمع القرآن في عهد أبي بكر كان عملاً شخصياً، قُصد به تحقيق رغبة أبي بكر وعمر، تلك الرغبة التي كانت منبعثة من غيرةٍ شخصية واحساس لديهما بالنقص بالنسبة الى بعض الصحابة الذين يمتلكون نسخاً من المصحف.

والرد: أن حرص الصحابة الكرام كفيل بردّ هذه الادعاءات، فهم يحاولون خلع عمل أبي بكر ميزة الجدية، وتجريده من كونه عملاً تضافرت عليه جهود الصحابة

---

[1] - البقرة ٢٠٩.
[2] - الاعلى ٦.

وتوفرت له صفة التواتر التي تعني قطعية الثبوت، ثم إن العاقل الذي يتفحص شخصيتي الصديق والفاروق لا شك يلحظ الطهر، والنقاء، والصفاء، والوقوف عند الحق والالتزام به والجدية في التصرف.

٦ – يقولون الروايات المتعلقة بجمع القرآن منها ما يطعن في تواتر القرآن، كتلك التي رويت عن زيد بن ثابت أنه لم يجد آخر سورة التوبة الا مع شخص واحد.

الرد: يُراد بهذه الشبهة الروايتان اللتان في صحيح البخاري، اولاهما عن زيد بن ثابت أنه قال:؛ (وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الانصاري، لم أجدها مع أحد غيره {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم}[1] حتى خاتمة براءة)[2].

والرواية الثانية عن زيد بن ثابت قال: (فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصاري {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}[3] فالحقناها في سورتها في المصحف)[4].

ويلاحظ هنا أن الذي وُجد معه آخر سورة التوبة غير الذي وجد معه الآية التي في الأحزاب، والظاهر أن الذي وجدت معه الآية آخر التوبة هو ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت، وقد نبه ابن حجر الى أن كل رواية متعلقة بحادثة إذ قال[5]: ومما ننبه عليه أن آية التوبة وجدها زيد بن ثابت لما جمع القرآن في عهد أبي بكر، وآية الأحزاب وجدها لما نسخ المصاحف في عهد عثمان) انتهى.

وفي كل الحالات ليس لمبتغي الطعن في تواتر القرآن منفذ من هذا الباب، للأسباب الآتية.

أ – المراد من فقد زيد رضي الله عنه لهما نفي وجودهما مكتوبتين، لا كونهما محفوظتين، وذلك أن زيداً كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، ولا يلزم من عدم وجدانه

---

١ - سورة التوبة ١٢٨.
٢ - صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن حديث ٤٩٨٦.
٣ - الاحزاب ٢٣.
٤ - صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن حديث ٤٩٨٨.
٥ - فتح الباري ٨/٣٤٥.

اياهما أن لا تكون تواترت اليه حفظاً، والحفظ كافٍ في هذا المجال، بل إن الصحابة كانوا بحفظهم في الصدور أثبت من حفظهم في السطور، ولذلك نقبوا عن الآيتين كتابة من خلال حفظهما لهما، وفائدة التتبع المبالغة في الاستظهار.

ب – أن زيداً رضي الله عنه أراد الوقوف على ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، إذ شرط على نفسه أن لا يُثبت الا ما كُتب امام النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا لا ينفي أن تكونا مكتوبتين عند الصحابة، ولكن لم تكن كتابتهما بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم.

ج – ليس في الروايات المذكورة في هذا الباب ما يطعن بالتواتر، وأقل ما يقال أن خزيمة مثلاً لم ينفرد بآخر التوبة، بل شاركه زيد بن ثابت وغيره ممن كان يحفظ الآية، ولا يلزم لتواتر الآية أن تكون مكتوبة فقط عند جمع التواتر، بل قد تكون متواترة بالحفظ في الصدور، وهذا واضح لا يخفى على كل ذي لب نقي.

٧ – ادعى بعضهم أن حرق المصاحف تدبير من عثمان يكاد يكون هتكاً للمقدسات.

الجواب: لم يحرق عثمان رضي الله عنه (ذو النورين) الا الصحف التي تتضمن القراءات الشاذة، والتفسيرية، ولم يحرق المتواترة، بل ضبطها برسم ما زال يفتخر به المسلمون الى يومنا هذا، حتى جُعل علماً قرآنياً مستقلاً ونكتفي للرد بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه يمتدح فعل عثمان رضي الله عنه إذ قال: (يا معشر الناس، اتقوا الله عز وجلّ، واياكم والغلو في عثمان، وقولكم حرّق المصاحف، فوالله ما حرقها الا على ملأ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ووالله لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان)[١].

٨ – عزا بعضهم جمع عثمان للقرآن الى نزعه ارستقراطية، وذلك لاختياره لجنة قرشية مكونة من ثلاثة قرشيين هم عبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث ابن هشام، اضافة الى صحابي واحد فقط من الانصار هو زيد بن ثابت، ولذا كان يتملقهم، لما بينهم من المصالح المشتركة، جعلتهم يكتبون القرآن بلغة قريش.

والجواب: ما ندري أي ارستقراطية في ذلك المجتمع الوليد، الذي لا تزال تعاليم الدين فيه غضة! انه كلام يكاد لتهافته وتناقضه يكذب آخره أوله، وحسبنا للطعن في

---

١ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/٥٤.

هذه الشبهة اشراك زيد المدني في خطة المكيين الثلاثة، ثم ان هذا الاستنتاج لا يقوم الا على مستند باطل، لا يعتمد على نقل ولا عقل، بل لقد اعترف كثير من الاعداء فضلاً عن الأصدقاء بورع اعضاء اللجنة واحتياطهم في نسخ المصاحف[1].

ثانياً : ترتيب سور القرآن وآياته:

لم تثنِ عظمة القرآن الملحدين عن اثارة الشكوك حول ذات القرآن، ومما اثاروه حول ترتيبَ سوره وآياته الشبه التالية:

أ – قالوا: السور القرآنية نظمت حسب طولها وقصرها باستثناء الفاتحة، وتميزت السور المكية بالقصر، والسور المدنية بالطول، وبما أن أطول السور أُنزلت في النصف الثاني لرسالة محمد فقد رتبت بحيث جاءت الاولى في الكتاب، والسور التي أُنزلت في بداية الرسالة رتبت في الجزء الأخير من الكتاب.

والرد: أن ترتيب سور القرآن توقيفي في أرجح الأقوال، فلا شأن فيه للطول والقصر، ثم إن هناك سوراً مكية طويلة كسورة الأنعام التي أُنزلت مشيعة بسبعين الف ملك، وسورة النصر مدنية وهي من القصار، فيها خبر دنو أجل النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا سورة الكوثر قبل المعوذتين وهي أقصر منهما، فانخرمت قاعدتهم وظهر الحق.

ب – طعن بعضهم بترتيب سور القرآن، وحاول بعضهم ترتيبه زمنياً الى مراحل متعددة، معتمدين في ترتيبهم على العقل لا النقل.

والصواب أن الرواية الصحيحة هي الطريقة الوحيدة التي ينبغي اعتمادها في ترتيب القرآن فهو توقيفي، إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم حين نزول الآية او السورة: ضعوا هذا في مكان كذا من سورة كذا.

إن مجرد الاحتمالات العقلية لا يقوى على معارضة المنقول، خاصة فيما يتعلق بالقرآن، فالتزام قراءة آياته مرتبة في غاية الاهمية بالنسبة للمسلم في صلاته وفي تلاوته عموماً.

---

[1] - انظر مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ١٧٥.

جـ – قولهم: إن القرآن غير مرتب ولا منظم، فلم يفرد القرآن كل غرض من اغراضه بفصل أو باب شأن سائر الكتب، بل مزجت أغراضه مزجاً، من غير مراعاة نظام التأليف فيبعد أن يكون وحياً.

الجواب: ليس عيباً وليس نقصاً أن يخالف القرآن الكتب ذات التأليف البشري، بل مخالفة القرآن لانظمة البشر دليل كونه الهياً، إذ غاية ما وصل اليه البشر في مجال التأليف ان يجعل لكل طائفة من معلوماته فصلاً مستقلاً، أما الترتيب القرآني البارع فهو أرقى اسلوباً، بل ينتهي اسلوبه الى حد الاعجاز، ومن دقق وتأمل وجد تناسباً بين كل حرف قرآني والذي يليه وما سبقه، وكذا بين كلماته وجمله وسوره، ففيه ائتلاف بديع وارتباط محكم، ومن هنا وجدنا البقاعي قد ألف كتاباً قيماً كبيراً بيّن فيه هذا التناسب وسماه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وأثبت فيه أن ترتيب القرآن في أعلى الرتب، ليس عشوائياً، ولعل تلك الدراسة واحدة ضمن القدرات البشرية التي تمكنت من الوصول الى شيء من اسرار القرآن، وما خفي عليه – كدأب البشر – لا شك أكثر مما ظهر له، كيف وهو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه؟

لقد ثبت أن موضوعات القرآن متناسقة، مترابطة، وظهر على ساحة التفسير ما يسمى بالتفسير الموضوعي وهو المنهج التفسيري الذي يبرز مدى ترابط آيات القرآن وسوره وكلماته، ضمن موضوع واحد، مستمد من القضايا العامة في السورة أو مستمد من اسمها، أو غير ذلك من دلائل موضوع كل سورة على انفراد، وقد قام الشيخ دراز في كتابه النبأ العظيم بدراسة تحليلة وافية لسورة البقرة، استطاع من خلالها ابراز الوحدة الموضوعية لسورة البقرة وهي أطول سورة في القرآن الكريم.

ثالثاً : اسلوب القرآن واعجازه:

ومن الواهيات التي أُثيرت حول اسلوب القرآن واعجازه الشبه التالية:

أ – يقولون: القسم المكي من القرآن متميز بالعنف والشدة، والسباب والشتم؟

الجواب: لم ينفرد القسم المكي بالعنف، بل موجود بالقسم المدني منه، ففي مجال تحريم الربا نادى القرآن بالحرب على آكل الربا، وليس نقصاً في القرآن أن يشدد النكير على مرتكبي المحرمات، بل هو منهج تربوي فريد لاصلاح الفرد والأمة، خصوصاً اذا اقترن الترهيب بالترغيب، وكم في القرآن عموماً من الدعوة الى العفو والصفح وكرائم الأخلاق.

أما الشتم فيخلو القرآن منه تماماً، بل يربي القرآن المؤمنين على عدم اقتراف ما يؤدي الى السباب، حتى مع أعداء الله، قال تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم}[1]، أما ما في القرآن من مثل: {تبت يدا ابي لهب} فهو محمول على المشاكلة في جزاء من أساء الى الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذا القول، وابو لهب هو الأولى به، وهو به ألصق.

ب – قالوا اختص الاسلوب المدني بتشريع القتال، وخلا المكي من التشريع واختص بالعقائد، ولا صلة بين القرآن المكي والمدني.

الجواب: لم يخل القرآن المكي من التشريع، فالشرائع السماوية بتمامها تحافظ على الاصول الخمسة، العقل والعرض والمال والنفس والدين، وكان المجتمع المكي متحضراً فاكتسبوا من عاداتهم ونخوتهم ما حفظ لهم جزءً من التشريعات، التي يمكن من خلالها ارساء أسس العقيدة، التي لا يمكن أن تبنى الدولة، وتقرر التشريعات الا اذا كانت العقيدة سليمة، صافية، وهكذا كان حتى استقر حال المسلمين في المدينة المنورة، وبدت الحاجة ماسة الى تشريعات جديدة، يمكن بها انشاء دولة متطورة، وجيل خلوق فريد.

أما الصلة بين المكي والمدني فيثبتها الذوق البلاغي المنصف، وشاهد وجودها عجز العرب عن معارضته أو عن اثارة هذه الشبهة أو ادعاء اختلاف الاسلوب القرآني.

ج – قالوا: انكم تستدلون على الوحي باعجاز القرآن، وتستدلون على اعجاز القرآن بما فيه من اسرار بلاغية، ونحن لا ندرك تلك الاسرار ولا نلمسها.

والرد: يشهد الاعداء قبل المؤمنين على أن القرآن يحوي كثيراً من نواحي الاعجاز غير ما فيه من اسراره البلاغية، ففيه الاعجاز العلمي والتشريعي، والبياني، والتاريخي وغير ذلك، فمن خفي عليه وجه من هذه الوجوه بان له من وجه آخر، وما زالت الحقائق العلمية الى يومنا هذا تؤكد اعجاز القرآن العلمي وتقرره، ومن لم ير الهلال لا يسعه الا أن يصدق من رآه.

---

[1] - سورة الأنعام ١٠٨.

د – ادعوا أن القرآن ذو اسلوب دراماتيكي في المخاطبة، حيث أن خصوم النبي بينوا اعتراضاتهم ووجهة نظرهم، ثم يرد القرآن على خصوم النبي بحجج قوية مناوئه لهم، واحياناً لا تجد فيه الجديد الا القليل، وفيه اطناب ممل الى حد بعيد.

الجواب: يتنوع اسلوب القرآن بحسب المقام، ويعالج الحوادث معالجة الخبير العليم، فقد يقرر وقد يرغب، وقد يدعو الى التدبر والتفكر في المخلوقات، كما يدعو الى حسن الخلق، فليس القرآن متصفاً بالعنف دائماً كما يدّعون.

أما اسلوب القرآن فهو فوق طاقة البشر، ولقد شهد اعداء القرآن أن له حلاوة، وعليه طلاوة، واعلاه مثمر، حتى نهوا اتباعهم عن الاستماع اليه، قال تعالى: {وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون}[1].

هـ – يدعون أن الآيات القصيرة نزلت في السور الاولى نثراً مقفى، وهوما يسميه العرب بالسجع، وقد استعمل هذا الاسلوب سابقاً من قبل الكهنة والمنجمين.

الجواب: لا صلة بين الاسلوب القرآني، واسلوب الكهان، بل ان العرب لم يصرحوا بذلك، ولم يكونوا أقل حقداً ممن يثير مثل هذه الشبهات، بل لقد رفضه كثير منهم، حتى أن جرأتهم على وصف القرآن بانه شعر كانت أكثر من جرأتهم على أنه سجع كهان.

و – يقولون: آيات السور المدنية طويلة ومفصلة ومعقدة ونثرية في مظهرها ولغتها، مما تسبب عنه اختلاف في ترقيم الآيات.

الجواب: الاختلاف في ترقيم الآيات ليس عائداً الى الاسلوب، وانما كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يعرفون نهاية الآية من خلال وقف النبي صلى الله عليه وسلم، وليس كل وقف يعني نهاية الآية، بل المراد الوقف الذي يتم به المعنى، ثم ان الآيات التي اختلف في ترقيمها لم تزد على ثلاثين آية فليس الاختلاف المؤثر، خصوصاً وأن معرفة نهاية الآية لا يزيد في كتاب الله ولا ينقص.

[1] - سورة فصلت ٢٦.

رابعاً : الأحرف والقراءات:

ومما أثير في هذا الاتجاه شبه كثيرة، منها:

ا – التيسير المبتغى بالأحرف السبعة غير ظاهر إن كان المراد بالاحرف القراءات.

الجواب: بل التيسير موجود، إذ يمكن للقارىء أن ينطق بالكلمة القرآنية على أكثر من وجه ضمن الوحي، ومتى كانت المشقة في قراءة القرآن حتى نبحث عن التيسير؟ يدل على ذلك الواقع، فمن يوم نزول الاحرف والمسلمون لا يجدون حرجاً في النطق بل يسارع الاعجمي لتعلم الضاد فيخرجها من مخرجها، ويسبق بعض العرب أحياناً كثيرة، فأين الحرج؟

ب – يقولون: اختلفت القراءات القرآنية نتيجة لخلو كلمات القرآن من الشكل والتنقيط، ووجدت فيه حروف ساكنة كثيرة، اثارت كثيراً من البلبلة في الفهم، ونشأ بسبب ذلك القراءات.

الجواب: القراءات من أخطر القضايا التي وجد الملحدون فيها منفذاً للطعن، ويكفي للرد حقيقة واحدة هي أن القراءات توقيفية، لا مجال للاجتهاد فيها، وما رسم القرآن الا ليوافق القراءات، لا العكس، ولذلك ارسل سيدنا عثمان رضي الله عنه الى الامصار مع كل مصحف مقرئاً يقرى الناس ليتلقوا القراءة من أفواه الائمة، ثم ان هناك كلمات قرآنية لا تقرأ الا بوجه واحد، ورسمها يحتمل اكثر من وجه، فالقراءات سنة متبعة.

خامساً : هناك شبهات أثيرت حول القصص القرآني والترجمة والتفسير:

ولما كانت واهية واضحة الضعف آثرت طي صفحتها، مخافة اشتهارها على ضعفها.

الخاتمــة

أحمد الله في الأولى والأخرى، وأثني عليه بما أعانني على خدمة كتابه، شريف المقاصد وكثير الفوائد، فقد خضت غمار بحره، وشربت من عذب مائه، آملاً التضلع والارتواء، والاستظلال بوارف ظله، وجني ثماره الناضجة، وأملي أنني عدت من رحلتي راضياً بما اجتنيته، وحفياً بما أسفر عنه البحث من أفكار كانت حبيسة بطون الأسفار، كأنها ضرب من الأسرار، فما أنا في علوم القرآن بين طلاب العلم الا كمن التقط من البحر أصدافه، فنظم عقداً هو مناط الفخار، ولو ذهبت في وصفه مستقصياً أساليب البيان ما بلغت معشاره، ولا أحصيت مقداره، ولا أدعي أن فيما أدركت من علومه يكفي طلاب العلم الذين يبغون ارتشاف رحيقه المختوم، الا أنه كالمفتاح والمدخل لمن رام عبق الريحان من فيض الرحمن، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس